المختار من التراث العربي
٢٥

من كتاب

خلاصة الأثر

في أعيان القرن الحادي عشر

لمحمد الأمين بن فضل الله المحبي
ت ١١١١هـ = ١٦٩٩م

السفر الأول
من أعيان السياسة والإدارة
اختارت النصوص وقدمت لها وعلقت عليها

الدكتورة ليلى الصباغ

الاشراف الفني : زهير الحمو

المقدمة العامة

لقد وسم كثير من الباحثين في الأدب والتاريخ ، حضارة « المجتمع العربي » ، خلال العصر العثماني ، الذي امتد أربعة قرون (٩٢٢ ـ ١٣٣٥ هـ / ١٥١٦ ـ ١٩١٦ م) ، بسمات الانحطاط ، والتدهور ، والانحدار ، مندفعين وراء الفكرة الشائعة ، بأن الحضارة العربية الاسلامية ، التي تأصلت جذورها ، وأينع ثمرها ، خلال العصر العباسي ، وفي كل بقعة من بقاع الوطن العربي ، والعالم الاسلامي ، الممتد آنذاك بين الهند والصين شرقاً ، والأندلس غرباً ، قد أصابها ذلك الحكم الأعجمي ، الغريب ، بالوهن والذبول . بل يشد بعضهم الزمن تراجعاً ، فيمد مرحلة الانحطاط هذه إلى فترة أبعد في القدم ، حتى تغطي حقبة طغيان العناصر الأعجمية على الحكم،

العربي كلها ، وبصفة خاصة ، التركية منها ، التي سادت من منتصف القرن الخامس للهجرة ، وحتى منتصف القرن الرابع عشر (٤٤٧ – ١٣٣٥ هـ / ١٠٥٥ – ١٩١٦ م) . وبذلك ربطوا بين تدهور الأحوال السياسية للخلافة العربية العباسية ، وانحطاط الحالة الحضارية في انحاء البلاد العربية والاسلامية .

وهكذا تولد في الأذهان ، بل وثبت فيها ، أن الحضارة العربية الاسلامية قد انقطع معينها ، أو جفت عروقها ، منذ أن خرج مقود السياسة في العالم الاسلامي ، والوطن العربي من يد العرب . وقد يكون في بعض تلك التعميمات ، والأحكام ، بعض صحة ، وقد لايكون ، إلا أن مايجب أن يكون ، هو قيام المؤرخين ، والمفكرين العرب المعاصرين ، يبحث هذا الأمر ، بحثاً أكثر جدية ، وأصالة ، وموضوعية ، وأشد عمقاً ، واستقصاءً ، ولاسيما في ضوء مايعثر عليه كل يوم من « التراث العربي » المدوّن ، والمحسوس ، الذي واكب تلك المراحل المتهمة من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية .

إن الدراسات الأولية التي لامست مؤخراً ، بعض

الفترات الموسومة بالتدهور ، والافلاس ، من الحضارة العربية الاسلامية ، وبصفة خاصة « المرحلة السلجوقية » ، و « عصر المماليك » ، أظهرت أن « الحضارة العربية الاسلامية » في المشرق لم تشلّ ولم تخبُ جذوتها ، بل ظلت فاعلة ، ومتقدة العطاء ، مع اغتنائها بلوينات جديدة . واستطاعت هذه الحضارة المكينة ، أن تطبع الدول غير العربية ، التي قامت على أرضها ، بطابعها العربي ، وأن تحوّلها إلى دول حضارية ، تهتم بالعلم ونشره ، والفن وازدهاره ، بعد أن كانت شعوب تلك الدول بدوية المجتمع ، جلفة الطباع ، هزيلة الحضارة ، ولا دَيْدَنَ لها سوى الحرب والطعان.بل واستطاعت في تلك الحقبة ، أن تمنح أوربا ، التي غزت الأرض العربية ، دفقة الحياة الحضارية.إن « الحضارة العربية » لم تمت بدخول الأتراك السلاجقة وحكمهم للعالم الاسلامي المشرقي ، ولا بهجوم الصليبيين وتوضعهم في أجزاء من الأرض العربية، ولا بحملات المغول الكاسحة ، وتخريبها لعاصمة الخلافة العربية في بغداد ، ولكثير من مظاهر الحضارة ، ولا بحكم المماليك في مصر والشام ، بل إن حركيتها كانت أقوى

من جميع تلك النوائب التي لحقت بها ؛ فعادت الحياة تملأ حنايا العالم الإسلامي ، والوطن العربي من جديد ، برفد وتغذية من معينها الثرّ الذي لاينضب . كما أن هذه الحضارة لم تتقهقر بتفجر الحضارة الأوربية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، إذ إن ذلك التفجر اليانع ذاته ، وفي جذوره الأولى، كان من عطائها . بل ظل الأوربيون ، يرون فيها ، عبر سيّاحهم ، وجالياتهم، وحتى منتصف القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، نبعاً يرشفون منه ، ويأخذون مايرونه مساعداً على تكامل حضارتهم .

لقد بقيت « الحضارة العربية الاسلامية » إذاً ، على الرغم من جميع الكوارث السياسية التي حلّت بقومها العرب ، حيّة ، وفعالة . وقد تكون انكمشت على ذاتها ، ودارت في فلك نفسها ، فلم تدخل بحوار مباشر وسريع مع الحضارة الأوربية الجديدة ، لعوامل عديدة — قد لاتكون هذه المقدمة الموجزة مجال مناقشتها — ، ومن ثمّ ، بدا لأبنائها ، بعد احتكاكهم المباشر بالحضارة الأوربية المتألقة، ومنجزاتها ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، أنها

قد فقدت جميع قوى الحياة والاحياء ، فلوى بعضهم وجوههم عن سبر أغوارها ، والوصول إلى أصولها ؛ ولاسيما أنهم كانوا يعيشون تهلهلاً سياسياً ، هاصراً للذات ومقلقاً . وكان موقفهم هذا مشابهاً لموقف أبناء أوربا في مطالع عصورها الحديثة ، عندما نظروا إلى حضارتهم في العصور الوسطى ، نظرة ازدراء وإهمال ، لأنهم رأوا فيها آنذاك ، وهم المتفتحون للحياة الربيعية الجديدة ، مرحلة شتاء وظلام . إلا أنهم عندما تماسكوا حضارياً ، عادوا إليها ، ليروا فيها بدء حوارهم الحضاري مع الحضارات الأخرى التي سبقتهم ، ومنها « الحضارة العربية الاسلامية » ذاتها ، وليشهدوا من خلالها ميلاد مدنيتهم المعاصرة ، فقوموها تقويماً جديداً ، ومغايراً لتقويمهم السابق .

لقد آن الأوان لإعادة تقويم « الحضارة العربية » ، في الفترات التي وصفت بالانحطاط ، والتدهور . فعلى المؤرخ العربي المعاصر ، أن يدخل ميدان الدراسة العلمية العميقة ، وهو خالي الذهن تماماً من أية أفكار مسبقة ، وأن ينكبَّ بشهية وإقبال ، على « تراث » تلك الحقب ، وأن يمعن فيه درساً ، وتنقيباً ، وتدقيقاً ، وتجريحاً ،

وتعديلاً ، وبموضوعية بحتة . ولعلّه سيرى بأن « الحضارة العربية » ، على الرغم من بعض ذبول حلّ بها بين حين وحين ، وهنا أو هناك ، تبقى أشبه بتلك المياه المختزنة في باطن الأرض ، التي تغيب فترة تطول ، أو تقصر ، ثم تندفع فوّارة ، ساخنة ، ومعطاء . وأن هذه الحضارة ، التي رفع عُمُدَها العرب ، ومزجوا في بنائها فكرهم العربي الاسلامي ، الحي والمبدع ، بأفكار الحضارات السابقة ومعطياتها ، وتفاعلوا اثناء تشييدها ، انسانياً ، مع جميع الشعوب التي انضوت تحت أجنحة حكمهم ، كانت أقوى بقاءً ، وأكثر ديمومة ، من وجودهم السياسي الموحد ، وزعامتهم السياسية للعالم الاسلامي . وهذه الحضارة ، إذا ماوعوها عقلياً ، وعلمياً ، ستساعدهم بقوى أصولها الخصبة ، وجذورها الانسانية العميقة ، على استعادة وجودهم السياسي العربي ، الموحد والقوي .

وإذا ماسلطت أنوار البحث على « المرحلة العثمانية » من تاريخ « الحضارة العربية » فقد يتبدى أن الأتراك العثمانيين ، بكل مايوصفون به من أصالة بدوية ، وحب للحرب والغزو ، قد هذبتهم الحضارة العربية الاسلامية ، وتبنوها ، وأخذوا دعاماتها التشريعية ، وكثيراً من نظمها ،

واغترفوا من جميع علومها ، ولاسيما الدينية ، وشجعوا على تدريسها وتدارسها ، والتأليف في بابها . وبنوا المدارس لطلابها ، وتتلمذ قضاتهم وعلماؤهم ، ووعاظهم ، وائمة مساجدهم ، بل وسلاطينهم ، وعديد من رجال الحكم ، على تراثها . ورسخت اللغة العربية عند بعضهم حتى تفوّق فيها ، وألف بها نثراً وشعراً ، فأغنى التراث العربي . ومن أبرز الأسماء المعروفة في هذه الحلبة ، « طاشكبري زادة »(١) ، و« حاجي خليفة »(٢) ، و « منجم باشي »(٣).

---

(١) أحمد بن مصطفى بن خليل (٩٠١ – ٩٦٨ هـ / ١٤٩٥ – ١٥٦١ م) . ولد في بروصه ، ودرس العربية والأدب والفقه . ودرس الحديث وعلوم اللغة العربية ، وولي القضاء في استامبول . له مجموعة من المؤلفات العربية أهمها « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » و « مفتاح السعادة » .

(٢) « مصطفى بن عبدالله (١٠١٧ – ١٠٦٧ هـ / ١٦٠٩ – ١٦٥٧ م) ويلقب « بكاتب جلبي » . وقد عمل في الجيش ، وعين في منصب « الخليفة » أي المساعد الثاني في ديوان المحاسبة ، فلقب بحاجي خليفة . أهم مؤلفاته بالعربية « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ».

(٣) أحمد بن عيسى بن لطف الله (المتوفى سنة١١١٣ هـ / ١٧٠٢ م). ولد في سالونيك ، وتعلم فيها . ودرس الفلك وروابطه بالتنجيم على عادة ذلك العصر . وصل إلى منصب كبير منجمي البلاط السلطاني في عهد السلطان « محمد الرابع » ، ومن هنا أتى لقبه . من كتبه العربية « صحائف الأخبار » .

ومن يقرأ كتب تراجم المؤرخين العرب في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين ، قد يعثر على كثير منهم .

وبالمقابل فإن الأتراك العثمانيين ، لما سادوا البلاد العربية سياسياً ، تركوا لها خلال القرون الأولى من حكمهم لها ، تقاليدها العلمية السابقة ، ومدارسها ، وحلقات مساجدها ، بل زادوا في بعضها ، وفي أوقافها ، واحترموا علماءها من السنة مهما كان مذهبهم . علماً أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنفي ، وقبلوا تحركهم وسيطاً بينهم وبين الرعية . إن هذا الواقع ، لايغطي بالطبع سوء إدارة عديد من ولاتهم ، وفساد انكشاريتهم ، وجورهم في معاملة سكان البلاد ، والقسوة عليهم بالضرائب ؛ فالتناقض بين المَنْحَيَيْن قائم وبيّن .

وإذا ماطالع القارىء العربي ، باهتمام ، وتمعن ، وتمحيص ، كتب « التراجم العربية » في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين بصفة خاصة ، قد يخرج وهو مؤمن ، إذا ماأسقط منها تراجم بعض « المجاذيب »،

من المتصوفة « العوام » ، بأن المجتمع العربي ، بل والاسلامي ، لم يعدم حركيته ، وإنما كان يعيش فعاليات حضارية متنوعة ، وبصفة خاصة العلمية والأدبية منها . وأقل شيء يقال فيها ، بأنها ليست أدنى في مستواها ، من فعالياته ، خلال الفترة المماوكية السابقة ، التي أنصفت إلى حد ما ، ووصفت بالخصب مع عدم التجديد ؛ وإن كان يغطي ذلك النشاط الحضاري ، موجة من « التصوف العامي » ، الذي أغرق فكر العامة ، وبعض « المثقفين » ، في دوامات الكرامات واللامعقول . ففي ميدان التاريخ مثلاً ، تابعت المدارس التاريخية العربية خطوط عملها السابقة ، وأنتجت مؤرخين على امتداد الوطن العربي ، موسوعيي المعرفة ، مدققين ومحققين ، ويدهشون الباحث المعاصر ، بغزارة مؤلفاتهم وتنوعها ، وضخامتها ، بل وبالقيمة التاريخية العلمية لبعضها ه من أمثال النعيمي(١) ،

(١) عبد القادر محمد النعيمي (٨٤٥ - ٩٢٧ ه / ١٤٤٢ - ١٥٢١ م) . مؤرخ دمشقي عاصر دخول العثمانيين إلى بلاد الشام ومصر . من مؤلفاته الهامة : « الدارس في تاريخ المدارس » .

و « ابن طولون » (١) ، و « ابن الحنبلي »(٢) و « النجم الغزي »(٣) ، و « البوريني »(٤) ، و « المحبي »(٥) ،

---

(١) محمد بن علي بن طولون الدمشقي (٨٨٠ – ٩٥٣ ﻫ / ١٤٧٥ – ١٥٤٦ م) . مؤرخ وفقيه . له مؤلفات عديدة في التاريخ وفنون أخرى. من أشهر كتبه « مفاكهة الخلان في حوادث الزمان » ، و « إعلام الورى ممن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى » .

(٢) رضي الدين أبوعبدالله محمد بن ابراهيم (٩٠٨ – ٩٧١ ﻫ / ١٥٠٢ – ١٥٦٣) . من علماء حلب ومؤرخيها . له مؤلفات عديدة . أهمها في التاريخ « در الحبب في تاريخ أعيان حلب » .

(٣) محمد بن محمد بن بدر الدين الغزي الملقب بالنجم . ولد في دمشق ، وتوفي فيها (٩٧٧ – ١٠٦١ ﻫ / ١٥٧٠ – ١٦٥١) . مؤرخ وأديب وفقيه . له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم ، وأهمها في التاريخ « الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة » وذيله : « لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر » .

(٤) الحسن بن محمد البوريني (٩٦٣ – ١٠٢٤ ﻫ / ١٥٥٦ – ١٦١٥ م) شاعر ومؤرخ وأديب ، وفقيه . من أبرز مؤلفاته : « تراجم الاعيان من أبناء الزمان » .

(٥) محمد أمين بن فضل الله المحبي (١٠٦١ – ١١١١ ﻫ / ١٦٥١ – ١٦٩٩ م) . أديب ومؤرخ . له عدة مؤلفات ، أهمها في التاريخ : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » .

و « ابن أبي السرور البكري الصديقي » (١) ، و « ابن أبي الرجال » (٢) ، و « الشلي» (٣) ، و « عبد القادر العيدروس » (٤) وابن القاضي (٥) ، و « ابن

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي (٩٩٨ هـ - مجهول تاريخ الوفاة / ١٥٨٩م - ...) مؤرخ وفقيه مصري.له مؤلفات عديدة في التاريخ . من أهمها : « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » . و « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » .

(٢) أحمد بن صالح بن أبي الرجال اليمني (١٠٢٩ - ١٠٩٢ هـ/ ١٦٢٠ - ١٦٨١ م) أديب ومؤرخ . مؤلفه الهام « مطلع البدور ومجمع البحور » .

(٣) محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني الشلي الحضرمي (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢١ - ١٦٨٢ م) . له عدة مؤلفات أهمها في التاريخ « السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر » .

(٤) مؤرخ يمني (٩٧٨ - ١٠٣٧ هـ / ١٥٧٠ - ١٦٢٨ م) انتقل إلى الهند وتوفي فيها . من مؤلفاته : « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » .

(٥) أحمد بن محمد المكناسي الزناتي المعروف بابن القاضي . مؤرخ ورياضي (٩٦٠ - ١٠٢٥ هـ / ١٥٥٣ - ١٦١٦ م) . من مؤلفاته : « درة الحجال في اسماء الرجال » و « غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض » .

كنان» (١) ، و« المرادي » (٢) ، وغيرهم كثير ، حتى يمكن أن يقال عن هذه المرحلة بأنها مرحلة ازدهار في التأليف التاريخي ، وبصفة خاصة في بلاد الشام. وقد رافق ذلك الازدهار في ميدان التاريخ ، نشاط أدبي ملموس ، مما دعا بعض الأدباء المعاصرين اليوم ، إلى إطلاق صفة « النهضة الأدبية » على تلك الحقبة الزمنية .

ولا يلاحظ قارىء « التراجم » ، فيضاً في التأليفين التاريخي والأدبي فحسب ، وإنما نشاطاً أيضاً في ميادين العلوم الأخرى ، ولاسيما علوم الدين ، واللغة العربية . ومع أن نسبة المترجم لهم ، من النابهين في علوم الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ، هي أضعف من نسبة

---

(١) محمد بن عيسى بن محمود بن كنان (١٠٧٤ — ١١٥٣ هـ / ١٦٦٣ — ١٥٧٤ م) . من متصوفة دمشق ومؤرخيها . من مؤلفاته « المروج السندسية في تاريخ الصالحية » و « المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية » و « الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر وألف ومية».

(٢) محمد خليل بن علي (١١٧٣ — ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ — ١٧٩١ م) . كان مفتي الشام ونقيب أشرافها . أشهر كتبه « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » .

البارزين في حقول العلوم الدينية واللغوية ، إلا أن هناك عديداً منهم ، قد عمل ، ونبغ ، وألف ، واخترع ، وفي مختلف الأقطار العربية . وقد يكون هناك من لم يترجم له ، وكان في الوقت ذاته ، حجة في العلم . ومن هؤلاء على سبيل المثال « تقي الدين بن معروف » الراصد الشامي ، المتوفى عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م . وهو الذي كانت له اليد الطولى في التخطيط لمرصد « استامبول » عندما عمل رئيساً للفلكيين (منجم باشي) في بلاط السلطان . وقد خلّف « تقي الدين » عدة مؤلفات ، منها ماهو في « الهندسة الميكانيكية » . وكتابه في هذا الباب بعنوان « الطرق السنية في الآلات الروحانية » ، وقد حققه ونشره ، وقدم له الدكتور « أحمد يوسف حسن » في كتابه « تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية » (حلب ١٩٧٦) .

إن جميع تلك المعطيات الأولية ، لدليل واضح على حياة فكرية عربية غنية ، تأبى بشدة وصفها « بالانحطاط » ، و « التدهور » ، ولاسيما أن تقويمها قد تم بصورة سابقة لدراسة علمية ، موضوعية ، عميقة ، ودقيقة . بل إنه يمكن القول عنها ماقاله بعض المستشرقين عن حقبة

« السلاجقة الأتراك » بأنه « لايحق لنا أولاً أن ننعت بالانحطاط ، حقبة من التاريخ ، تألق فيها عدد من كبار مفكري الحضارة الاسلامية » كالذين أشير إليهم سابقاً .
ومن هذا التراث الفكري العربي ، الغزير والثمين في المرحلة العثمانية ، وقع الاختيار على كتاب من كتب « التراجم الطبقية » الغنية، وهو « **خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر** » للمؤرخ ، والأديب « **محمد الأمين المحبي** » ، لتنتقى منه مقتطفات ، تقدم للقارىء العربي ، نموذجاً ثرّاً من تراث تلك المرحلة ، وصوراً حيّة لمختلف الفعاليات التي كان يعيشها المجتمع العربي والاسلامي في تلك الحقبة .

* * *

قيمة كتاب
«خلاصة الأثر»

قال ابن شاشو (١) - وهو من معاصري المحبي - عن كتاب «خلاصة الأثر»: «صنف (أي المحبي) تاريخاً لم يسبق إلى حسن تنميقه، لم يبق للكتب قبله ذكراً، فكأنها بالنسبة إليه إذا عدت صفراً، حوى جميع محاسنها» (٢) وكان هذا الكتاب من الكتب المرموقة والمتداولة في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، الذي توفي المحبي في مطلع عقده الثاني، بدليل حرص المثقفين في ذلك القرن على قراءته، واستعارته من بعضهم بعضاً، على ماذكره

(١) عبد الرحمن بن محمد. (١٠٥٥ - ١١٢٨ هـ / ١٦٤٥ - ١٧١٦). أديب من أهل دمشق. له كتاب في «تراجم بعض أعيان دمشق» قلد فيه ريحانة الألبا للخفاجي، ونفحة الريحانة للمحبي.

(٢) المصدر السابق. ط. بيروت ١٨٨٦. ص ١٠٠.

« المرادي » في مخطوطته : « مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد »(١) .

وفي الواقع ، إن لكتاب « خلاصة الأثر » قيمة تاريخية علمية ثمينة : فبمعاصرة مؤلفه لعديد من الشخصيات التي يترجم لها ، وللأحداث والأحوال المختلفة للمجتمع التي تتضمنها تلك التراجم،أو بقربه الزمني منها ، وأحياناً المكاني ، وبوفرة التراجم التي يطرحها وتنوعها ، وبغزارة المعلومات التي يقدمها ودقتها ، هو من الأصول النادرة ، التي تعطي صورة أقرب ماتكون إلى الحقيقة ، عن تاريخ البلاد العربية ، والعالم الاسلامي ، بصفة عامة ، وبلاد الشام بصفة خاصة ، خلال مرحلة لاتزال غامضة ، ولما تدرس الدراسة الكافية ، أو تقوّم التقويم الموضوعي السليم – كما أسلفنا القول – . والسفر بمجموعه من الكتب التاريخية الموثوقة ، لأن مؤلفه مؤرخ حق ، وبالمعنى العلمي الحديث للتاريخ : فقد جمع الثقافة الواسعة ، والمتينة ، لعصره ، إلى بنية أخلاقية قويمة ، تتصف

(١) مخطوطة مصورة من المتحف البريطاني تحت الرقم OR 4050 sch 5501 ص ١٣٧ .

بالصدق والأمانة ، والنزاهة ، والتجرد . وتوّج الثقافة والخلق ، باتباعه منهجية تاريخية ، علمية ، سليمة ، تبدت واضحة ،في اعتماده على كمية وفيرة من المصادر الكتابية ، والروايات الشفوية ، المحققة والموثوقة ، أدرجها في مقدمة كتابه أو خلال تراجمه ؛ وتجلّت كذلك في ملاحقته الخبر واستقصائه من مظانه،بدأب وصبر ،وأينما وجده ، ومهما بعدت شقته ؛ ثم في موازنته بعض المصادر ببعضها ، ونقدها بموضوعية ودقة ، ومن مختلف الوجوه ، واستخلاص الوقائع الصحيحة منها . كما تبينت تلك المنهجية السليمة ، في أمانته في طرح الوقائع مع الاعتراف بمصادرها ، وفي شرحه الوافي لمختلف الأمور ، وفي تركيبه المتماسك لبنية الشخصية التي يترجم لها ، وإحاطته بكل جوانبها ، بحيث تبدو حية وناطقة . وعلى الرغم من مزج المحبي التعليل الميتافيزيقي بالتعليل العقلاني ، فإن اتجاهه نحو التعليل المنطقي والواقعي يبقى هو الأقوى .

كل تلك الأمور تجعل من مؤلِّف « خلاصة الأثر » مؤرخاً ، يدخل بحق ، ومن باب عريض ، إلى مصاف

المؤرخين الكبار، لا في عصره فحسب ، وإنما في عصرنا أيضاً ؛ ولاسيما إذا لوحظت ضخامة العمل الذي قدمه . هذا إلى جانب توطيدها لقيمة كتاب « خلاصة الأثر » سفراً تاريخياً ، أميناً وموثوقاً ، وأصلاً ثميناً من أصول تراثنا العربي .

ويجب ألا تنسى في بحران تقويم « خلاصة الأثر » أصلاً تاريخياً ، رفيع الشأن ، قيمته الكبيرة في الأدب العربي : بأسلوبه الرصين ، وبما حواه من معلومات قيمة عن أدباء تلك المرحلة من التاريخ ، وشعرائها ، وبما تضمنه من انتاجهم النثري والشعري؛وأخيراً بكونه نموذجاً من الإنتاج الأدبي التاريخي للقرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر للميلاد .

ولابد من الاشارة ، إلى أن ذلك السفر، على الرغم من قيمته التاريخية والأدبية الثمينة ، وعلى الرغم من استفادة المؤرخين والأدباء من معينه في بحوثهم ، لم يحظ بعد بدراسة خاصة وافية . وقد تكون « الدراسة الموجزة » له ، المطروحة في هذه المقدمة ، خطوة في هذا السبيل ، علماً أن « دراسة موسعة » له آتية في الطريق .

* * *

سيرة المحبّي
مؤلف خلاصة الأثر

لم يكن الشيخ الشاعر « محمد المحمودي » رفيق المحبي ومعاصره ، مغالياً عندما رثاه قائلاً ؛ :

لم يبق كهفٌ للأفاضل يُرتجى
بعد المحبي ذي المعاني الزاهية
الفاضلُ ، النحريرُ ، أوحد دهره
من حاز أنواع الفنون الباهية
الجِهْبِذ ، النقاد ، درةُ شامنا
كنزُ الدقائق والعلوم الوافية

« فالمحبي » ، كما يبدو للباحث في إنتاجه العميم ، هو قمة من قمم الأدب والتاريخ ، في الحضارة العربية الإسلامية ، ونموذجاً شامخاً للمعرفة الموسوعية في عصره :

أخذ من فنون العلم ، وضروب الأدب ، الوفير وما ارتوى ، وأعطى غزير عرفانه ، وجمّ أدبه ، ماأروى .

و « المحبي » هو « محمد الأمين » بن « فضل الله » ، ابن « محب الله » ، بن « محمد محب الدين » بن « أبي بكر تقي الدين » بن « داود » المحبي . ولد في مدينة دمشق ، عام ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م ، من أسرة عربية ، ترجع في أصولها إلى مدينة « حماة » ؛ فهي غير أسرة « المحبي » الدمشقية . ويفتخر « المحبي » بأصالته العربية ، وكأنه يعبر بذلك عن شعور قومي عربي يحسّه تجاه الأروام « الأتراك » الحاكمين ، ويميّزه عنهم . وفي ذلك يقول ، في مطلع ترجمته لأسرته في كتابه « نفحة الريحانة » : « بيت المحبي ، بيت أبي وجدّي ، ومنبت عرق مَحْتِدي ومجدي ، والمجد ماافتخرت به العرب من القدم .

وإني من العرب الأقدمين
وقد مات مِنْ قبلِ مَخلْقيَ الكَرَمُ

وأنا إذا افتخرت هزتني أريحية الطرب ، ونافست بآباء ، تماكني عند ذكرهم حمية العرب :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا ياجرير المجامع.» (١)

وبيت « المحبي » ، إلى جانب أصالته العربية ، كان بيت علم وعرفان : فوالد جده « محمد بن أبي بكر بن داود » — وهو أول من وفد من الأسرة إلى دمشق . واستقر فيها عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٦ م — كان عالماً محيطاً بفنون عديدة من العلوم : كالتفسير ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والفرائض ، والحساب ، والمنطق ، والحكمة ؛ والفنون الغريبة ، كالزايرجا (٢) ، والرمل ، وغيرها . كما كان أديباً ضليعاً . وقد زار بلاد الروم (أي بلاد الدولة العثمانية) مرات ، واحتك بعلمائها ، وحكامها . وعينته السلطات العثمانية مدرساً في « المدرسة القصّاعية »

(١) تحقيق عبد الفتاح الحلو . ٤ اجزاء . القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ ج ٢ . ص ١٨١ .

(٢) الزايرجا : جدول تنجيمي سحري شائع في المغرب الأقصى ، ذكره ابن خلدون في مقدمته ، وينسب ايجاده إلى الصوفي « أبي العباس السبتي » ، في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

بأن « محمد الأمين » قد ولد ونشأ ضمن أسرة علم ، وثراء ، وقضاء ، وجاه . ولم تكن أسرة والدته ، وهي من « آل الأسطواني » ، لتقل شأناً ، ومرتبة ، وغنى ، وعلماً ، عن أسرة أبيه . فهي ابنة « أبي الصفا محمود بن أبي الصفا الأسطواني » الدمشقي الحنبلي . و « كان من جملة الرؤساء ، وفضلاء الكتاب ، ولي خدمات كثير من كتابات الخزينة والأوقاف » .

ويتضح من المصادر التي تحدثت عن «المحبي» . ومن ترجمته لنفسه في كتابه « نفحة الريحانة » ، ومما ورد في ثنايا « خلاصة الأثر » ، أنه يمكن أن نميّز في حياة « المحبي» ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وتمتد من ميلاده وحتى بلوغه الخامسة والعشرين من عمره (١٠٦١ — ١٠٨٦ هـ / ١٦٥١ — ١٦٧٦م) . وهي أطول مرحلة في حياته القصيرة نسبياً ، إذ لم يعمرّ المحبي سوى خمسين عاماً هجرياً . وقد قضى تلك المرحلة كلها في مسقط رأسه دمشق ، ماعدا عامين منها ، كان يتنقل خلالهما ، بينها وبين بيروت ، حيث عمل والده قاضياً فيها . ويمكن أن توصف هذه المرحلة .

بدمشق (١) . وفي هذه المدينة تزوج من بيت العلاّمة الدمشقي « إسماعيل أبي الفداء النابلسي » (٢) . وقد تولى عدة مناصب قضائية ، وعمل بالفتيا ، وكان حنفي المذهب ، واشتهرت فتاواه ، وخلّف كثيراً من المؤلفات . ولم يكن جدّ « المحبي » ، وأبوه ، أدنى علماً ، وأقل فضلاً من الجد السابق الذكر ، فقد سارا على خطاه ونهجه ، وتسنما هما الآخران مناصب قضائية كما فعل ؛ ويبدو أن أسرة « المحبي » كانت ثرية بالمال ثراءها بالعلم . ويشير المؤرخ نفسه إلى ذلك عند حديثه عن جده فيقول بأن « الدنيا أقبلت عليه إقبالاً عظيماً ، وملك الذخائر والتحف ، مالايضبط بالاحصاء . . » .

وهكذا يتضح من متابعة أصول « المحبي » لأبيه ،

---

(١) مدرسة بحارة القصاعين في محلة الخضيرية . درست وتحول مكانها إلى دور سكن اليوم . وقد شرط واقفها أن يكون المدرس بها أعلم الحنفية بالأصلين . وقد انشأتها خطبلسي خاتون سنة ٥٩٣ ه / ١١٩٦ م . (النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس . جزءان . تحقيق جعفر الحسني . دمشق ١٣٦٧ ه / ١٩٤٨ م . ج ١ . ص ٥٦٥) .

(٢) من كبار علماء دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .عمل بالتدريس والفتيا . توفي عام ٩٩٣ ه / ١٥٨٦م .

بأنها مرحلة تكوين المحبي لثقافته العربية الاسلامية الواسعة ، على يد علماء من العرب المسلمين .

ولا يعرف ، في الواقع ، شيء عن طفولة « المحبي » قبل الحادية عشرة من عمره ، ولكن يستطاع القول ، إنه كان يعيش في كنف والديه ، حياة بحبوحة ويسر ، لاحياة ضَنْك وعُسر . ومن الطبيعي أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة على يد والده ، وفي سن مبكرة ، قد تكون السادسة أو قبلها ، على عادة علماء ذلك العصر ، الذين كانوا يقدمون أولادهم للعلم منذ طفولتهم الباكرة . ولا بد أن يكون القرآن الكريم هو أول مادرس ،وحفظ ، وختم . ويذكر « المحبي » بأنه بدأ بالاشتغال بالعلم ، قبل بلوغه الحادية عشرة من العمر ، أي قبل عام ١٠٧٣ هـ / ١٦٦٢م، وهو العام الذي غادره فيه والده ، ليلتحق ببلاد الروم ، وليغيب عنه فيها أربع سنوات .

ولا يذكر « المحبي » شيئاً عن والدته ، وعن وجودها أو عدمه ، بل إن الرسالة التي بعث إليه بها والده ، عندما علم بوفاة « فضل الله » ، أخي المحبي الصغير ، لاتشير ، ولو بكلمة صغيرة إلى تلك الأم . وكل مايتبين مما طرحه

« محمد الأمين » في مؤلَّفيه ، « خلاصة الأثر » و « نفحة الريحانة » ، أنه خلال فترة غياب والده ، كان في كفالة عمه العطوف « صنع الله » ، وخاله المحب الودود « محمد ابن أبي الصفا الأسطواني » . وبذلك وجد « المحبي » في غياب والده ، وأثناء مراهقته الأولى ، من يعوّض له حنان الأب ، ويوجهه الوجهة الصالحة ، المتلائمة مع ميوله للمعرفة ، واهتماماته العلمية والأدبية . فدرج ينهل من علماء دمشق ، فنون العلوم المختلفة . وكانت دمشق آنذاك ، مركزاً نشيطاً من المراكز العلمية العربية ، كثرت فيها المدارس ، وحلقات المساجد ، وأمّها كبار العلماء من الأقطار العربية والاسلامية . وفي الواقع ، لقد تتلمذ « محمد الأمين » على كبار مشايخ عصره ، « كابراهيم ابن منصور الفتال » (١) (المتوفى ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م) ، و « رمضان بن موسى المعروف بابن عطيف » (٢) (المتوفى ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) ، وكان نحوياً وراوياً

---

(١) انظر ترجمته التفصيلية في خلاصة الأثر ٤ أجزاء . القاهرة ١٢٨٤ هـ (تصوير دار خياط ببروت د . ت) ج ١ . ص ٥١ فما بعد .
(٢) المصدر نفسه . ج ٢ . ص ١٦٨ فما بعد .

للشعر ، و « محمد بن بدر الدين بن بلبان البعلي » (١) (المتوفى ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م) وكان من المقدمين في الحديث ، و « عبد الحي بن أحمد العكري » (٢) المعروف بابن العماد (المتوفى ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) ، صاحب كتاب « شذرات الذهب » ، و « محمد بن علي المعروف بالعلاءالحصكفي » (٣) (المتوفي١٠٨٨ / ١٦٧٧م) مفتي الحنفية بدمشق ، و « محمد بن يحيى الفرضي » (٤) (المتوفى ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م) ، و « محمود البصير الصالحي الدمشقي » (٥) (المتوفى ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣) وكان عارفاً بالرياضيات والالهيات ؛ والطب ، و « عبد القادر بهاء الدين المعروف بابن عبد الهادي العمري » (٦) (المتوفى ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م) ، وغيرهم . ودرس عليهم الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والنحو ،

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ . ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .
(٢) المصدر نفسه . ج ٢ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(٣) المصدر نفسه . ج ٤ . ص ٦٣ — ٦٤ .
(٤) المصدر نفسه . ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .
(٥) المصدر نفسه . ص ٣٣٠ — ٣٣١ .
(٦) المصدر نفسه . ج ٢ . ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .

والمعاني ، والبيان ، والمنطق ، وعلم الكلام ، والتصوف ، والأدب ، والحساب ، والهندسة ، والفلسفة . ولم يقتصر في استقاء معرفته الواسعة ، من علماء دمشق فحسب ، بل كان يتتبع زيارات كبار علماء العصر الوافدين من البقاع الاسلامية المختلفة . ومن هؤلاء العالم المدني « ابراهيم ابن عبد الرحمن الخياري » (١) (المتوفى ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م) أحد المشاهير في الحديث ، والمعارف ، وفنون الأدب والتاريخ ، وقد أجازه بجميع مروياته ، وغيره . ويبدو أنه في هذه المرحلة من حياته أخذ « الطريقة الخلوتية » (٢) في التصوف من شيخها الكبير آنذاك

(١) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٥ فما بعد .

(٢) أتت تسميتها من « الخلوة » (أي الانفراد والانعزال) ، التي هي من لوازم الطريقة . وهي تستند إلى الرياضة ، وكسر النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وقمع الشهوات ، والامتناع عن اللذات . وكان للمريدين في كل سنة « خلوة عامة مع شيخهم أيام الشتاء ، يصومون خلالها ثلاثة أيام ، ويأكلون عند المساء مقدار أوقيتين من الحريرة ، ورغيفاً من الخبز أكثر من أوقية ، لا يشربون الماء القراح ، بل يشربون القهوة ، ويستمرون في الذكر والعبادة ، آناء الليل وأطراف النهار . وأما باقي الايام ، فيقومون سحراً ويتهجدون على قدر طاقتهم ، ثم يأخذون في =

في دمشق، حيث انصرف الوالد إلى تأليف كتاب في تراجم عصره، يكون ذيلاً لتاريخ «البوريني». ولم يستمتع «محمد الأمين» طويلاً بصحبة أبيه، إذ وافت هذا الأخير المنية بعد ثلاث سنوات. في ٢٣ جمادى الثانية عام ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م.

لقد تابع «المحبي» خلال السنوات الخمس التي عاشها رفيقاً لوالده، ولأربع سنوات أخرى بعد وفاته، تنمية ثقافته. وقد جاء الخزين العلمي لوالده، وتجارب هذا الوالد الحياتية، وصداقاته للعلماء والشعراء، من العرب والأتراك، وتزاوره معهم، ومحاوراته ومناقشاته في شتى الموضوعات فيما بينه وبينهم، ولاسيما مع «منجك بن محمد بن منجك» (١) (المتوفى عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م) أحد كبار شعراء دمشق آنذاك، لتغني الزاد الثقافي «للمحبي»، وتوسع آفاقه.

وخلاصة القول، يتضح من متابعة خطوات «محمد الأمين» في هذه المرحلة من حياته، أنه قد اكتسب،

(١) انظر ترجمته وبعضاً من شعره، في المصدر نفسه ج ٤. ص ٤٠٩ فما بعد.

وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، علماً غزيراً ، أخذه من عديد من كبار رجال الاختصاص في عصره . إلا أنه بعد أربع سنوات من وفاة والده ، وفي عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م ، قرر أن يغادر موطنه دمشق ، ويرتحل إلى بلاد الروم .

ولا يعرف بالدقة ، السبب الأساسي الذي دفعه إلى ترك دمشق . إلا أنه قد يكون هناك جملة أسباب : وأولها ، على مايبدو ، نفسي — عاطفي ، انجرف فيه « محمد الأمين » وراء شعوره بالوحشة والغربة ، بعد أن افتقد بعض أحبائه ، وقد يكون والده وبعض معلميه منهم . وفي ذلك يقول :

« واجتنيت من خواطرهم كل يانع مستطاب ، لكني لم أقصد من رؤيتهم مطمعاً ، حتى غربوا وشمس الفضل معاً . . . فعانيت الوجود دونهم كالنهار بلا شمس ، وعاينت الأمر ولاهم كالراحة بلا خمس ، وفقدت بهم الوطر الذي شايعته ، والأمل الذي على الوفاء والرعي للذمم بايعته ، فلم ألبث حتى كرهت الثرى ، وتحركت

عزيمتي لداعي النوى ، فأمضيت لجهة الروم العزم . وأدخلت على حرف العلّة عامل الجزم » (١) .

ومع أهمية ذلك السبب ، إلا أنه لابد من أن عوامل أخرى قد شجعته على المضي في هذا السبيل ، كرغبته في الاستزادة من العلم ، وتعرف ثقافة العلماء من الأتراك ، من منابعها ، ولاسيما أن العاصمة « استامبول » أو « دار الخلافة » — كما كان « المحبي » يطلق عليها في كتابه — كانت آنذاك مركزاً علمياً فعالاً : ففيها المدارس الوفيرة ، وبصفة خاصة منها ، تلك التي انشأها السلاطين لإعداد المدرسين والقضاة . وهي موئل عديد من العلماء الأتراك الأفذاذ ، ومحط كثير من علماء العالم الاسلامي ، والوطن العربي ، الذين كانوا يتوافدون إليها ، إما لطلب علم ، أو بثه ، أو للحصول على منصب علمي في التدريس ، أو القضاء ، أو الإفتاء ، أو غيره . ولعلّ « المحبي » أراد هو الآخر ، أن يسلك مسلك قضاة الأروام وعلمائهم ، لينال من مثل تلك المناصب ، وله في ذلك أسوة بجده وأبيه . ومن المرجح أنه قد شجعته على الانتقال ، منحة

---

(١) نفحة الريحانة . ج ١ ص ٦ — ٧ .

« محمد بن عمر الصالحي الحنبلي » (١) .

وأظهر « المحبي » في سن مبكرة ، ميلاً للشعر ، وأنتج في ميدانه ، وأرسل باكورة شعره إلى والده في بلاد الروم . إلا أن الوالد ، على الرغم من مباركته ذاك الانتاج ، حذر ابنه من السير في هذا الطريق ، قائلاً له : « إياك من الشعر ، فإنه كاسد السعر ، ويشغل الفكر . وعليك بالاشتغال ، لتبلغ درجة الفحول من الرجال » .

ولم يخيب « المحبي » ثقة أبيه فيه ، فتابع جني ثمار العلم والأدب من كل منحى ، ودون توقف . وعندما عاد الوالد إلى دمشق ، بعد غياب أربع سنوات ، وجد « محمد الأمين » وقد شبّ واشتد عوده ، وزخرت نفسه بأطاييب المعرفة . فاصطحبه معه إلى بيروت ، حيث كان يعمل قاضياً . إلا أنه بعد عامين ، تنقل فيها بين دمشق وبيروت ، عاد المحبي إلى الاستقرار مع والده

= الذكر ، إلى وقت الاسفار ، ثم يصلون الصبح ... ويقرؤون الأوراد إلى ارتفاع الشمس ، ويصلون الاشراق ، وهكذا يفعلون العبادات في أوقات الصلوات المفروضة . » (خلاصة الأثر . ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠) .

(١) المصدر نفسه . ج ٤ . ص ١٠٣ .

« الملازمة » (١) التي كان أحد القضاة الروم الكبار ، قد وعد والده بها ، وهو لايزال طفلاً . ويضاف إلى تلك العوامل ، رغبة « المحبي » الشاب ، في التنقل والترحال ، للاطلاع على مختلف مظاهر الحياة في العاصمة ، والمدن التركية الأخرى ، على عادة علماء ذلك العصر وأدبائه . وفي الواقع ، يلاحظ من « التراجم » التي طرحها « المحبي » ، وقبله « الغزي » ، و « البوريني » ، و « الحنبلي » ، أن عديداً من علماء البلاد العربية والاسلامية ، وأدبائها ، كانوا يتنقلون ، وعلى نطاق واسع ، بين مواطنهم وبلاد الروم من ناحية ، وبين مواطنهم وبقية أقطار البلاد العربية من ناحية أخرى ، وشاع من ثمّ « أدب الرحلات » : فقد كان العالم المتنقل أو الأديب ، يدوّن ملاحظاته ومشاهداته المختلفة ، وخواطره ، خلال رحلته ، نثراً أو شعراً . وفي الواقع ، كان المثقفون من الشباب العرب ، يرون في ذلك الارتحال ، اغناءً للذات وتجديداً لها ، وجلواً للقدر والشأن ، وفي ذلك يقول مؤرخنا ذاته :

---

(١) وثيقة تمنح صاحبها وظيفة في التدريس .

« وفي الانتقال تنويه لحامل الأقدار ، ولولاه لم يكس البدر حلة الابدار » (١) .

المرحلة الثانية من حياة المحبي : وتحتوي حياته في بلاد الروم ، ومدتها ست سنوات (١٠٨٦ – ١٠٩٢ هـ / ١٦٧٥ – ١٦٨١ م) . غادر المحبي دمشق برفقة عمه ، في الثامن من شهر صفر عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م ؛ ووجهتهما بروصة . وكانت ، كاستامبول ، مدينة علمية كبيرة . إلا أن المحبي لم يمكث بها طويلاً ، فقد غادرها إلى « أدرنة » ، العاصمة الثانية للدولة العثمانية . وكان السلطان العثماني « محمد الرابع » (١٠٥٨ – ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ – ١٦٨٧ م) مقيماً فيها آنذاك ، ومعه كبار رجال حكومته . ومكث « المحبي » في « أدرنة » عدة شهور ، وكان على اتصال – فيما يبدو – مع قاضي عسكر الروملي « محمد بن لطف الله » المعروف بِ « محمد عزتي » ، الذي كان قد أعطى أباه منحة « الملازمة » له ، والذي ارتبط به « المحبي » ارتباط التلميذ بأستاذه . وخلال إقامة

---

(١) نفحة الريحانة . ج ١ . ص ٧ .

« محمد الأمين » في أدرنة ، سعى للاستماع لعدد من كبار العلماء الأتراك فيها ، كما اجتمع ببعض العلماءالعرب ، وبعض الشخصيات العربية السياسية ، كالأمير « أحمد ابن زيد » وأخيه ، من أشراف مكة . وكانا قد وفدا إلى دار السلطنة كي يسعيا لدى السلطان ، لإعادة« الشريف أحمد » إلى شرافة مكة ، بعد أن عزله الأشراف عنها . وقامت صداقة بين « المحبي » والشريف ، تمتنت أواصرها في استامبول : حتى امتدح الأول الثاني بعدة قصائد .

وبعد أشهر من الإقامة في « أدرنة » ، انتقل « محمد الأمين » إلى « استامبول » ، وقد يكون لتسلم منصب التدريس في مدرسة « الخوجة خير الدين » ، وكان قد عينه فيه « محمد عزتي » ، وفي الوقت ذاته لملازمة هذا الأستاذ العالم ، بعد أن اعتزل الخدمة . لقد تعلق « المحبي » بأستاذه الرومي . وكان بيت هذا الأخير ، مجلس علم ومناظرة حافلاً ، يضم جمعاً حاشداً من العلماء والأدباء ، وتجري فيه المذاكرة والمطارحة في جميع الفنون ، ولاسيما في ميدان الأدب والشعر ، وهذا أكثر ماكان يلذ للمحبي سماعه ، والاغتراف منه . وفي الواقع ، لم يستفد المحبي

من علم أستاذه ، ومجلسه فحسب ، وإنما عبّ أيضاً من معين مكتبته العامرة ، التي حفلت بكل ماطاب واستحلى من أفانين المعرفة . وإلى جانب ذلك ، أخذ عن عديد من العلماء الأتراك والعرب ، ومنهم العالم الجزائري الكبير « يحيى الشاوي المغربي » (١) المتوفى ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٤م . الذي أجازه إجازة شعرية ، هي صورة لطيفة من الإجازات الشعرية الشائعة في ذلك العصر .

وتعرف « المحبي » أثناء وجوده في العاصمة العثمانية ، بعدد من الشعراء العرب المقيمين فيها ، ومنهم « عبدالله ابن محمد الحجازي المعروف بابن قضيب البان الحلبي »(٢) ، و « عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي » (٣) ، و « أسعد البتروني » (٤) وغيرهم . ودرس الشعر التركي وأقام صلات مع بعض فحوله المعاصرين له ، ووازن بينه وبين الشعر العربي ، وجمع حصة وفيرة منه .

---

(١) انظر ترجمته في خلاصة الأثر . ج ٤ . ص ٤٨٧ ، وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) انظر المصدر نفسه ج ٣ . ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه . ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه . ج ١ . ص ٣٩٩ .

خمس سنوات عاشها « المحبي » في استامبول ، وهو منغمس في مناخ علمي رفيع : يتتبع بدأب ، أخبار العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، الناثرين منهم والشعراء، العرب والأتراك ، الأموات منهم والأحياء ، ويمزج في ذهنه المتفتح الذكي ، الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة ، بالثقافة التركية ، التي هي مزيج من فكر اسلامي ، فارسي ، عربي ، تركي . لقد قضى قسطاً كبيراً من وقته في مطالعة الوفير من الكتب بالعربية والتركية ، ولاسيما تلك التي أشار إليها في مقدمة كتابه « خلاصة الأثر » ، بصفتها موارد له . وكان خلال مطالعاته ، يدوّن كل مايراه هاماً في ميدان الشعر ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وعلوم اللغة ، وغيرها من ميادين المعرفة ، بدليل مايحمله كتابه منها ؛ هذا بالاضافة إلى ملاحظاته الهامة لأحوال الدولة العثمانية في المركز ، عن كثب .

إلا أن الأمور لم تتابع مجراها كما اشتهاها « المحبي » : فقد توفي أستاذه « محمد عزتي » في الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م . وكانت وفاته — على مايبدو — صدمة كبيرة له ، على الرغم من أنه كان مدركاً

بأنه مريض ، ويشكو آلاماً عديدة . إلا أن تعلقه الشديد به ، أشعره بغربة قاسية بعد افتقاده ، ولذا فانه لم يبق في استامبول بعد وفاته إلا يوماً واحداً فقط ، غادرها بعده إلى موطنه « دمشق » .

المرحلة الثالثة من حياة المحبي : ومدّتها تسعة عشر عاماً (١٠٩٢ – ١١١١ هـ / ١٦٨١ – ١٦٩٩ م) . وقد قضى « المحبي » الجزء الأكبر منها في دمشق ، وجزءاً آخر في التنقل بينها ، وبين الحجاز ، ومصر . وإذا كانت المرحلتان السابقتان من حياته قد اتصفتا بأخذ المحبي للعلم والأدب من مختلف مناهلهما ، وبجمع المأثور ، واختزان الكثير ، فإن هذه المرحلة الأخيرة ، كانت مرحلة النضج والعطاء .

عاد « محمد الأمين » إلى دمشق وهو في الثلاثين من عمره ، أي في نضارة الشباب ، إلا أنه كان يحمل على كتفيه – على مايظهر – كثيراً من الأحزان والهموم . إن أساه بفقدان معلمه ، جعله ينطوي على نفسه ، ويعتزل الناس . وقد وصف « المحبي » نفسه عند عودته ، وصفاً نفسياً مؤثراً بقوله : « رأيت الدهر عاندني في الديار

والأحباب ، وكساني المشيب قبل أن أعرف حق الشباب. . . وقد ولتني الثلاثون أذنابها ، وصبت عليّ المصائب ذنابها ، فحلّيتها (أي دمشق) ، في عصر ذهب رواؤه ، وفرغ من المعارف إناؤه . . . وعَضُدُ الأدب هِيضْ، وثمده بعد هنيئه غيض . . . والناس إما ساكت ألفاً ، أو ناطق خلفاً . ولزمت كسر البيت ، وسكنت سكون الميت » (١) .

وقرر « المحبي » ، وهو في خلوته ، أن يجمع أوراقه، وينصرف إلى التأليف . إلا أنه يظهر أن عزلته لم تكن تامة ، إذ ظل يتتبع أخبار وفود العلماء الكبار إلى دمشق ، فيسعى إليهم ، ومن هؤلاء « محمد بن سليمان المغربي » (٢) أحد العلماء،العلاّمة في ذلك العصر ، الذي وفد إلى دمشق عام ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٢ م ، وأجاز المحبي بمروياته .

ولايعرف من المحبي أي مؤلفاته العديدة ابتدأها قبلاً ،وقد يكون سطّر بعضها قبل هذه المرحلة . أما كتاباه الكبيران « خلاصة الأثر » و « نفحة الريحانة » ، فيبدو أنه قد شرع بتأليف الأول قبل الثاني ، إلا أنه اصطدم ، وهو يكتب ،

(١) نفحة الريحانة . ج ١ . ص ٩ .

(٢) انظر ترجمته في خلاصة الأثر . ج ٤ . ص ٢٠٤ فما بعد .

بنقص معلوماته في بعض التراجم ، ولاسيما تراجم أهل الحجاز ، ومصر ، واليمن . فقرر بحسه التاريخي الدقيق ، وفكره المستقصي ، أن يزور تلك البقاع ، ويستقي معطياته من الميدان مباشرة .

وسافر أول ماسافر إلى الحجاز ، إذ يقضي بذلك وطرين معاً : الحج ، والحصول على مايبغي من معلومات . وفي مكة طلب إليه أن يكون نائباً لقاضيها ، فقبل . ولم يُضيِع وقته عبثاً في الحجاز ، فإلى جانب عمله في القضاء ، وسعيه الحثيث لجمع معطيات عن شخصيات الحجاز واليمن ، ولاسيما المعاصرة له ، فإنه تابع أخذ العلم عن علماء الحجاز الكبار . وأراد أن ينتقل من الحجاز إلى مصر ، إلا أن ظروفاً لم يوضحها ، أعاقته . فعاد إلى دمشق حوالي عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م .

وفي دمشق ، عاود سيرته الأولى من الانعزال ، والتأليف ، حتى جاءه « زين العابدين البكري » (١) ، وهو من كبار علماء مصر وأدبائها ليخرجه من خلوته وكآبته . وعندما طلب منه أن يرافقه إلى القاهرة ، استجاب

---

(١) انظر ترجمته في نفحة الريحانة . ج ٤ . ص ٤٧٨ فما بعد .

لدعوته ، إلا أن عائقاً ما ، لايذكر « المحبي » صفته ، أقعده عن ذلك ثانية . وبقي في دمشق ، إلى أن قدم إليها صديقه التركي « عبد الباقي المعروف بعارف » ، الذي عيّن قاضياً في مصر ، فرافقه إليها .

وفي القاهرة ، طابت لمؤرخنا الحياة في كنف « زين العابدين البكري » وعمل على تبييض ماسوّده من « نفحة الريحانة » ، هذا إلى جانب عمله نائباً للقاضي « عارف » صديقه . وفي القاهرة التقى بأستاذه وقريبه « عبد الغني النابلسي » (١) المتصوف والأديب الدمشقي الكبير ، وأخذ منه « طرقاً ، وتحائف ، ودقائق ، وحقائق » . ويبدو أنه ظل مقيماً في القاهرة حتى وفاة صديقه البكري ، عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م .

وعاد المحبي مرة أخرى إلى مسقط رأسه دمشق ، وقد ازداد نضجاً ، وتجربة ، وعلماً ، ليتابع تآليفه ، ويعمل مدرساً في « المدرسة الأمينية » (٢) . والظاهر

(١) انظر المصدر نفسه . ج ٢ . ص ١٣٨ فما بعد .

(٢) قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي المسمى قديماً بباب الساعات . قيل إنها أول مدرسة بنيت للشافعية . ويشير الحصني في « منتخبات التواريخ لدمشق » ٣ اجزاء دمشق ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ . (ح ٣ . ص ٩٤٤) أنها واقعة في سوق الحرير إلى اليوم .

أن الأمراض قد استولت عليه ، فأصابه الهرم ، على الرغم من أنه لم يكن قد بلغ الخمسين .

وفي الثامن عشر من شهر جمادى الأولى عام١١١١هـ / ١١ تشرين الثاني ١٦٩٩ ، حضرت المحبي الوفاة ، خاتماً القرن السابع عشر الميلادي.وصلى عليه شيخه «عثمان القطان» في الجامع الأموي ، ودفن بتربة الذهبية من مرج الدحداح ، قبالة قبر « أبي شامة » .

مؤلفات المحبي : لقد زود « المحبي » المكتبة العربية بعدة مؤلفات ، هي جزء ثمين من تراثنا العربي . **فإنتاجه** لم يقتصر على المؤلَّفَين الضخمين الآنفي الذكر ، وإنما شمل مجموعة أخرى.وإنتاجه هذا إنتاج وفير ، على عادة علماء عصره الكبار ، وعلماء العصور الاسلامية السابقة له ، حتّى إن انسان الوقت الحاضر ، ليدهش ، وهو الذي يتمتع بحياة أكثر رفاهة ورخاءً ، ويملك من وسائل التقنية الكتابية ماهو أرقى وأيسر ، كيف توافر للمحبي ، وغيره من أولئك العلماء ، الوقت الكافي ، كي يطرح مثل هذا الثمر الطيب الغزير ، والناضج . ويمكننا عند الحديث عن كمية مؤلفاته ، أن نستعير تعبيره ، الذي وصف به

إنتاج والد جده ، فنقول عنها بأنه « لوحسب عمر المحبي – وهو لم يتجاوز الخمسين – والذي كتبه ، لبلغ كل يوم كراساً بالكامل » .

ويستطاع مبدئياً تصنيف مؤلفات المحبي في ثلاث زمر ، بحسب نوعية المعرفة الأساسية التي كوّنت قوامها ، وإن كان هذا لاينفي بالطبع تداخل معارفها فيما بينها . وهذه الزمر هي :

أولاً : مؤلفات يغلب عليها الطابع اللغوي .

ثانياً : مؤلفات أدبية ، نثرية وشعرية .

ثالثاً : مؤلفات تاريخية .

أولاً : المؤلفات ذات الطابع اللغوي: وهي ما ألفه المحبي في ميدان اللغة العربية وعلومها ، وبصفة خاصة في قواعدها ومفرداتها ، وإن كان هذا لايمنع تخلل الأدب في ثناياها . ويبدو من مجموعها ، وكأن « المحبي » أراد من خلالها ، تثبيت أصول اللغة العربية ، والتذكير بها ، منعاً للانحراف عنها ، واللحن فيها ، وحفاظاً عليها من الدخيل من الألفاظ غير العربية . وهذا اتجاه عربي ،

يلاحظ أن عدداً من معاصري المحبي ، أو الذين سبقوه ، قد درج عليه . وكأن ذاك الاتجاه كان يهدف إلى تنبيه المجتمع العربي ، إلى الخطر الذي يتهدد اللغة العربية ، ولاسيما بعد انتشار اللغتين الفارسية والتركية ، وتسرب بعض الكلمات الأعجمية إلى العربية . وبذلك يكون « المحبي » وزملاؤه ، يمثلون نموذجاً واعياً وفعالاً ، لإحياء قومي عربي ، ابتدأ عبر اللغة والأدب . وتشمل مؤلفات المحبي ذات الطابع اللغوي خمسة كتب ، هي :

١ — مايعوّل عليه في المضاف والمضاف إليه .

٢ — جني الجنتين في تمييز نوعي المثنيين .

٣ — الدر المرصوف في الصفة والموصوف .

٤ — الناموس (وهو حاشية على القاموس) .

٥ — قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل .

ثانياً : المؤلفات الأدبية : لقد كان المحبي ميالاً للأدب منذ طفولته كما أشرنا إلى ذلك ، وقد رأينا كيف كتب الشعر وهو لما يزل صبياً في الثانية عشرة من عمره ، وكيف تابع الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء .

وقد عبّر هو نفسه عن تلك الميول الأدبية فقال : « وبعد ، فإني لم أزل منذ ألقيت الألواح ، وميّزت بين المصباح والصباح ، أنفق نقد عمري في تحصيل الأدب ... وكم أعلام بهم التقيت ، ونجوم بصحبتهم ارتقيت ، حتى استخرجت من دفائنهم ماكنزوه من ميراث النبوة » (١)، وفي الحقيقة ، لقد كان المحبي أديباً وشاعراً ، إلى جانب كونه مؤرخاً ، أكان ذلك في معرفته الأدبية الغزيرة ، أم في تدوينه سير معاصريه من الأدباء ، أم في حسه النقدي الأدبي ، أم في أسلوب كتابته وشعره الرقيق اللطيف . فلاعجب إذاً ، أن يعطي في ميدان الأدب ، ثماراً جميلة ، وحلوة المذاق . وله في هذا الباب ستة مؤلفات هي :

١ — الأمالي . ولايعرف محتواها ، إذ لم يعثر على نسخة منها .

٢ — حصة على ديوان المتنبي . وينطبق على هذا المؤلف ماذكر في شأن المؤلف السابق.

٤ — نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة . وهو سفر أدبي ضخم ، قلد فيه « المحبي» كتاب :

---

(١) نقلا من مقدمة نفحة الريحانة لعبد الفتاح الحلو . ص ٢١ — ٢٢.

« ريحانة الألبا » للخفاجي، بل جعله ذيلاً له . وهو بمثابة كتاب تأريخ لشعراء القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، في البلاد العربية، والرومية . فقد ضمنه تراجم أبرز شعراء العربية في مصر ، وبلاد الشام ، والبحرين ، واليمن ، والحجاز ، والمغرب ، وبلاد الروم .وهو كتاب محقق ومنشور بأربعة أجزاء، وسيصدر الخامس .

٥ — ذيل نفحة الريحانة . وقد استدرك فيه المحبي بعض من لم يترجم لهم من الشعراء في النفحة ، إلا أنه توفي قبل أن يكمل تماماً ماأقدم عليه .

٦ — براحة الأرواح ، وجالبة السرور والأفراح . وهو أرجوزة تضم حكماً وأمثالاً .

ثالثاً : المؤلفات التاريخية : كان للمحبي منذ نعومة أظفاره ، ميول واضحة نحو متابعة الأخبار ، مشابهة لميوله الأدبية . وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه « خلاصة الأثر »: « فإني منذ عرفت اليمين من الشمال ، وميزت بين الرشد والضلال ، لم أزل ولوعاً بمطالعة كتب الأخبار ،

مغرىً بالبحث عن أحوال الكُمَّل الأخيار . وكنت شديد الحرص على خبر أسمعه ، أو على شعر تفرق شمله . فأجمعه ، خصوصاً لمتأخري أهل الزمن » (١) .

فمن المرتقب إذاً ، وميوله التاريخية بذلك العمق والرواء ، أن يقدم إنتاجاً خصيباً في هذا الباب ، كما فعل في ميدان الأدب . ولاسيما أنه عايش أباه أثناء تأليفه لتاريخه . الذي ذيّل به على كتاب « الحسن البوريني » ، وربما عاونه . وهكذا كان طرح المحبي لكتابه التاريخي الضخم وهو « خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر » ، الذي يقدم كتابنا هذا مستلات منه :

* * *

(١) ج ١ . ص ١ .

التعريف بكتاب

« خلاصة الأثر »

إن كتاب « خلاصة الأثر » من كتب « التراجم الطبقية » الكبيرة ، أو بتعبير آخر من كتب « سير الرجال » ، ضمن طبقة محددة ، هي قرن من الزمان . والقرن هنا هو « الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي» . ومدرسة « التراجم » و « الطبقات » في التأليف التاريخي العربي من أقدم المدارس التاريخية ، وأزهاها . وقد قال الدكتور جبور صادقاً في مقدمة كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة » للنجم الغزي ، وقد قام بتحقيقه : « لاأظن أن هناك أمة أغنى من الأمة العربية في كتب السير ، ولا أظن أن مؤرخي أمة من الأمم ، التفتوا إلى تدوين مشاهير أمتهم ، كما التفت مؤرخو العرب . فمنذ أن بدأ « ابن إسحق » بوضع سيرة النبي ، والواقدي ، وابن

سعد ، في تأليف الطبقات ، وإلى يومنا هذا ، والصبغة الغالبة في الكتب العربية هي سير الأعلام من الرجال » (١) .

وأكد المؤرخ الانكليزي « غب » بأن « نبوغ العرب الحقيقي في علم تدوين التاريخ يتجلى في كتابة السير » (٢) .

وقد وصلت « مدرسة التراجم » هذه ، إلى ذروة من ذراها الرفيعة بمؤلّف « وفيات الأعيان » لابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م). إلا أنها تطورت بعده،وخرجت من مضمون الشمول الزمني الواسع ، إلى التحديد في طبقة ، جعلت على الأغلب قرناً . ف« المحبي » إذاً يتابع في كتابه ، تقليداً تاريخياً سبقه إليه كثيرون قبله . فهو قد اختار تراجم القرن الحادي عشر الذي عاش فيه ، كما فعل « النجم الغزي » قبله (المتوفى عام ١٠٦١ هـ / ١٦٥١م) بالقرن العاشر ، والثلث الأول من القرن الحادي عشر ، فكان كتاباه : « الكواكب السائرة » المشار إليه آنفاً ،

---

(١) (٣) اجزاء . بيروت – حريصا . ١٩٤٥ – ١٩٥٩ . ج ١ . ص آ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية . ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين . المجلد الرابع . العدد الثامن ص ٥٣ . بند (تاريخ) .

وذيله « لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر » . وكما فعل قبلهما « السخاوي » (المتوفى عام ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م »، حينما دوّن كتابه « الضوء اللامع في أهل القرن التاسع » ، و « ابن حجر العسقلاني » (المتوفى عام ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) في مؤلّفه « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » .

وقد امتازت « مدرسة التراجم الطبقية » في بلاد الشام بصفة خاصة ، بأن أصحابها لم يترجموا لقطر معين فحسب ، وإنما لأعيان العالم الاسلامي كله. ففي « خلاصة الأثر » إذاً تتجلى النظرةالشموليةالمكانيةللعالم الاسلامي خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بأوضح صورها. فقد ترجم المحبي فيه لأبرز الشخصيات الإسلامية التي توفيت بين ١٠٠١هـ — ١١٠٠ هـ / ١٥٩٢ — ١٦٨٦ م ، من بلاد الهند شرقاً ، وحتى أقصى المغرب غرباً ، محتوياً بالطبع امتداد الوطن العربي، والدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوربا . وبذلك قدّم في كتابه المطبوع ، بأربعة أجزاء ، والحاوي على (١٩٨٤) صفحة ، (١٢٨٩) سيرة من سير الأعيان . وقد قسم أعيانه الذين ترجم لهم ، إلى أربع

فئات ، كما يتضح من مقدمة كتابه ، حيث قال : « كنت شديد الحرص على خبر أسمعه ، أو على شعر تفرق شمله فأجمعه ، خصوصاً لمتأخري أهل الزمن ، المالكين لأزمَّة الفصاحة واللسان ، من كل **ملك** تتلى سورة فخره بفم كل زمان ، **وأمير** لم تبرح صورة ذكره تجلى على ناظر كل مكان ، **وإمام** لم تنجب الليالي بمثاله ، **وأديب** تهتز معاطف البلاغة عند سماع فضله وكماله » (١) .

والكتاب قد طبع منذ أكثر من قرن في القاهرة (١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م) وفي المطبعة الوهبية ، بعدأن قام بتحقيقه المبدئي السيد « مصطفى وهبة » ، وأمر بطبعه « محمد باشا عارف » أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر . إلا أنه لا بد من إعادة تحقيقه على النمط العلمي الحديث ، وشرح مختلف نصوصه ، وفهرسته أبجدياً .

ويلاحظ أن « المحبي » قد خصّ فئتي « الملوك » ، و « الأمراء » معاً بنسبة ضئيلة من مجموع التراجم في كتابه ، فهي لاتتجاوز (١٢٠) ترجمة من (١٢٨٩) أي بنسبة

---

(١) ج ١ . ص ٢ .

(٩ ٪) فقط ، بينما كان نصيب العلماء والأدباء ، النصيب الأوفى وهو ٩١ ٪ ، ويدخل ضمنهم المتصوفة المختلفون وأعضاء « المؤسسة الدينية » من قضاة ، ومفتين ، وأئمة مساجد ، ووعاظ ، وغيرهم من العاملين في الجوامع ، إذ من المفروض مبدئياً ، أن يكون هؤلاء الاعضاء ــ بالاضافة إلى عملهم الاداري ــ من العلماء .

وقد رتب « المحبي » تراجمه على حروف المعجم « ليسهل لمطالعه ماغُم عليه واستعجم » . وبيّن في مقدمة الكتاب ، طريقته في الترتيب فقال : « أقدم أولاً الاسم الذي أوله همزة ممدودة ، ثم ماكان أوله ألفاً ، وأقدم من ذلك من شاركه أبوه في اسمه ، فاذا تعدد ذلك ، قدمت الأسبق وفاة . ثم أرجع فأذكر من بعد حرف الهمزة ، الحروف المعجمة من أولها إلى آخرها ، وأذكر في كل حرف مافيه من الاسماء ، مقدماً ماكان في ثاني الاسم من الحروف المقدمة ، وهكذا أفعل في أسماء الآباء ، فاذا انتهى من وصلني اسم أبيه ، ذكرت من لم أعرف اسم أبيه ، مراعياً سبق الوفاة » (١) .

(١) المصدر نفسه . ج١ . ص ٤ .

ويعني الترتيب المعجمي للتراجم ، بتر التسلسل الزمني والمكاني في السياق التاريخي ، وكذلك الفئوي . فلا« يربط الترجمة بما سبقها أو يليها سوى أول حرف في الاسم».

فالترجمة الواحدةإذاً هي وحدة متكاملة، سعى فيها « المحبي » أن يعرّف قارئه بمختلف جوانب الشخصية التي يترجم لها . فهو يعرّف باسمها ، ونسبها (وحتى الجد السادس والعشرين أحياناً أو أبعد من ذلك بكثير) ، ولقبها ، والبلد التي تنتمي إليه مولداً ، وإقامة ، وأصالة ، والمذهب السني الذي اعتنقته ، وأحياناً الأصل القومي (كردي ، رومي .أعجمي. إلخ)،إلا أنه نادراً مايشير إلى الأصل العربي ، ولعله عنى بذلك أن كل من لم يشر إلى أصله غير العربي فهو عربي ؛ كما يوضح الطريقة الصوفية التي تنتسب إليها إذا كانت من السالكين .

ثم يعرّف بعملها وصفاتها الجسمانية (إذاتوافرت لديه) والخلقية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والدينية ، والعلمية ، واهتماماتها. وإذا كان المترجم له عالماً ، فانه يبين أساتذته ، والعلوم التي درسها ، والكتب التي طالعها . وإذا كان من الملوك والأمراء فانه يبين أهم أعماله ، وإذا كان من الأدباء

والشعراء فإنه يقدم نماذج من أدبه نثراً وشعراً . وينهي الترجمة عادة ببيان تاريخ وفاة الشخص الذي يترجم له ، والمدينة التي توفي فيها ، ومكان دفنه .

ومن ذلك يتضح أن كل « ترجمة » تمثل « تاريخاً شاملاً » للشخصية ، وتعكس مختلف جوانب حياة المجتمع الذي تعيش ضمنه .

ولابد من الاشارة في خاتمة ذلك « الوصف الخارجي » الموجز لكتاب « خلاصة الأثر » ، أن ليس هناك تساوٍ في كمية المعطيات التي تحتويها « التراجم » . وبتعبير أبسط ، لاتتسق التراجم كلها ، في عدد الصفحات المخصصة لكل واحدة منها . فهناك تراجم لم تعط سوى بضعة أسطر ، بحيث جمعت ثلاث تراجم أو أربع في صفحة واحدة . وهناك تراجم خصت بصفحة كاملة ، أو اثنتين ، أو ثلاث أو أربع . وقد يتجاوز بعضها الصفحات الأربع إلى ثلاث عشرة صفحة ، أو خمس عشرة ، إلا أن عددها محدود . ويبدو أن إطالة المحبي في بعض تراجمه ، أو

اقتضابه في بعضها الآخر ، لايرتبط دائماً بأهمية المترجم له ، وقيمته ، وإنما بمدى توافر المعلومات لديه عنه . ويلاحظ أن تراجم « الشعراء والأدباء » هي التي أفاض فيها « المحبي » بصفة خاصة ، إذ ضمّنها كثيراً من شعرهم ونثرهم .

* * *

اختيار التراجم

وبعد تلك المقدمة الموجزة التي تعرّف « بالمحبي » المؤلف ، وكتابه « خلاصة الأثر » ، نقدم عدداً من « تراجم » ذلك السفر الضخم ، منبهين إلى النقاط التالية :

أولاً : من المستحسن للقارىء العربي دائماً ، إذا ماأراد مطالعة أصل من أصول التراث العربي ، أن يقرأه برمته ، حتى تكون نظرته إلى مضمونه ، أكثر شمولاً وعمقاً ، وأقرب إلى الصحة والدقة . ولكن لما كان إنتاج بعض ذلك التراث واسعاً ، ككتاب « خلاصة الأثر » هذا ، مما قد يوهم القارىء بثقله ، فيبتعد عن مطالعته تماماً ، على الرغم من فائدته ، فقد درجت « مديرية إحياء التراث العربي » في وزارة الثقافة والارشاد القومي

مشكورة ، على تقديم مستلات منه ، ليتعرف القارىء ببعض مضمونه ، ويكون بمثابة تشويق له ، يتابع بعده قراءة الكل .

ثانياً : إن أية عملية « انتقاء نصوص » من مؤلَّف ما ، عملية عسيرة جداً على المنتقي ، مهما سعى كي يضع لها من أسس ، تهدف إلى المحافظة على الكتاب ، مضموناً وروحاً ، ودون أن يلحقه التشويه ، أو الانتقاص ، أو أي أذى آخر . فقد يخرج بانتقائه عن الغرض الذي توخاه صاحب الأصل من مؤلَّفه ، أو ربما هو نفسه من انتقائه . وإن اختيار تراجم محدودة ، من مجموع (١٣٠٠) ترجمة تقريباً ، عملية أكثر صعوبة وتعقيداً : فقد لاترسم التّراجم المنتقاة ، صورة صحيحة عن هذا المؤلف التاريخي الضخم ، وقد تضعفه في ذهن القارىء ، وتقلّص من قيمته ، ومع ذلك ، فلا بدّ مما ليس منه بد .

ثالثاً : أسبقت « التّراجم المختارة » بـ «مقدمة» الكتاب ، وقد شرح فيها المؤلف المضمون العام لكتابه ، وأسباب تأليفه له ، ومصادره ، وأسلوبه في ترتيبه ، مما يعطي القارىء فكرة عن بعض منهجيته في العمل .

رابعاً : التزاماً ماأمكن بالموضوعية ، **فقد اتخذت** بعض الصوى الهادية في بعض عملية اختيار التراجم المطروحة في هذا الكتاب ،وجهدت كي تكون منسجمة ، إلى حد ما ، مع ماأراده المحبي من كتابه ، في الترجمة لأبرز أعيان القرن الحادي عشر الهجري ،من ملوك ،وأمراء ،وعلماء ، وأدباء . ومن ثمّ كانت القاعدة الكبرى في الاختيار ، تقديم (نماذج) من (مختلف الشخصيات) (السياسية والإدارية) ، و(العلمية) ، و (الأدبية)، بحيث تبرز بمجموعها . — ما أمكن ذلك — بعض أحوال القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، وأحداثه ، في نطاق الوطن العربي ، والعالم الاسلامي . ومن ثمّ فقد وزعت تلك الشخصيات على مختلف الأقطار العربية والاسلامية ، وعلى شتى المناصب السياسية ، والعلمية الكبرى ، التي ترجم « المحبي » لأصحابها ، وعلى متنوع الفعاليات التي اشتهرت بها بعض تلك الشخصيات ، ماأستطيع إلى ذلك سبيلاً . وتمشياً مع تلك القاعدة الأساسية ، وحفظاً لفكر القارىء ورؤيته من التشتت ، فقد صنفت « التراجم المختارة » ضمن مجموعتين رئيسيتين ، على أن

تخص كل مجموعة بجزء من هذا الكتاب . والمجموعتان هما :

الأولى : وتضم تراجم بعض العاملين في الحقل السياسي والاداري .

الثانية : وتحتوي تراجم بعض النّاشطين في ميدان الفكر والثقافة .

خامساً : لقد توخي في عملية تقديم تلك « التّراجم المختارة» . أن ترتب تراجم الشخصيات ضمن المجموعة الواحدة ، التّرتيب الأبجدي الذي رتبها المحبي به مع الاحتفاظ بكامل التّرجمة دون انتقاص ، أمانة منا للمؤلّف والمؤلَّف ؛ هذا مع بيان موقع التّرجمة من مجموع الكتاب ، جزءاً وصفحة .

سادساً : لقد سعي ، في مدخل كل مجموعة من تينك المجموعتين من التّراجم ، لطرح موجز لما يمكن أن يستخلص من معلومات من « مجموع تراجم الكتاب » ، توضح بعض الأحوال المختلفة التّي كان عليها المجتمع العربي ، والاسلامي ، وشتّى نشاطاتهما ، السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والفنية ، كي تبين للقارىء قيمة هذا السفر التاريخي الثمين ، وما يلقيه

من أضواء على تاريخ القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، وفي الوقت ذاته، كي توجه فكره في مسارات مجدية ، نحو فهم ذلك العصر ، من خلال التراجم المتفرقة، وموازنة تلك الصور المطروحة مع صور عصور أخرى ، ومع الحاضر . وبذلك يستمتع القارىء بقراءتها ، ويفهم مغزاها .

وقد اصطلح على طرح مايستفاد عن أحوال المجتمع « السياسية » ، و « الاقتصادية » ،و « الاجتماعية » ، في مدخل « المجموعة الأولى » ، وما يستخلص من معلومات عن أحواله « الفكرية » و « الفنية » في مقدمة « المجموعة الثانية » . هذا مع التأكيد مرة أخرى ، بأن تلك المستخلصات من المعلومات ، قد استقيت من « مجموع التراجم » ، دون تمييز بين « السياسية والإدارية » منها ، أو « العلمية » أو « الأدبية » ، أو « الصوفية » .

* * *

المدخل الى
تراجم اعلام السياسة والادارة

إن ماوضعناه تحت عنوان « التراجم السياسية والإدارية »، يتضمن في الواقع ، تراجم زمرتين من الشخصيات :

الزمرة الأولى : وتحتوي تراجم بعض الشخصيات التي أدرجها « المحبي » في فئتي « الملوك » و « الأمراء » من الفئات الأربع للأعيان ، الذين ترجم لهم .

الزمرة الثانية : وتتضمن تراجم بعض أعضاء « المؤسسة الدينية » ، من مفتين ، وقضاة ، ووعاظ ، وأئمة مساجد ، وعاملين آخرين فيها . وهذه الزمرة الثانية تدخل في ذهن المحبي ، ضمن فئة « العلماء » على الرغم من عملها

الإداري ، وأثرها السياسي : فمن المفروض ألا يصل إلى تلك المناصب إلا من درس العلوم الدينية ، وتفقه فيها ، وتخرج من المدارس التي أوجدها السلاطين العثمانيون لهذه الغاية ، أو من اعترف بعلمه ودراساته في مدارس أخرى . ولذا ، أمانة منا لفكر المؤرخ « المحبي »، فقد ميّزناها عن « الزمرة الأولى » ، بجعلها زمرة قائمة بذاتها ، وبفصلها عن الأولى .

محتوى الزمرة الأولى من التراجم :

لقد أشير سابقاً ، عند التعريف الموجز ، بكتاب « خلاصة الأثر » ، أن عدد « التراجم السياسية والادارية» (الزمرة الأولى) فيه ، قليل نسبياً ، فهي لا تتجاوز ٩ ٪ من مجموع التراجم . إلا أنها مع قلتها ، ملونة تلويناً كبيراً ، وتتضمن شتى النوعيات من الشخصيات السياسية في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ؛ وهذا ينسجم مع تشعب فكر المحبي ، وغزارة معلوماته ، ونظرته المكانية ، الشمولية الواسعة ، لعالم عصره ، التي لم تتحدد بقطره « بلاد الشام » ، أو بالأقطار المجاورة فحسب ، وإنما بكل سعة امتداد العالم الاسلامي . فقد

انطلقت دائرة إحاطته بفئة « الملوك والسلاطين » من أقصى الهند شرقاً . حيث ترجم لبعض سلاطينها وأمرائها ، إلى أقصى المغرب العربي ، حيث طرح سيرة سلطانين من سلاطينها الكبار ، إلى أقصى الجنوب في اليمن حيث قدم عدة تراجم لأئمتها من الزيديين . فإلى الزاوية الشمالية الغربية من العالم الاسلامي ، حيث تحدث عن سبعة سلاطين من بني عثمان ، وانعطف شرقاً فترجم لشاه من شاهات الفرس الصفويين ، ولسلطان بلاد كيلان . وقد كان المحبي في إحاطته تلك ، حرّ الرأي وموضوعياً ، إذ تجاوز حسن صلات دولته العثمانية الحاكمة مع أولئك الملوك والسلاطين والأئمة ، أو سوءها . فمن المعروف مثلاً أن العلاقات بين « الدولة العثمانية » ، و « الدولة الصفوية » في إيران ، كانت دائمة التوتر ، وأن الحرب ضروس ، وشبه مستمرة ، بين الأئمة الزيديين في اليمن وتلك الدولة ، أثناء جزء كبير من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

وإذا كانت تلك هي ألوان « فئة » الملوك والسلاطين ، فإن فئة « الأمراء » كانت أغزر لوناً : فإلى جانب التنوع

المكاني،والزماني (ضمن القرن الحادي عشر الهجري) في الأمراء – الملاحظ سالفاً في فئة الملوك – فقد قدم أصنافاً متعددة منهم . فهناك :

أولاً : أمراء تابعون للدولة العثمانية الحاكمة.

وبعضهم، وإن لم يتخذ لقب الأمير رسمياً ، فان له عمل الأمير . ومن هؤلاء وزراء الدولة وصدورها العظمى ، وولاتها في الولايات العربية،وبصفة خاصة ، في دمشق ، وحلب ، ومصر ،واليمن ، وبغداد ، وغزة،وطرابلس وغيرها .

ثانياً : أمراء محليون في البلاد العربية ، حكموا مناطقهم ببعض الاستقلال الذاتي . ومن هؤلاء « أشراف مكة » ، وبعض أمراء المناطق في بلاد الشام ، من أمثال « الأمير أحمد بن طرباي الحارثي » أمير اللجون ، و « فخر الدين المعني » أمير الشوف ، و « علي باشا جنبلاط » أمير كلّس ، فحلب ، وآل « سيفا » في طرابلس ، و « بنو الحرفوش » في بعلبك،و « بنو الأعوج » في حماة، وأمراء من الأعراب البدو .

ثالثاً : عدد من رجال السياسة ، ممن مارس عملاً إدارياً سياسياً لصالح الدولة أو مضاداً لها ، كبعض الأجناد الانكشارية ، من أمثال كيوان في دمشق ، وخداوردي وغيرهم .

ومثلما توخى « المحبي » في انتقائه لتراجم الملوك والسلاطين ، الموضوعية ، وحرية الفكر ، **فانه فعل** ، في اختياره لتراجم الأمراء ، ورجال الادارة والسياسية . **فقد تحدث** عن الامراء التابعين والموالين **للدولة** ، **وفي** الوقت ذاته عن المتمردين على سلطتها ، والثائرين بروح واقعية ، وعقلانية .

بعض المعلومات المستقاة عن الأحوال السياسية :

وإذا ماسئل « خلاصة الأثر » عن مجموع الأحوال السياسيةفي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، فإنه لايعطي في الواقع ، عبر تراجمه ، صورة كاملة ، وجاهزة ، كما يمكن أن يقدمها مؤرخ معاصر لتلك الأحوال : بسياقها الزمني المتسلسل ، وترابطها المنطقي ، وتماسكها السببي . فالأحداث تبدو ، ضمن التراجم المنتشرة على

طول الكتاب ، أحداثاً متناثرة ، ومبعثرة ، ولا رابطة بينها . إن « الترتيب الأبجدي » للتراجم ، حطّم صلة الزمن والتواصل بين الوقائع بالنسبة للقارىء ، ولاسيما العادي منه . إلا أن تلك التراجم ، وبصفةخاصة « السياسية » ، و « السياسية العلمية » (كتراجم المفتين والقضاة مثلاً) ، تتعرض لقضايا سياسية كثيرة ، خطت مجراها في ذلك القرن ، ويمكن للباحث أن يتعرفها ، ويأخذ منها مايبني بعض جوانب التاريخ السياسي لتلك الحقبة ، بناءً متيناً . ولاسيما أن مؤلف « خلاصة الأثر » قد عايش تلك القضايا ، أو عايش أصحابها ، أو استقاها ممن عاصروها . ويبدو أنه كان ملاحظاً دقيقاً بصفته شاهد عيان ، وناقداً ممحّصاً ، وباحثاً محققاً ، بصفته مؤرخاً .

وفي الحقيقة ، من العسير تقديم تلخيص ، يحتوي جميع ماطرحه المحبي من أمور سياسية في تلك التراجم ، لأنها خصيبة جداً بتفاصيلها ، وواسعة الامتداد في الزمان والمكان . إلا أنه يمكن فقط تثبيت بعض خطوط هداية ، قد ترسم بعض ملامح الصورة السياسية للعالم الاسلامي ، والوطن العربي آنذاك ، وقد تكون الخطوط المرسومة

أثخن وأبرز بالنسبة للوطن العربي وبلاد الشام . وأهم هذه الخطوط هي :

أولاً : لقد كان **العالم الاسلامي** منقسماً من الناحية السياسية إلى عدة دول : ففي أقصى الشرق تقوم **دويلات هندية اسلامية** . كدولة الدكن ، وحيدر آباد ، وبيجافور وغيرها إلى جانب وجود « ملك أكبر » للهند من المسلمين ؛ (ويقصد المحبي سلالة بابر التيموري الذي أقام امبراطورية إسلامية في الهند) . وعلى رأس تلك الدويلات الهندية . أمراء مسلمون . يشجعون العلم ، والعلماء العرب المسلمين ؛ الوافدين إليهم . وبصفة خاصة من اليمن ، وحضرموت .

وإلى غرب الهند ، تقوم **بلاد العجم (أي إيران)** ، وحكامها من الصفويين الشيعة ، وقد تمكنوا في الربع الأول من القرن السابع عشر ، وفي عهد « الشاه عباس » من إعادة سيادتهم على بغداد ، بعد أن كان السلطان « سليمان القانوني » قد انتزعها منهم عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م . إلا أن الدولة العثمانية في عهد سلطانها « مراد الرابع » (١٠٣٣ — ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) استطاعت أن تسترد المدينة العربية ، وتحتوي مرة أخرى العراق كلها .

وفي غربي بلاد العجم ، وشمالها الغربي ، تمتد « **الدولة العثمانية** » ، وقد بسطت سيادتها على البلاد العربية كلها ، في المشرق والمغرب ، ماعدا المغرب الأقصى ، الذي احتفظ باستقلاله ، تحت سيادة سلاطينه من « الشرفاء الحسنيين » أولاً ، فالعلويين ، وماعدا بعض الأطراف الشرقية ، والجنوبية من شبه الجزيرة العربية . كما امتدت في أوربا حتى هنغاريا ، وفي البحر المتوسط حتى الجزائر ، كما استولت على كريت .

ويبدو ذلك العالم الاسلامي ، كما قدمه « المحبي » ، وعلى الرغم من تمزقه السياسي ، يعيش ضمن تواصل حضاري إسلامي ، وصلات علمية ، تجعله يبدو موحداً حضارياً . بل ويمد « المحبي » ذلك التواصل ، الحضاري ، العربي الإسلامي ، في ذلك القرن ، حتى « جاوه » ، حيث كانت تأتي أسئلة دينية منها إلى المشرق ، وحتى « تنبكت » جنوبي الصحراء الأفريقية الكبرى .

إن تلك الملامح العامة لصورة « العالم الاسلامي » ، كما يمكن استنتاجها من « خلاصة الأثر » ، قد تكون صحيحة في خطوطها الكبرى . إلا أن التفاصيل ، ولاسيما

عن بلاد الهند ، وفارس ، وبلاد المغرب الأقصى ، ناقصة ، وغير واضحة ، ومع ذلك تبقى مصدراً معاصراً ، قابلاً للنقد ، والموازنة مع المصادر الأخرى .

ثانياً : إذا كانت المعطيات عن الأوضاع السياسية في البقاع السالفة الذكر مهتزة ، لبعد « المحبي » عن مسرح الأحداث ، وعدم توافر المصادر الكافية لديه ، فان تراجمه المحيطة **بحياة الدولة العثمانية** ، من تراجم للسلاطين ، والرزراء ، والولاة ، بل والقضاة وغيرهم من موظفي المؤسستين الإدارية والدينية ، ترسم مجموعة من الصور الحية والواقعية عن تلك الدولة وأحوالها ، ولاسيما أن « المحبي » ، قد عاش لفترة من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، في المركز وفي لبها . ومن ثمّ ، فإن القارىء ، والباحث ، يخرج منها بتعارف سطحي ، أو عميق مع الأمور الآتية :

آ — **النظم السياسية التي كانت تحكم الدولة في المركز** : كوجود سلطان على رأسها ، وإلى جانبه الوزير الأعظم (الصدر الأعظم . وهو بمثابة رئيس للوزراء) . وإلى جوارهما : « مؤسسة إدارية » غنية بالاختصاصات المختلفة ، وبصفة خاصة منها ، المالية . والعسكرية ،

و « مؤسسة دينية » لها نظمها ، ومراتبها ، واختصاصاتها .

ب ــ النظم السياسية التي كانت تحكم الامبراطورية :

كتقسيمها إلى ولايات في آسيا ، وأخرى في أوربا ، وأفريقيا . والهيئة الحاكمة في كل ولاية من « بكلربكي » (باشا) (أو أمير الامراء ، أو الكافل ، أو المحافظ ، كما يعرّب المحبي التسمية) ، وكتخدا (نائب الوالي) ، والدفتردار (القابض على الشؤون المالية) ، وآغا العسكر (ويسميه المحبي رئيس الجند ، وضابط الجند) ، وأنواع العسكر من ينكجرية مشاة (ويعرب المحبي التسمية ويطلق عليهم أحياناً اسم « الجند الجديد » ، وسباهية (فرسان) . . . هذا إلى اشارات سريعة عن الإقطاع في بعض الولايات (التيمار ، والزعامة)، وعن الضرائب المفروضة كالعوارض السلطانية ، والمُكوس ، والعُشور وغيرها . وفي الأسطر المحدودة التالية ، المقتطفة على سبيل المثال فقط ، من ترجمة وزير من وزراء الدولة العثمانية هو « حسن باشا

الشهير بيمشجي » (١) . يمكن أن يلاحظ بوضوح ، مايمكن أن تقدمه تراجم المحبي من تعارف مع مؤسسات الدولة السياسية :

« كان أحد الوزراء (٢) في عهد السلطان محمد بن

---

(١) ج٢ . ص ٧٢ .

(٢) لقد كان الوزير هو مساعد السلطان ، على نمط ماكان عليه الأمر في الخلافة العباسية ، وفي دول اسلامية أخرى . إلا أن الدولة العثمانية جعلت « الوزارة » رتبةولقباً ، يغدقهاالسلطان على معاونيه المقربين إليه . وقد ارتفع عدد الوزراءفيالسلطنةالعثمانية ، في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إلى تسعة وزراء . كانيطلق على المعاون الأول للسلطان تمييزاً له عن الآخرين ، لقب « الوزير الأعظم » ، أو « الصدر الأعظم » . وقد أنقص عدد الوزراء في النصف الثانيمنالقرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلاد ، إلى أربعة أو خمسة فقط . وكانوا يسمون بحسب ترتيبهم (الوزير الثاني) ، (الثالث) ، (الرابع) . . الخ .

وكان عدد من الولاة « يحمل رتبة وزير ». ويلاحظ أن «المحبي » ، عند حديثه عن بعض الولاة ، يوضح فيما إذا كان الوالي يحمل تلك الرتبة أم لا . فيشير إلى بعضهم « بالوزير » بينما لا يفعل ذلك مع آخرين .

ثم أعطي حكومة شروان (١) ، ثم عزل ، وصار وزيراً رابعاً ، وأعطي التفتيش على السكة الجديدة (٢) والأموال ، في شهر ربيع الأول ، سنة تسع بعد الألف ، فشكرت خدمته ، فصار قائم مقام (٣) الوزير ، في شهر شعبان من هذه السنة ، ثم أعطي ختم (٤) الوزارة العظمى ، في سادس عشر سنة عشرة وألف » .

= في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، وعلى الولاة في الولايات ، وغدوا عنصر شغب ، وفوضى ، وفساد في الدولة ، بعد أن كانوا دعامة قوتها وعنفوانها ، وعاملا أساسياً في توسعها . وظل أمرهم يزداد سوءاً ، حتى قضى عليهم السلطان « محمود الثاني » في عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م .

(١) مقاطعة على الساحل الشمالي الغربي لبحر قزوين . وقد انتزعتها الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في ايران .

(٢) أي النقود المسكوكة جديداً .

(٣) القائم مقام بالنسبة للوزير ، هو الذي كان يحل محل الصدر الأعظم اثناء غيابه . ويتمتع في فترة نيابته بكل سلطات الصدر الأعظم ، ماعدا الاشراف على المنطقة التي تجري فيها العمليات العسكرية التي يقودها الصدر الأعظم بنفسه .

(٤) كان السلطان يفوض سلطاته للوزير الأعظم ، بمنحه خاتم توقيعه ، الذي كانت تمهر به جميع الوثائق الهامة . وفي حالة اعفائه من منصبه ، فانه كان يطلب إليه رده .

مراد . وكان في مبدئه من جماعة السلطان في الداخل (١) ،
ثم خرج ضابطاً للجند الجديد (٢) ، وعزل ، ثم أعيد ،

---

(١) كانت « سراي السلطان » أو مقر إقامته وعمله ، مقسمة إلى ثلاثة أقسام :

قسم الحريم حيث تقيم نساؤه وجواريه ، ولهذا القسم غلمانه وخدمه - وقسم الداخل أو الجناح الخاص الذي يصفو فيه السلطان لنفسه ، ولأموره الخاصة ، بعيداً عن الحريم ، وأعمال الدولة المباشرة . ولهذا القسم أيضاً خدامه من « الغلمان » البيض ، والسود وكانوا يربون تربية خاصة - وعلى رأسهم كان « آغا باب السعادة » . والقسم الثالث هو قسم الخارج وفيه يتم اتصال السلطان بشؤون الدولة ، وله موظفوه والعاملون فيه . وهم على احتكاك مباشر مع قادة الجند ، وموظفي الدولة المختلفين . ويطلق على كبار العاملين فيه ، لقب « أغوات الركاب الهمايوني » . وتقع (قاعة العرش) ، أو قاعة استقبال السلطان بين « قسم الداخل » و « الخارج » .

(٢) أي « الانكشارية » . وهي فرق المشاة في الجيش العثماني . وأصل هذه الفرق من عبيد السلطان « قابي قولاري » ، الذين حصل عليهم إما من الأسر في حربه مع أوربا المسيحية ، أو عن طريق الجمع من فتيان الرعايا النصارى في ولاياته في البلقان . وكانوا يربون تربية خاصة ، في مدارس أعدت لهذا الغرض . وقد استطاعت عناصرهم أن تقبض على معظم مناصب الدولة حتى الصدارة العظمى . وقد فسد نظامهم . الذي كان يضرب المثل بدقته وصرامته ، وتفاقم تمردهم على السلطة في العاصمة =

ج ـ تفصيلات عن سياسة **السلاطين العثمانيين** الذين حكموا خارل القسم الأعظم من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وحياتهم، مما يرسم بعض معالم السياسة العثمانية ، الداخلية والخارجية . وقد ترجم « المحبي » لسبعة منهم (١) فقط، أما السلطانان الثامن والتاسع ، اللذان شغلا بقية القرن وهما « محمد الرابع » (١٠٥٨ ـ ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م) و « سليمان الثالث » (١٠٩٩ ـ ١١٠٣ هـ / ١٦٨٧ ـ ١٦٩١ م) فإنه لم يتطرق لترجمتهما. إلا أنه أشار إلى السلطان الثامن ، وهو « محمد الرابع » ـ الذي عاصره المحبي ـ خلال ترجمته لبعض وزرائه كـ « محمد الكوبرلي » ، و « مصطفى باشا المرزيفوني». وإذا كان سبب عدم ترجمته للسلطان سليمان الثاني واضحاً ، وهو عدم وفاته في القرن الحادي عشر ، فإن سبب انصرافه عن ترجمة « محمد الرابع » يبقى مبهماً . ولعلّ تأخر وفاته إلى مابعد تدوين المحبي لكتابه ، عام ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م ، عاملٌ في هذه الثغرة .

(١) السلاطين السبعة بحسب تواليهم على العرش هم « مراد الثالث » ، و « محمد الثالث » ، و « أحمد الأول » ، و « مصطفى الأول » ، و « عثمان الثاني » ، و « مراد الرابع » ، و « ابراهيم الأول » .

د — دقائق كثيرة عن الأحوال الداخلية المتدهورة للدولة العثمانية : كانحطاط مختلف مؤسساتها الادارية ؛ وانتشار بيع المناصب ، ولغير أهلها ؛ وفساد الجيش ، **بانكشاريته** ، وسباهيته (١) ، **وثوراته المتوالية في العاصمة** ، حتى غدا السلطان ألعوبة في يده : فهو الذي يعين من يراه من السلاطين ، ويعزل ويقتل من ينقم عليه منهم ؛ هذا إلى بروز نفوذ كبار موظفي السراي ، وبصفة خاصة المشرفين على قسم الحريم (القزلار آغاسي أو ضابط الحرم كما يسميه المحبي) ، الذين أخذوا هم الآخرون يتداخلون في خلع السلاطين وتعيينهم . كما حدث مع السلطان « مصطفى الأول » .

ولايكتفي « المحبي » ، أثناء عرضه لتراجمه السياسية ، بمجرد سرد الأحداث ، بل يعلّق هنا وهناك ، مضمّناً تعليقاته أسباب ذلك التدهور تارة ، وتنبؤاته بالمستقبل

---

(١) هم المحاربون من « الفرسان » . وكانوا يتقاضون مقابل خدماتهم العسكرية ، اقطاعات أرضية ، تتناسب ايراداتها مع رتبهم ، على خلاف الانكشارية ، الذين يتقاضون على خدماتهم أجوراً نقدية ، وعينية .

تارة أخرى . ويلاحظ في تحليله للأمور نظرات سديدة ولاسيما في الأمور التي عاصرها ، وعاينها بنفسه . فقد رد اختلال الأوضاع في الدولة إلى « تهاون رؤسائها في نظم الأمور على نسق يرضي الجمهور »« فكثرت الأغراض ، وبدلت الجواهر بالأعراض ، وتغيرت الدول ، وذهبت الناس الأوّل . وقامت الفتن على ساق ، وانتصب الخلاف ، وارتفع الوفاق . وتقوّت ضعاف الدولة ، وأظهروا العتو والصولة ، فكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم . وبهذا السبب ، كان يولى الوزير أياماً ، فلا يرى هدواً ولا راحة . ولا إن كان مناماً ، ثم يقتل ، أو يعزل ، أو ينهب . أو يسلب : إلى أن طغت طائفة من العبيد اللئام ، داخل حرم السلطان من الخدام » (١) .

ومن تعليقاته المتنبئة بانهيار الدولة ، قوله ، في حرص السلطان على تزيين عاصمته ، إثر انتصار أحرزه في حرب مع ملك « المسقو » (الروس) ، وكان « المحبي » موجوداً آنذاك في « استامبول » : « فشرعوا في التزيين . . . وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها ، وأنا متحقق من غير

---

(١) ج ٤ . ص ٣٠٩ — ٣١٠ . ترجمة (محمد باشا الكوبري) .

شك يخامرني ، أنها لم تصدر في زمان ، ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ، واستغرقت الناس في اللذة والسرور . . . وفشت المناهي ، وقصر فيها المحذر الناهي . وعلمت العقلاء أن مثل هذا الأمر كان غلطاً ، وأن ارتكابه جرم عظيم وخطأ ؛ وما أحسب ذلك ، إلا نهاية نهنهة السلطنة، وخاتمة كتاب السعادة والميمنة ، ثم طرأ الانحطاط ، وشواهد النقصان ، وتبدل الربح بعدها بالخسران » (١) .

وكأن « المحبي » أراد أن يدعم نظراته السياسية التحليلية في انهيار الدولة العثمانية ، بما أكده مفكرون أتراك عثمانيون معاصرون ، فساق تلخيصه لكتاب « واقعتنامه » التركي الذي دونه « المولى أويس » ، سلطان الشعراء الأتراك — كما يعرّفه « المحبي » — ، والذي يمثل نقداً للسلطنة العثمانية ، وبياناً بأسباب ضعفها ، وبعض ومضات في الفكر السياسي لتلك الحقبة . ويروي « المحبي» ماورد في ذلك الكتاب ، فيقول : « حاصل تأليفه ، أنه (أي أويس صاحبه) رتب رؤيا ، وأبرزها في هذا القالب،

(١) ج ٤ . ص ٣٩٨ . ترجمة (مصطفى باشا المرزيفوني) .

وذلك في عهد السلطان أحمد، في حدود سنة سبع عشرة وألف . وكان أمر الدولة إذ ذاك في غاية الاضمحلال . قال : لما لاحظت الحوادث في عالم الكون والفساد ، كنت أتمنى لو كلمت السلطان في هذا الشأن بلا واسطة ، حتى طرقني النوم في أثناء هذه الفكرة . فرأيت جماعة ، كل منهم في ناصيته نور السعادة لامع ، وشعاع الاقبال في وجهه ، فنزلوا في بستان ، وكل منهم استقر على كرسي ، وبقيت أنا مع الخدم . فناداني المتأمر منهم ، وأجلسني . فسألت عنه ، فقيل لي إنه الاسكندر ذو القرنين ، والذين حوله هم ملوك آل عثمان الماضين . ثم أقبل موكب حافل ، وأسفر عن السلطان أحمد ، فجاء وجلس على سرير مقابل الاسكندر ، وأخذ هو والاسكندر في المكالمة . فكان تارة يتكلم ، وذاك ينصت ، وتارة ينصت وذاك يتكلم ، حتى ابتدر الاسكندر وقال: إن السلطان قَلْبُ العالم ، فاذا لم يكن القَلْب معتدل الأحوال، انحرف العالم عن حد الاعتدال ؛ والعدل والرشاد مادة السداد ، والرحمة والانصاف سبب جمعية الرعايا ، والجور والاعتساف باعث تفريق البرايا . فتأوه السلطان ثم قال :

أيها السلطان الأعظم ، كلامك حق معلوم ، أما اعتدال القلب فموجود ، وأما الجور فغير مجحود . وذلك لأن السلطنة لم تسلم لنا إلا بعد خراب الدنيا ، فإنه من عهد جدي المرحوم السلطان « مراد الثالث » قد ارتكبت مكروهات لامحيد عنها ، وذلك بسبب التصميم على قلع شجرة الرفض والإلحاد ، فاقتضى الأمر تعيين العساكر التي لانهاية لها ، ولزم ذلك إعطاء المناصب العلية ، والمراتب السنية ، لغير أهلها . ولزم من ذهاب العساكر وإيابها في كل سنة ، تكاليف الرعايا ، ووقع بينهم وبين العساكر . وربما أدت مخاصمة اللسان إلى محاكمة السيف والسِّنان ، فوقع بذلك الخراب » (١) .

هـ — **معطيات كثيرة عن السياسة الخارجية للدولة العثمانية وحروبها في أوربا** : مع الانكروس (الهنغار) ، ومع المسقو (الروس) ، ومع النمجة (النمسا) ، ومع كريت . وفي الشرق : مع العجم . ويفصل « المحبي » أثناء حديثه عن تلك الحروب ، ضمن التراجم ، مجريات المعارك ، والفرق المشتركة في القتال ، وأحياناً أنواع

(١) ج ١ . ص ٤٢٦ — ٤٢٧ . ترجمة (المولى أويس) .

الأسلحة ، ولاسيما المستجد منها ، كـ « اللغم » مثلاً ، الذي أثار المؤلف ، فشرحه شرحاً دقيقاً (١) .

ومن المعلومات السياسية الهامة أيضاً ، التي يمكن استنباطها من « خلاصة الأثر » بالإضافة إلى السابقة :

ثالثاً : معطيات غزيرة عن الأحوال السياسية ، في عديد من ولايات الدولة العثمانية ، وبصفة خاصة « العربية المشرقية » منها . كسياسة بعض الولاة ، والقضاة ، وموظفي الدولة الآخرين ، والفرق العسكرية فيها ، وموقف الشعب منها ، وموقفها من الشعب ، وعلاقاتها فيما بينها . ويسلط « المحبي » أضواء قوية على الأوضاع في بلاد الشام والحجاز ، واليمن ، ويتحدث طويلاً ، مستفيداً من مصادر من سبقه من المؤرخين ، كـ « النجم الغزي » ، و « البوريني » ، عن فساد « الانكشارية » ، وتسلطهم على البلاد ، وعن رؤسائهم من « الطغاة » كـ « كيوان » ، و « خداوردي » وغيرهما ، وعلاقتهم المؤذية بالأهالي ، والولاة ، والقضاة ، والفتن المتولدة من تحركاتهم ، وما فعلوه في حلب بصفة خاصة ، وبدمشق

(١) ج ١ . ص ١٥ — ١٦ . ترجمة (السلطان ابراهيم) .

في عدة مناسبات . كما يبرز ظلم الولاة للأهالي في بلاد الشام ، والجور عليهم بالضرائب ، والمصادرات . ويقدم معلومات وافية عن ثورات الامراء المحليين ، كفخر الدين المعني ، وعلي جنبلاط .

ويتوغل في تلافيف صراع الأشراف في الحجاز مع الوالي العثماني ، وصراعاتهم فيما بينهم ، وكذلك في صراع أئمة اليمن مع الدولة العثمانية وولاتها ، واستقلالهم عنها ، إلى غير ذلك من قضايا سياسية داخلية ، شغلت المشرق العربي آنذاك .

ويلاحظ أن كتاب « خلاصة الأثر » قد خصّ بلاد الشام ، واليمن ، والحجاز ، بالقسط الأوفى من المعطيات السياسية ، بينما اقتصرت معلوماته عن بلاد المغرب التابعة للدولة العثمانية ، على صور صغيرة وسريعة ، وكذلك الأمر بالنسبة لمصر .

رابعاً : القيم السياسية السائدة في مجتمع تلك الحقبة . فمن تلك القيم السياسية المطلوبة من الحاكم مثلاً . السير سيرة الأئمة الهادين : من تفقد الضعفاء ، وتأمين السبل ، والأسفار ، والاشتغال بأمور الرعايا ، ومطالعة

كتب العلم والأدب ، وحب العلماء ، والتمسك بالسنة النبوية ؛ وحسن الاعتقاد ، والجود ، والكرم ، ومعاشرة أرباب الفضائل . وبالنسبة لسلاطين بني عثمان معرفة اللغة العربية .

ومن القيم السياسية المذمومة في الوالي مثلاً ، القهر للرعية،والمكر ، والظلم ، وأخذ المال من غير حق ، والتفريق بينها ، وتهاونه في نظم الأمور على نسق يرضي الشعب . . إلى غير ذلك من قيم كثيرة ، تعج بها التراجم .

خامساً : صور بعض الوثائق السياسية . والموجود منها ، مع ندرته مفيد ؛ كصورة الفرمان المرسل إلى أحد أشراف مكة بتولية الدولة له (١) . وفحوى رسالة ملك المجر إلى الوزير الأعظم مصطفى باشا (٢) وغيرها .

سادساً : تسقط تراجم « خلاصة الأثر » أضواء كاشفة بصفة خاصةعلى أعضاء المؤسسة الدينية،وهم الزمرة الثانية من التراجم المقدمة في هذا الجزء من الكتاب . ومنهم القضاة . « فالمحبي » يخصهم بقسط كبير من تراجمه،

---

(١) ج ١ . ص ١٣٢ . ترجمة (الشريف أبوطالب) .

(٢) ج ٤ . ص ٤٠٢ . ترجمة (مصطفى باشا المرزيفوني) .

ويعطي فيها معلومات وافية عن مجموع نظام القضاء (١) في الدولة العثمانية ، ومناصبه ، ومراتبه : من نائب قاض ، إلى

---

(١) لقد كان « القضاء الاسلامي » في العهد العثماني منظماً تنظيماً دقيقاً ، وله مراتب يتسلسل ضمنها القضاة . فالرأس الأعلى فيه هو « شيخ الاسلام » أو « المفتي الكبير » ، ويليه « قاضيان العسكر » ، أحدهما للأناضول والثاني للروملي (بلاد أوربا العثمانية) . ودون الاثنين عدد من كبار القضاة ، يحملون لقب « ملا » أو « مولى » . وكان منهم في انحاء الامبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، (٤٣) ملا ، مصنفين بدورهم إلى مجموعات. وكانت المدينتان المقدستان مكة والمدينة ، وكذلك دمشق والقاهرة وبغداد ، من المدن الكبرى التي من نصيبها « ملا » . وينضوي تحت جناحي قاضي العسكر ، القضاة الكبار (الملا) ، والقضاة العاديون . وكان المسؤول عن قضاة الولايات العثمانية في آسيا ومصر ، قاضي عسكر الأناضول ، بينما المسؤول عن قضاة الولايات العثمانية في أوربا ، وشمالي أفريقيا . قاضي عسكر الروملي . وكان جميع القضاة العثمانيين من الأحناف ، لأن « المذهب الحنفي » هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية . وكانوا لا يصلون إلى مناصبهم عادة ، إلا بعد دراسة أصولية في مدارس السلطان « سليمان القانوني » ذات الدرجات الاثنتي عشرة . وقد جرى العرف في الولايات العربية ؛ حيث هناك عناصر من السكان على المذاهب السنية الثلاثة الأخرى (المالكي ، والشافعي ، والحنبلي) أن يعين (نواب) القاضي العثماني ، في كل مدينة كبيرة ، على المذاهب السنية الأربعة ، =

قاض ، إلى ملاّ (قاض كبير) ، إلى قاضي عسكر ، فشيخ الإسلام ؛ وكيفية الوصول إليها ، والخلل الذي قد يحدث في التعيين لها ، وتنقلات القضاة بين مختلف مدن الامبراطورية ، ومدى نزاهتهم وعدلهم ، ومدى تعرضهم للرشوة ، وممارستهم للجَوْر ، وتهاونهم في عملهم ، وثورة الرعية عليهم إذا مافعلوا ؛ ويشير إلى القضايا الكبرى التي حكموا فيها ؛ ولباسهم ، وبعض من عاداتهم ؛ وعلاقاتهم

= ليقيموا القضاء في المحاكم الموزعة في المدينة ، وكان منها في دمشق خمس محاكم . وكان يؤخذ (نواب القضاة) غير الأروام ، من علماء البلاد المحليين ، وفقهائها ، في معظم الأحوال . وإذا ماغاب القاضي العثماني ، الذي كان بمثابة « قاضي قضاة » لسبب ما ، كذهاب للحج ، أو مرض ، أو انقطاع عن العمل ، بسبب عزله وعدم استلام آخر القضاء مكانه ، فانه كان يحل محله « نائب » له ، ويطلق على عمله « النيابة الكبرى » . وقد يكون من كبار العلماء المحليين الأحناف ، كما كان شأن والد جد المحبي . وعندما ضعف شأن الدولة العثمانية ، أصبح « قاضي القضاة » العثماني نفسه ، يعين نائباً دائماً له ، ولا سيما إذا ماأقعده المرض ، أو حطت من قواه الشيخوخة ، على أن يتقاسم معه واردات القضاء .

وكانت الدولة تتقاضى ثمناً لمنصب القضاء ، بعد أن عم مبدأ بيع المناصب ، يختلف باختلاف مستوى المرتبة القضائية . كما كان القاضي يجمع من المتقاضين لديه مالا ، وبنسب محددة ، وهي أشبه بالرسوم .

مع الحكام ، وصلة هؤلاء بهم : احتراماً أو تعالياً ، إهمالاً أو تهاوناً ؛ ومكانتهم العامة بالنسبة إليهم : كتقدمهم عليهم ، أوتقدم هؤلاء عليهم . ومدى استماع الحكام لنصائحهم ، وانكاراتهم عليهم ، أو تخطيها ؛ وأخيراً دورهم الهامّ وسيطاً بين الحكام والرعية ؛ وصِلاتهم مع العلماء ، والمتصوفة ، وبصفة خاصة العلماء المحليين في البلاد العربية ؛ وأجورهم في العمل ، ومايدفعونه ثمناً لوظائفهم .

سابعاً : ومثلما تلقي تراجم « خلاصة الأثر » تلك الأنوار الكاشفة على القضاء وتفرعاته ، فإنها تطرح أنواراً مماثلة على « الإفتاء » .

فتوضح الدور الديني والسياسي « للمفتي الكبير » في الدولة (شيخ الاسلام) ، وأحوال المفتين الأحناف المعينين من الدولة ، والمفتين المحليين في البلاد العربية ، من أحناف ، وحنابلة ، وشافعيين ، ومالكيين ، وشيعة زيديين في اليمن .

وكذلك تفعل مع « نقابة الأشراف » في المدن العربية ،

وبصفة خاصة في بلاد الشام ، « ونقابة الأشراف الكبرى » في القسطنطينية .

وتتعرض هنا وهناك ، إلى عدد من العناصر الأخرى في المؤسسة الدينية ، كالقرّاء وأئمة المساجد ، والوعّاظ ، والمؤذنين ، ومتولي الأوقاف ونظارهم ؛ والأوقاف ونوعيتها ، وتوزيعها على المساجد ، والمدارس ، والزوايا ، والحرمين الشريفين ، وغيرها .

بعض الأمور الاجتماعية المستفادة من تراجم « خلاصة الأثر » :

إذا كانت المعطيات السياسية السابقة ، وهي معطيات وفيرة وهامة ، يمكن استخلاصها من تراجم سِفْر «خلاصة الأثر » ، فإن مايمكن استنباطه من معلومات عن الأحوال الاجتماعية ، في العالم الاسلامي ، والوطن العربي ، وبصفة خاصة بلاد الشام ، تعتبر وثائق أكثر أهمية ، لضآلة مانملك من معلومات في هذا المجال ، خلال الحقبة التي يؤرخ لها « المحبي » ، ولمعاصرة « المحبي » لكثير منها ، وصدقه ، بل عفويته ، في إيرادها .

إن تراجم « المحبي » ، تبرز عن غير قصد منه ،

أموراً اجتماعية كثيرة ، مبعثرة هنا وهناك . **وأولها الفئات الاجتماعية** : يتضح لقارىء مجموع كتاب « المحبي » أن المجتمع الذي يتحدث عنه هو « المجتمع الاسلامي » فحسب ، أكان في العالم الاسلامي عموماً أو في البلاد العربية . وبتعبير آخر ، إنه لايترجم لأحد من أهل الذمة ، من نصارى أو يهود . وإن كان هناك بعض إشارات طفيفة ، وغير مباشرة للنصارى في الشام . وهذا « المجتمع الاسلامي » كان منقسماً إلى فئتين متمايزتين : فئة الحكام التي يترجم « المحبي » لرؤوسها — كما أسلفنا سابقاً القول — ، وفئة المحكومين . ويلاحظ أن العلاقة بينهما تتراوح ، بين وئام وسلام ، إذا ما طبقت مفهومات القيم الاسلامية السياسية ، والاجتماعية ، من عدل ومساواة ، وتسامح ، وحرص على مصلحة مجموع الناس ، الاقتصادية ، والاجتماعية من قبل الحكام ؛ أو حرب وصراع إذا سعت الطبقة الحاكمة نحو مصلحتها الخاصة ، ولاسيما المادية ، على حساب مصلحة المجموع . ويشعر القارىء ، من خلال التراجم الواردة في خلاصة الأثر ، أن تلك العلاقة في البلاد العربية ، وبصفة خاصة في بلاد الشام ،

كانت علاقة متوترة ، وهناك عدم رضا بل ونقمة من الفئة المحكومة تجاه الفئة الحاكمة .

والفئة الحاكمة في البلاد العربية ، ولاسيما في البلاد التي أبرزها « المحبي » ، كبلاد الشام ، والحجاز ، واليمن ، كانت تنقسم بدورها إلى فئتين : فهناك السلطة الحاكمة العثمانية ، وسلطة الأمراء المحليين . و « السلطة الحاكمة العثمانية » كانت هي الأخرى فئتين رئيسيتين : فهناك الوالي وحاشيته وموظفوه المختلفون ، وهناك الجيش ممثلاً بصفة خاصة بالحاميات الانكشارية . ويمكن تلخيص العلاقات بين مجموع الفئات الحاكمة من ناحية ، والرعية المحكومة من ناحية أخرى ، بأنها علاقات خاضعة ، بصفة خاصة ، للعلاقات بين الفئات الحاكمة فيما بينها . فالفئة المحكومة سلبية على العموم ، تراقب وتتلقى نتائج تلك العلاقات . فقد كانت الصلات بين الفئات الحاكمة ، في الواقع ، صلات صراع بين مراكز القوى : فهي تتحالف أو تتقاتل بحسب اختلال التوازن بينها . وفي مجملها كانت علاقات حرب ، تفرض كل وبالها الاقتصادي ، والاجتماعي ، على الفئة المحكومة ، من زيادة في الضرائب ،

ومصادرات ، واجتياح للأرض الزراعية ، وقتل ، ونهب ، ومايتبعها من هجرة عن المدن أو عن القرى حتى إن بعض الأخيرة اندثر ، وما يلحق ذلك من تشريد وبؤس.

وعلى الرغم من بعض تقارب اجتماعي بين عناصر من الفئة الحاكمة العثمانية ، وعناصر من الفئة المحكومة العربية الاسلامية ، عبر التزواج مثلاً ، ولاسيما بين الانكشارية وأهل البلاد ، أو سعي الفئة الحاكمة لتعلم اللغة العربية ، لغة الاسلام وأهل البلاد ، بل وإتقانها ، وإجادتها أحياناً ، وسعي الفئة المثقفة العربية بالتالي ، لتعلم اللغة التركية ، فإن العلاقة بين الطرفين ، كانت تبدو فاترة ورسمية . بل إن مفهوم التمايز القومي بين « العربي » و « الرومي » كان قائماً في نفوس العرب والأتراك على السواء ، بل ونامياً .

وإذا كانت تراجم « خلاصة الأثر » تقدم معطيات غنية عن علاقات الفئتين : الحاكمة والمحكومة ، تدخل في واقعها في الحيزين الاجتماعي والسياسي معاً ، فإنها تستطيع أيضاً أن تعطي ، إذا مااستقرئت، واستحلبت ، معلومات عن فئات المجتمع العربي المسلم نفسه في بلاد

الشام ، ولكنها تتراوح بين الوفرة والقلة ، بحسب الفئة : فالمعلومات عن فئة « العلماء » ، وهي الفئة التي عاش وسطها المحبي ، وترجم لها عن سعة ، معلومات غزيرة ، ولذلك فإنه يرسم صورة واضحة وحيّة ، وبكثير من التفصيلات عنها ، وسنشير إلى مايمكن الاستفادة منها ، فيما يطرحه المحبي من معطيات فكرية في كتابه (في الجزء الثاني من هذا الكتاب) .

أما فئات (الحرفيين) ، و (التجار) ، و (الفلاحين). فتبقى المعلومات عنها قليلة ، ولكن « التراجم » لاتعدم إشارات عابرة ، هنا وهناك ، عن تنظيم الحرفيين في رابطة تحت إمرة « شيخ المشايخ ».أو « سلطان الحرافيش»(١)

---

(١) إن لفظة « حرفوش » وجمعها « حرافيش » لفظة عامية ، أطلقت في العهد المملوكي على مجموعة من « الشحاذين المحترفين » في بعض المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق ، ولبعض الفترات في حمص وحماه وحلب . ويبدو أنه كان لهؤلاء نوع من النقابة ، على رأسها كبيرهم ، ويحمل لقب « سلطان الحرافيش » . وكانت طبقة « الحرافيش » طبقة دنيا في المجتمع المملوكي ، إلا أن السلاطين كانوا يخشون بأسها ، لأنها كانت مستعدة للثورة والنهب ، وكانوا يوزعون أعضاءها ، اثناء المجاعات ، بين كبار الأمراء ، والخاصة ، لاطعامهم واكتفاء شرهم ، كما كانوا =

كما كان يطلق عليه قديماً ، وعن نظرة العلماء المتدنية إلى أصحاب الحرف ، وعن جمع بعض الحرفيين أحياناً

= يستخدمونهم أحياناً لتحقيق أغراضهم.وقد ظهر منصب «سطان الحرافيش» لأول مرة حوالي نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي.وبقي قائماً حتى نهاية حكم المماليك . وهومسؤول لدى الدولة عن جماعته ، وأعمالها ، ومواقفها نجاهها . وفي الواقع لا تعرف العلاقة بين « الحرافيش» والتنظيمات الحرفية ، والفرق الصوفية الشعبية ، ولا كيف أعطي « لشيخ مشايخ » الحرف هذا لقب « سلطان الحرافيش » ، ولكن لا بد أن رابطة ما كانت قائمة . ولعل دخول بعض الحرفيين المفلسين ضمن جماعة « الحرافيش » التي كانت تتألف من فلاحين فقراء ، وشحاذين محترفين ، قد قاد إلى ذلك الترابط . ويبدو أن « جماعة الحرافيش » كانت تشبه جماعة « الاحداث » ، وجماعة « العيارين » قبلهم ، و « الزعر » ، التي تشاهد في مدن حلب ، وبغداد ، و دمشق وغيرها . ولعل كلمة « حرفوش » العامية هي قلب لكلمة « حرشف » ، وتعني الضعفاء في الأصل .

أما « شيخ المشايخ » ، أو « رئيس الحرفيين » ، فعمله كما عرفه « المحبي » : « هو الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . » ويبدو أن تسميته بـ« سلطان الحرافيش »قدزالتمنذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلاديبدليل إشارة الغزي » ،قبل«المحبي»،إلى أن تلك التسميةقديمة . (النجم الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر . ترجمة محمد بن عجلان . رقم الترجمة في مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق .(١٣) ، وورقة(١٧١ب). ونقل عنه « المحبي » في ترجمة الشخصية ذاتها . ج ٤ ص ١٤٥) .

بين مهنهم والعلم ، وعن غنى بعض التجار ، وتوفيقهم بين عملهم والاشتغال بالعلم ، أو الشعر ، وعن الحركة التجارية في العالم الاسلامي آنذاك بإشارة التراجم إلى تنقل التجار بين أنحاء مختلفة منه . وتبين تلك التراجم أيضاً صلات التجار بالعلماء ، وأوقافهم لصالح المساجد والمدارس .

أما « الفلاحون » ، ففي تراجم « خلاصة الأثر » ، لمحات عن سوء أحوالهم ، وأثر الانكشارية بالذات في ذلك السوء ، ولاسيما في قرى حلب ، ودمشق ، حيث عمل هؤلاء على نهب المحاصيل ، وحرق القرى . يضاف إلى هذا اضطرارهم للاستدانة بالربا ، واستغلال بعض المرابين لهذا الأمر . وهناك إشارات أيضاً ، إلى انتشار التصوف العامي ، وحلقات الذكر بينهم .

وإذا كانت « تراجم خلاصة الأثر » لاتلقي أضواء على الفئات الدينية كأوضاع « أهل الذمة » مثلاً ، فإن « المحبي » خص « الدروز » بترجمة خاصة ، شرح فيها معتقداتهم ، وعاداتهم ، كما أنه ألمح في أكثر من مناسبة إلى الشيعة ، وبعض علمائهم ، وآرائهم ، وملاحقة

السلطة العثمانية لهم ، بل إنه أكد في كتابه ، تصنيف العلماء ، بحسب مذاهبهم السنية : المالكي ، والحنفي ، والشافعي ، والحنبلي .

وإذا ماسئل عن مدى تعرض كتاب « خلاصة الأثر » لطبقة « العبيد » — وكانت موجودة آنذاك ، لأن الرق لما يُلغ ، وأسواق النخاسة مافتئت نشيطة — فإنه يلاحظ أن الكتاب ، قد أحاط بها فئة قائمة بذاتها ، ولها دورها السياسي ، عند حديثه عن الأشراف في الحجاز ، وعن الامراء في الهند . أما في البقاع الأخرى ، فليس هناك سوى إشارات سريعة ، إلى وجود فردي لبعض العبيد ، والاماء ، وتملك الأشخاص لهم أو عتقهم .

وبالإضافة إلى ماذكر آنفاً ، عن بعض مايقدمه كتاب « خلاصة الأثر » من معلومات عن الفئات الاجتماعية ، في مجموع المجتمع الاسلامي والعربي ، والشامي بصفة خاصة ، في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي ، فإن

تراجمه تتعرض ، هنا وهناك ، إلى « الاقطاع العثماني » (١)، وتعرّف ببعض فئاته ، وبعض المتمتعين به .

ويتطرق « المحبي » في تراجمه ، بين آونة وأخرى ، إلى حياة «الموسرين » ، من بناء للقصور ، وإقامة للحدائق ، واقتناء البساتين ؛ ولحياة « الفقراء » أيضاً ، وضنك عيشهم . وإلى « الخاصة » من المتعلمين الموسرين . وإلى « العامة » أو العوام الجاهلين ، وهم على الأغلب من « طبقة » « الكسبة » المتوسطي الحال ، أو الفقراء .

ولا يغفل « المحبي » عن نمطي الحياة الرئيسين السائدين

(١) قسم العثمانيون الاقطاع إلى قسمين رئيسيين :

١ — الاقطاع الخاص ، ويضم ممتلكات التاج ويطلق عليه (الخواص الهمايوني) ، وما يقطعه السلطان لأفراد الأسرة المالكة حتى النساء منها ، وما يخصص لبعض المناصب الادارية كالوزراء ، والولاة ، وبكوات السناجق (الألوية) . ويتجاوز دخل هذا الاقطاع سنوياً (١٠٠،٠٠٠ أقجة) (الأقجة عملة فضية وكانت تعادل في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي نصف درهم تقريباً ، إلا أن قيمتها انخفضت في آخره ، وفيما بعد) .

٢ — « الزعامة » ، و « التيمار ». ويعطيان للفرسان السباهيين كل بحسب رتبته . والزعامة يعطي دخلا يتراوح بين (٢٠،٠٠٠ — ١٠٠،٠٠٠) أقجة ، بينما التيمار (٢٠٠٠ — ٢٠،٠٠٠) أقجة .

في المجتمع العربي . وهما : حياة الحضر في المدن والقرى ، وحياة البدو الرحّل أو « الأعراب » . فترجم لزعماء بعض الأعراب ، وبيّن تناحرهم فيما بينهم ، وتحركات قبائلهم في هذه الحقبة ، وبعض عاداتهم ، وتعرضهم لنهب القوافل . ولاسيما قوافل الحجيج .

ثانياً : ومثلما كانت تراجم « خلاصة الأثر » ، قادرة إذا مااستحلبت ، على طرح أضواء على بعض فئات المجتمع ، فإنه يمكن استنتاج بعض حقائق عن **الأسرة العربية المسلمة** منها ، في هذه المرحلة من التاريخ . فهناك « الكنى » التي تجمع الأسرة ، ويسعى « المحبي » إلى تحليل أسباب إطلاقها على الأسر . كقوله مثلاً : بيت الجوهري « سموا كذلك لأن جدهم البعيد عندما وفد إلى دمشق حمل معه جواهرومعادن » ، وسمي « آل الكواكبي » بحلب بهذا الاسم ، لأن جدهم « كان في مبدأ أمره حداداً يعمل المسامير الكواكبية » ، ولقب « آل المنلا » بهذا اللقب ، لأن جدهم « كان يعرف « بمنلا حاجي » وكان قاضي قضاة تبريز » ، إلى غير ذلك من اسماء وشروح . كما هناك لمحات عن التزاوج بين الروم والعرب ؛

وعلاقات أفراد الأسرة ببعضهم ، ولاسيما الآباء بالابناء . والأبناء بالآباء ؛ والأخوة ببعضهم بعضاً ، والعوامل التي كانت تتحكم بتلك العلاقات من قيم وظروف طارئة ؛ ويضاف إلى ذلك مايستنتج من سريان عادة التسري بالإماء ، وكثرة الولد ، وما يمكن أن يستفاد عن عادات الزواج ، وموجبات الطلاق .

ومن الأمور المستفادة أيضاً ، حرص كثير من الأسر الرفيعة المقام اجتماعياً ، على إثبات نسبها لآل الرسول محمد (ص) ، وانتمائها من ثم إلى طبقة الاشراف ، وكأنها بذلك تود تأكيد عروبتها ، بالاضافة إلى مايمكن أن تنتفع منه من امتيازات مادية ومعنوية . كانت تتمتع بها هذه الطبقة .

ويلمح القارىء في كتاب « خلاصة الأثر » المفهوم الاجتماعي المتماسك للأسرة العربية ، وبصفة خاصة في بلاد الشام ، بحيث تبدو وحدة متكاملة ، لها سماتها التي توارثتها عبر الأجيال ، كالثراء ، أو العلم ، أو الاثنين معاً . وفي هذا المجال ، يتحدث « المحبي » عن عديد من تلك الأسر ، التي أطلق عليها اسم « البيت » ،

ويتتبع تاريخها البعيد ، وعوامل شهرتها . كبني الكواكبي في حلب ، وبني سعد الدين في دمشق ، وآل الصمادي فيها ، وبني الأهدل في اليمن ، والطبريين في مكة ، وبني الحصني . وبني الأكرم في دمشق ، وغيرهم .

ومع أن « المحبي » . لايترجم لأية امرأة، علماً بأن سلفه « المؤرخ النجم الغزي » قد فعل في كتابه « الكواكب السائرة » ، وكذلك الحنبلي ، في كتابه « در الحبب » ، فإنه لايغفل الاشارة إلى بعض النساء البرزات في ثنايا تراجمه للرجال . « كبديعة الزمان » قريبته ، التي يصفها قائلاً ، بأنها « كانت من العلم ، والمعرفة ، ونظم الشعر في محل سام ، وانها اشتغلت على جده القاضي « محب الدين » ، وأخذت عنه الفقه والعربية ، وقرأ عليها ابنها وأخوه » كما تحدث عن امرأة من بني سيفا ، كانت تعرف الشعر حق المعرفة ، وأن ابنة الطبيب المصري « أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ » قد تولت مشيخة الطب بعد أبيها ، بدار الشفاء المنصوري في مصر . وأبرز أيضاً دور والدة الأمير« فخر الدين المعني الثاني » في الدفاع عن ابنها لدى الوالي العثماني « أحمد حافظ

باشا » ، وفي تأديتها المال ، كي تصفح الدولة عنه . وكذلك فعل، عندما أوضح موقف زوج الأمير « مدلج » أحد امراء العرب ، من منافس زوجها على الإمارة . وأكد دور والدة السلطان في السياسة ، وجهود الأميرات العثمانيات في تشجيع العلم ، وبناء المدارس ، واغداق العطايا على أفاضل العلماء ، وأثر ملكة الكرج في حرب الدولة العثمانية ، إلى غير ذلك من أمور تخص المرأة ، والأم.

ثالثاً : تتعرض تراجم « خلاصة الأثر » إلى كثير من العلاقات الاجتماعية بين الفئات المختلفة في المجتمع ، كعلاقة العلماء فيما بينهم ، وكذلك الأدباء والشعراء ، والعلاقة المتبادلة بين فئة العلماء والشعب ، وفئة المتصوفة والشعب .

وضمن تلك العلاقات الاجتماعية ، يتحدث «المحبي» في عديد من تراجمه عن علاقة شاذة ، ومقيتة ، كانت — على مايبدو — متفشية في مجتمع ذلك الوقت ، وهي « حب الرجال للغلمان » . ولا يبدو « المحبي » شاجباً للناحية الجمالية البحتة فيها ، إذ يذكر دون حرج ؛ غزل الشعراء بالغلمان ، وقصصهم معهم ، إلا أنه عندما

تتحول إلى علاقة فحش ، فإنه ككل المجتمع آنذاك ، يبدي استياءه ونفوره منها ، وإدانته لها .

رابعاً : تتضح من خلال التراجم أيضاً بعض أنواع من ملابس تلك المرحلة التاريخية ، كملابس الأروام والعرب ، وملابس القضاة الخاصة ، والمادة التي كانت تصنع منها . كقوله مثلاً : « يلبس ثوباً من الليف البرلسي ، مع أكمام كتان رفيع — وله تاسومتان » ؛ أو « كان يلبس الثياب الواسعة ، والعمامة الكبيرة على طريقة ابناء العرب » ؛ وكذلك بعض ملابس الأشراف ، وبعض ملابس النساء ، والطبقات الدنيا . فحول ملابس الأشراف مثلاً قال عن أحدهم بأنه كان « يلبس العمامة الكبيرة الخضراء ، والثياب المتسعة بالأكمام الطويلة الذيل » ؛ وأشار إلى البرقع والخمار بالنسبة للمرأة ، ووصف لباس بعض الزهاد ، فذكر مثلاً بأنه كان « يلبس الثياب الخشنة كالعباءة ، والقميص من الخام . » إلى غير ذلك من أنواع الملابس .

خامساً : لاتخلو تراجم « خلاصة الأثر » أيضاً ، من إشارات كثيرة إلى أنواع الأطعمة المعروفة في ذلك العصر .

والمشروبات . كقوله مثلاً عن السلطان العثماني « مصطفى » : « وأما أكله ، فانه لم يأكل الزفر مطلقاً ، وإنما كان يأكل الكعك الناشف ، واللوز ، والبندق ، وأنواع الفواكه. . . » وكقوله عن طعام الناس خلال حصار الوالي « نصوح باشا » لمدينة حلب : « وأعظم من في البلدة يجد أكل البصل والخل من أحسن الأطعمة ، وكان بعضهم يأخذ الشمع الشحمي ، ويضعه في طعام الارزوالبرغل » . وعن طعام الحيوانات قال : « وكان العساكر لايجدون التبن بل يأخذون الحصر وينقعونها في الماء ، ويقطعونها ، ويطعمونها للخيل بدلاً عن التبن . . . » ، ويشير « المحبي » فوق ذلك ، إلى تأليف بعض الأدباء رسالة في أنواع الأطعمة وكيفية طبخها ، مما يمكن أن يفصح — إذا ماوجدت تلك الرسالة — عن نشاط اجتماعي أسري ، لايعرف كثير عنه ، وفي الوقت ذاته ، عن مستوى القيمة الغذائية لطعام ذلك العصر ، وبعض من اقتصاد المنزل .

ومثلما يتبين القارىء بعض أنواع الأطعمة في ذلك العصر ، فانه يتعرف بعدد من المشروبات . فهناك شرب « قهوة البن» ، وقد دخلت المجتمع منذالقرن العاشر الهجري /

السادس عشر الميلادي، حتى أصبح للقهوة بيوتها. وهناك انتشار شرب الخمرة، وتغزل الشعراء بها على نطاق واسع على الرغم من منع الدين الاسلامي لها؛ وسعي الدولة للوقوف في وجه ذلك الانتشار. وهناك أيضاً تفشي تعاطي المكيّفات بأنواعها: كالأفيون، والحشيش، والبرش (١). ويبدو أن انكباب الناس على المادة الأخيرة كان كبيراً بدليل قول الشاعر المؤرخ «الحسن البيروني»:

عمّ البلاءُ بأكلِ البرشِ فانتقعتْ
مخايلُ الناسِ في خلقٍ واخلاقِ
ولوتصور هذا الدهرُ في رجلٍ
لأبصرته الورى في زي درياقِ

وكقول بعض الشعراء فيه أيضاً:

تبدل عن البرش المبلد بالطلا
فعالمُ أهلِ البرشِ غمرٌ وجاهلُ
فما البرش ان فتشت عن كنهه سوى
دويهيةٍ تصفرُّ منها الأناملُ

---

(١) تركيب مخدر كالأفيون وقد أفاد «جعفر الحسني» عندما سئل عنه، بأن الصيادين كانوا يمزجونه مع الطعام، ويقدمونه للطيور لتخديرها وصيدها.

ويذكر « المحبي » آثاره الصحية السيئة ، كإصابة صاحبه بالسوداء ، واختلاط العقل ، والاستغراق في النعاس ، والسرد ، وغير ذلك .

ويشير « محمد الأمين » ضمن تراجمه أيضاً ، إلى انتشار « تدخين التبغ » ، وقد بدأ ظهوره في البلاد العربية ، خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . ويبين موقف علماء ذلك القرن منه ، من محلل له ومحرم ، كما حدث عند ظهور القهوة قبله . وفي ذلك يقول في اثناء حديثه عن احدى الشخصيات اليمنية : « وكان شديد الانكار على من يشرب التبغ ، واعتنى بازالته من تلك الديار ، فتم له ، ونودي في الأسواق . وصنف له الشيخ « محمد علان المكي » في حرمته مصنفين ، وتبعه بعض الحنفية في تحريمه . والذي أفتى به الشيخ عبد العزيز الزمزمي ، والشيخ عبدالله بن سعيد باقشير من شافعية الحجاز : عدم الحرمة إلا لمن حصل له به ضرر . قلت : وظهور التنباك المسمى بالتبغ ، وبالتتن ، بجهة الغرب ، والحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، كان في اثني عشرة وألف ، كما وجدته بخط بعض المكيين ، وتاريخه (بغى) .

وأما ظهوره في بلادنا الشامية ، فلا أتيقنه . لكنه قريب من هذا التاريخ » .

ويشير كذلك إلى تحمس الشعراء له ، ووصفهم له بشعر جميل ، كقول « أبي المواهب البكري » فيه مثلاً :

هاتِ اسقني التبغَ ان تبغي الصفا سَحَرا
حتى أُخدَّرَ منه وهوَ إغشاءُ

واستجلِ انوارَ شمعٍ من يدي رشأ
قد زانه قامةٌ بالحسن هيفاءُ

بدرٌ غدا كوكبُ الإسعاد في يدهِ
طوعاً له ، فهو ماضي الامر نهّاءُ

ساقٍ لنا قلبهُ قاسٍ وكيف دنا
من لين عطفيه والاضدادُ اعداءُ

لعلَّ نار أسىً بالبعد قد وقدتْ
يوماً يكونُ لها بالقربِ اطفاءُ

فاملأ كؤوس رحيقٍ كالحريقِ فقد
أغنتكَ إذ وُصِفَتْ باللطفِ صهباءُ

ودعْ ملامَ طبيبٍ عابها سفهاً
وداوني بالتي كانت هي الداءُ

وفي الواقع ، يبدو من تراجم « المحبي » في « خلاصة الأثر » ، أن « التبغ » وتدخينه غدا غرضاً من أغراض الوصف الشعري ، وللشعراء فيه مطارحات لطيفة ، منها على سبيل المثال ، ماقاله « الشهاب الخفاجي » ، وما رد به عليه « محمد نقيب الاشراف » في دار السلطنة .

فقد قال الخفاجي له :

إذا شُربَ الدخانُ فلا تَلُمْنا
وجد بالعفو ياروض الأماني
تريدُ مُهذباً من غير ذنبٍ
وهل عودٌ يفوحُ بلا دُخانِ

وأجابه « نقيب الأشراف » :

إذا شُربَ الدخانُ فلا تلمني
على لومي لابناءِ الزمانِ
أريد مهذباً من غير ذنبٍ
كريحِ المسكِ فاح بلا دخانِ

ويظهر أن السلطات العثمانية أقلقها انتشار هذا المشروب الجديد فأصدرت أمراً بمنعه ، إلا أن الناس لم ينفكوا عنه .

سادساً : ومن الأمور الاجتماعية التي يتعرض لها كتاب « خلاصة الأثر » أيضاً ، النكبات التي كانت تصيب البلاد بين آونة وأخرى ، نتيجة ظروف طبيعية قاسية : كهطول ثلوج شديدة ، وأمطار غزيرة ، وما ينجم عنها من سيول مدمرة . كاشارته مثلاً إلى عام ثمان وتسعين وتسعمائة ، وما وقع فيه في دمشق من « ثلوج عظيمة دامت نحو أربعين يوماً ، وسقط منها بيوت كثيرة على أقوام هلكوا تحت الردم». وإلى البرَد والسيول التي حدثت في المدينة المنورة ، والطائف ، ومكة في عام ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦ م ؛ وإلى ماكان يصيب البلاد ، من جفاف ، وقحط ، ومجاعة وطاعون وأوبئة، وما يرافق ذلك من غلاء الأسعار . ومن آثار مختلفة في حياة الناس ، اقتصادية واجتماعية . ومن بعض الأمثلة على ذلك،ماذكره عن القحط في بلاد اليمن عام ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م ، وعن غلاء الأسعار في مكة ، وبلاد الشام ، وتكرره عبر السنين . ومن جملة ماقاله . — وهذا يعطي صورة حية من صور الوضع الاقتصادي والاجتماعي — : « وفي هذا القرن ، يضرب المثل بالغلاء الواقع بمكة في سنة تسع بعد الألف . ونهاية ماوصل فيه

الاردب المصري إلى ثمانية عشرة ديناراً . على ماسمعناه من الثقات الشاهدين الذلك . قلت : فتكون الغرارة الشامية على هذا باثنين وسبعين ديناراً ؛ فإن الاردب المصري ربع الغرارة الشامية . ولم يستمر الغلاء إلا نحو ثلاثة أشهر . وفيه أكل الناس من لحوم الكلاب والبسس . . . والفقراء كانوا يأخذون دم الشاة ، ويجعلونه في اناء على النار ثم يستعملونه . ثم وقع بعد عام تسع غلاء متعدد ، منه الغلاء الذي ذكرناه . ثم في سنة سبع وثلاثين ، وقع غلاء عظيم ، واستمر متزايداً إلى سنة ثمان ، فبيعت الكيلة الدخن في هذا العام بأحد عشر محلقاً ، ثم وقع في عام تأليف هذا الكتاب (أي ١٠٩٥ هـ — ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٣ م) غلاء أضرم في الافئدة نيران الاشتعال ، وأعمى بصائر الناس من التفرغ للاشتغال . واستمر أشهراً عديدة . وفي الغالب ، إنما يكون في أنواع الحبوب ، وقد يقع في السمن وغيره من أنواع المأكولات » .

ومن النكبات الاجتماعية التي يحيط بها كتاب « خلاصة الأثر » أيضاً ، الحرائق . كحريق في حلب ، ودمشق ، واستامبول ؛ وما يحط على البلاد من بلاء

الجراد ، وبيّن كيف كان يسعى الأهالي لمكافحته ، بطرقهم التي ألفوها ، كاستحضارهم ماكان يسمى بطير السمرمر ؛ ويضاف إلى ذلك ماكان يصيب الأهالي بين آونة وأخرى من اوبئة كاسحة كالطاعون .

ويدخل ضمن تلك الزمرة من المصائب الاجتماعية العامة ، الأمراض المنتشرة آنذاك . ويلاحظ أن التراجم تحوي إشارات كثيرة ، إلى أمراض أصابت أصحابها ، أو أمراض توفوا بها ، ومن تلك الامراض ، على سبيل المثال : الاسهال ، والاستسقاء ، والصداع ، والمراقيا ، واليرقان الأسود ، وغيرها .

سابعاً : وبالاضافة إلى كل ماأشير سالفاً من أمور اجتماعية ، فإنه يمكن تتبع كثير من العادات الاجتماعية المختلفة : كالعادات الجارية عند الوفاة ، أو الاحتفالات عند ميلاد الطفل ، وختانه ، وعند الزواج وفي بعض الأعياد .

كما يمكن تعرف بعض الألعاب التي كانوا يمارسونها للتسلية ، كلعب الشطرنج مثلاً . أو للكسب غير المشروع

كألعاب القمار . ويبدو أن القمار كان يمارس علناً في دمشق بمحلة تحت القلعة .

بل يستطاع عبر تراجم « خلاصة الأثر » ، تعرف بعض أنواع العقوبات الجسدية وغيرها ، المطبقة من قبل الدولة : كحبس الدم ، والخازوق ، والحرق بالنار ، والقتل بالسلاح ، والصلب ، وقطع الأيدي ، ودمغ الوجه بالنار ، والتشهير بإركاب المذنب حماراً ، والتطواف به في شوارع المدينة ، إلى غير ذلك من أمور .

ثامناً : ومثلما هي تراجم « المحبي » غنية بالقيم السياسية للعصر ، فانها ثرية بالقيم الاجتماعية والأخلاقية .. فكل ترجمة تتضمن في صلبها الكثير منها ، مما ينسجم مع كل شخصية ونوعية عملها . فكتاب « خلاصة الأثر » ، على الرغم من تأكيد صاحبه في مقدمته ، إلى أنه كان يبحث عن « أخبار الكمّل الأخيار » ، فإنه كتاب يحوي كثيراً من النقد الاجتماعي لرجالات عصره ، وفي الوقت ذاته ، يتضمن مادة دسمة لدراسة القيم الاجتماعية السائدة .. فمن الصفات الاجتماعية والخلقية الممدوحة ، التي يصف بها احدى الشخصيات ، على سبيل المثال فقط :

قوله : « كان ملازماً للعبادة والاستفادة ، مترفعاً عن الدنيا وأهلها ، لايتردد إلى أحد إلا في خير . . سمح النفس ، حسن الصفات ، شريف الطباع . . كان مع مااجتمع فيه من المهابة شديد البسط ، كثير الدعابة والتغزل ، وطرح التسمت . . مليح الحديث لايمل وإن طال » . أو قوله عن شخصية أخرى : « كان متصلباً في أمر الدين ، قوالاً بالحق، لاتأخذه في الله لومة لائم » ؛ وعن ثالثة : « يحنو على الأيتام ، وحضن كثيراً منهم ، ممن لاولي له ، ونمى أموالهم » . ومن الصفات الممجوجة على سبيل المثال فقط – وهي بالطبع كل تلك التي لاتنسجم مع الأخلاق والأعراف العربية الاسلامية – ماذكره عن أحد الرجال بقوله : « بذيء اللسان ، قليل التدبير ، ليس عنده شيء ممتنع » ، وعن آخر « يشرب الخمر ، ويلبس لبوس النصارى » . ومن الأوصاف الاجتماعية النقدية الساخرة التي تبناها « المحبي » ، نقلاً عن النجم الغزي ، قوله في أحد الرجال : « وكان يلبس عمامة كبيرة مكورة ، وله عرج وقصر ، وهو مع ذلك يتبختر ، ويتخذ غلاماً أمرد من ابناء الناس يمشي خلفه ،

وربما يلتفت ويخاطبه في الطريق ، وكل منهما يرفل في زينته . وكان يعرف التركية ، إذا تكلم بها تبجح إزراء بابناء العرب وهو ليس إلا منهم . وكانت فضيلته جزئية ، إلا أن جراءته كاية » .

ولعلّ كتابي « النجم الغزي » اللذين يشير اليهما « المحبي » — ويتضمن « خلاصة الأثر » بعض مقتطفات صغيرة منهما — يعكسان القيم الاجتماعية المثالية المطلوبة من الفرد في المجتمع آنذاك . والكتابان هما « عقد النظام لعقد الكلام » ، و « التنبيه في التشبيه » . ومما أورده « المحبي » من تلك القيم ، أو الآداب الاجتماعية ، وكان معجباً على مايبدو بها ، « آداب عيادة المريض » ، خيث يقول شعراً :

إن تَعُدْ يوماً مريضاً فليكنْ
في زَمانٍ لاق فيه أن تعود
واطرق الباب برفق ثم باسـ
ـمك صرح ، ما صديقٌ كالحسود
واغضض الطرف ولا تكثر إذاً
من سؤال ثم خفف في القعود

لا تكلم في الذي يضجره
أوله فيه ارتياب في الوجود
ضعْ عليه يدك اليمنى وعن
حاله سله على وجهٍ يجود
أظهر الرقة وسع مدة
وَعِدَنْهُ بالعوافي أن تعود
وأشر بالصبر حذِّر جزعاً
وادع بالاخلاص مولاك الودود
تلك آدابك ان عدت ومن
يحفظ الآداب يرجى أن يسود

وخلاصة القول يمكن لسفر « خلاصة الأثر » أن يقدم مادة ثرة جداً لعديد من البحوث الشائقة في الحياة الاجتماعية للمجتمع العربي بصفة عامة ، والمجتمع الشامي بصفة خاصة .

بعض لقطات من «الحياة الاقتصادية» في «خلاصة الأثر»:

إذا كانت تراجم « المحبي » في « خلاصة الأثر » ، تزخر بذاك الفيض من لقطات « الحياة الاجتماعية » ، فإنها على الرغم من عدم غناها الكبير بالمعلومات عن « الناحية

الاقتصادية» ، فانها لاتعدم وجود نثرات عنها ، هنا وهناك ، يمكن أن تركب ، إذا ماجمعت بدقة وصبر ، بعض ملامح عن الفعاليات الاقتصادية في المجتمع العربي والاسلامي في ذلك القرن . ففي بعض التراجم إشارات عابرة إلى الزراعة ، وأنواع الزروع ، وطرق استثمار الأراضي ولاسيما في بلاد الشام ، ومنها الإيجار ؛ وأراضي الوقف والمنازعات حولها ؛ وآبار الماء ، والاهتمام بتوزيع المياه على الأطيان ، وأصناف الأشجار ، وسعي بعض المهتمين بالزراعة ، باستجلاب أنواع من أشجار الفواكه من أماكن بعيدة ، لما لم تتوافر في المنطقة التي يريدون الزراعة فيها. هذا إلى تأكيدات كثيرة عن ارتباط الزراعة بالأمطار ، والقحط بالجفاف ، وتأثر الزراعة بالجراد . ويبدو أن البلاد العربية لم تكن لتخلو في ذلك الوقت من « أدب زراعي » بدليل إشارة « المحبي » في بعض تراجمه إلى كتاب بعنوان : « كيفية غرس الأشجار » .

ومثل النثرات عن الزراعة، شذرات عن بعض الصناعات والحرف التي كانت تمارس في مجتمع ذلك الوقت كذكره عصر السمسم ؛ وصناعة السروج ، وحدادة المسامير ،

والحياكة ، والنجارة ، وصنع القماش ، والخبازة ، والحلاقة ، وصناعة الصابون المطيب ، وصباغة الورق ، والصياغة وغيرها . هذا بالاضافة إلى لمحات عن بعض المصنوعات النسيجية الرائجة من الحرير ، والصوف ، والقطن ، ومصنوعات أخرى .

ويثبت « المحبي » في بعض تراجمه بعض المعطيات عن التجار ، ويسر أحوالهم ، ويبيّن عرضاً . وجود تجارة محلية محدودة ، يقوم أصحابها ببيع الحبر ، والحرير ، والصابون ، والقماش ، والعطارة ، وغيرها ، وإلى تجارة خارجية تبدو واسعة ، يسعى فيها أصحابها بين اليمن وبلاد الهند ، والحجاز واليمن ، وبين بلاد الشام ومصر ، والشام والحجاز ، والشام والعراق ، وبلاد الروم .

ويستفاد من «خلاصة الأثر» كذلك، في الميدان الاقتصادي، بعض معطيات عن المكاييل ، والأوزان المختلفة ، المستخدمة في بعض مناطق الوطن العربي والعالم الاسلامي : كالمكوك ، والجرة ، والرطل ، والاردب المصري ، والغرارة الشامية ، وحمل الجمل وغيرها . ويضاف إليها بعض مقاييس الأطوال ، كالذراع مثلاً .

كما أنه ينبي أيضاً ، عن أنواع النقد المتداولة : كالدينار الذهبي ، والعثماني ، والأقجة ، والقرش ، والريال ، والشريفي ، والمحلّق ، والقبرصي وغيرها . هذا بالاضافة إلى أسعار بعض السلع في فترات معينة من القرن .

ولا تخلو التراجم من بعض معلومات عن أزمات الغلاء ، وعن الاحتكارات الاقتصادية التي كان يقوم بها رجال الدولة أنفسهم . فقد ورد في ترجمة أحد ولاة « أدنة » مثلاً انه « حرَّج على البضائع كلها ، فلايبيعها جلاَّبها إلا لمن عينه من جماعته ، ثم تباع للسوقة بعد ذلك » . وكذلك اتهم قاضي حلب ، باحتكار القمح مع بعض أعوانه من أهاليها المتنفذين .

وهناك نصوص بيّنة تؤكد وجود الربا ، على الرغم من تحريم الدين الاسلامي له ، واضطرار الفلاحين بالذات، للاستدانة من العاملين به كما أسلفنا القول ، وهؤلاء المرابون كانوا من أصحاب السلطة والنفوذ .

ومن الأمور ذات الصلة الاقتصادية ، بعض لمحات عابرة عن اجراءات كانت تتخذها الدولة لمداواة القحط

والمجاعة في إقليم على حساب اقليم آخر ، كسعيها مثلاً لاستيراد الحبوب من مصر عندما كان يقع القحط في بلاد الشام ؛ ناهيك عن لقطات هنا وهناك عن بعض المساعدات المالية التي كانت تقدمها فئة الحكام ، أو الاثرياء من أهل البلاد ، للفقراء ، وماتقدمه السلطنة ، والبلاد الاسلامية من منح ، وأوقاف للحجاز مثلاً ، وبصفة خاصة ماكان يسمى « بالصرّ » وهو وقف ، يوضح «المحبي» بالأرقام جزئياته .

وجمل القول ، إن كتاب « خلاصة الأثر » سفرٌ تاريخي ثمين من تراثنا العربي ، يمثل فكراً عربياً اسلامياً ، عميق النظرة ، وشامل الرؤية ، قوي التحليل دقيقه ، ومتين التركيب ، مستقصياً للحقيقة ومتحرياً لها ، ومثبتاً أن الفكر العربي مافتىء متحركاً ، ومبدعاً ، ومعطاءً حتى في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي المتهم خطأً وتجنياً بالجمود أو بالانحطاط .

* * *

المختارات من كتاب « خلاصة الأثر »

١ ــ مقدمة الكتاب (الجزء الأول ص ٢ ــ ٥) .

٢ ــ مجموعة من تراجم فئتي « الملوك والسلاطين، والأمراء » .

٣ ــ مجموعة من تراجم رجال الدين والإدارة .

آ — مسرد التراجم المختارة من فئة « الملوك والسلاطين والأمراء »

الاسم	العمل	تاريخ الوفاة أو الخلع		موضع ترجمته في كتاب خلاصة الأثر		
١ — السلطان ابراهيم بن أحمد	السلطان العثماني	خلع	١٠٥٨ هـ	الجزء	الأول	١٣
٢ — ابراهيم باشا	الدفتري بالشام	قتل	١٠٤٣ هـ	»	»	٢٩
٣ — الشريف أبو طالب	شريف مكة	توفي	١٠١٢ هـ	»	»	١٣١
٤ — الأمير أحمد بن رضوان	أمير غزة	توفي	١٠١٥ هـ	»	»	١٨٧
٥ — الأمير أحمد بن طرباي	أمير اللجون	»	١٠٥٧ هـ	»	»	٢٢١
٦ — مولاي أحمد بن عبدالله الحسني	ملك مراكش وفاس	»	١٠١٢ هـ	»	»	٢٢٢
٧ — السلطان أحمد بن محمد	السلطان العثماني	»	١٠٢٦ هـ	»	»	٢٨٤
٨ — أحمد باشا الكوبري	وزير وصدر أعظم	»	١٠٨٧ هـ	»	»	٣٥٣
٩ — أحمد باشا الكوجك	وزير ووال لدمشق	»	١٠٤٦ هـ	»	»	٣٥٨
١٠ — السيد حسن بن الامام القاسم	من أئمة اليمن الزيديين	»	١٠٤٨ هـ	»	الثاني	٣٩
١١ — الأمير حسن ابن الأعوج	أمير حماة	»	١٠١٩ هـ	»	»	٤٥
١٢ — حسين باشا ابن جانبولاذ	أمير كلس وحلب	قتل	١٠١٤ هـ	»	»	٨٤

تتمة المسرد :

١٣ – حسين باشا (صاري حسين)	والي دمشق	توفي	١٠٩٤ هـ	»	»	١٢٤
١٤ – خليل باشــا	أمير الحج الشامي	»	١٠٩٢ هـ	»	»	١٣٣
١٥ – الأمير رضوان بن عبدالله	أمــير الحج المصري	»	١٠٦٦ هـ	»	»	١٦٤
١٦ – سنان باشا	الصدر الأعظم	»	١٠٠٤ هـ	»	»	٢١٤
١٧ – الأمير شديد بن أحمد	حاكم العرب البدو من آل جبار	قــتل	١٠١٨ هـ	»	»	٢٢٢
١٨ – الشاه عباس بن محمد	شاه أيران	توفي	١٠٣٨ هـ	»	»	٢٦٧
١٩ – الأمير علي بن جانبولا ذ	أمير لواء الأكراد بحلب	قــتل	١٠٢٠ هـ	»	الثالث	١٣٥
٢٠ – علي باشا كوزلجة	والي تونس وحاكم البحر	توفي	١٠٣٠ هـ	»	»	١٤٠
٢١ – السلطان عمر بن بدر	سلطان حضرموت	»	١٠٤٥ هـ	»	»	٢٠٩
٢٢ – الملك عنبر شنبو	وزير الهند	»	١٠٣٥ هـ	»	»	٢٣٠
٢٣ – الأمير فخر الدين بن معن	أمير الشوف	قــتل	١٠٤٣ هـ	»	»	٢٦٦
٢٤ – الا مام القاسم المنصور	إمام اليمن	توفي	١٠١٦ هـ	»	»	٢٩٣
٢٥ – كــيوان	كبير جند الشام	قــتل	١٠٣٣ هـ	»	»	٢٩٩

تتمة المسرد :

٢٦	– محمد باشا	والي حلب ودمشق	توفي	١٠٣٣ هـ	»	الرابع	٢٩٤
٢٧	– محمد باشا الكوبري	الوزير الأعظم	»	١٠٧٢ هـ	»	»	٣٠٩
٢٨	– السلطان محمود	ملك الهند	»	١٠٦٧ هـ	»	»	٣١٦
٢٩	– الأمير منصور بن فريخ	أمير البقاع	»	١٠٠٢ هـ	»	»	٤٢٦
٣٠	– الأمير منصور بن الشهاب	أمير وادي التيم	»	١٠٧٣ هـ	»	»	٤٢٩
٣١	– الأمير موسى بن علي حرفوش	أمير بعلبك	»	١٠١٦ هـ	»	»	٤٣٢
٣٢	– نصوح باشا	والي حلب	قتل	١٠٢٣ هـ	»	»	٤٤٨
٣٣	– الأمير يوسف بن سيفا	أمير طرابلس الشام	توفي	١٠٣٠ هـ	»	»	٥٠٣

النصوص المختارة

مقدمة خلاصة الاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

يامن أحصى بلطفه الخلائق عدداً . وجعلهم بمشيئته طرائق قددا . كلٌ يعمل على شاكلته . في عاجلته لآجلته . صل على صفوتك من أنبيائك . الواقف على سرّ حقيقة أنبيائك . سيدنا محمد خاتم رسالة الرسالة . المنتخب من أكرم عنصر وأطيب سلالة . وعلى آله الجامعين لمكارم الاخلاق . وصحبه الحائزين من الفضل مرتبة الاستحقاق . ماتزينت الطروس بسطور مدائح ذوي المفاخر . وتعطرت حدائق الاوراق بنشر أزاهر المآثر .

وبعد . فاني من منذ عرفت اليمين من الشمال . وميزت بين الرشد والضلال . لم أزل ولوعاً بمطالعة كتب الاخبار ، مغرى بالبحث عن

أحوال الكُمّل الاخيار . وكنت شديد الحرص على خبر أسمعه.أو على شعر تفرّق شمله فأجمعه . خصوصاً لمتأخري أهل الزمن . المالكين لأزمة الفصاحة واللسن.من كل ملك تتلى سورة فخره بفم كل زمان . وأمير لم تبرح صورة ذكره تجلى على ناظر كل مكان . وإمام لم تنجب أم الليالي بمثاله . وأديب تهتز معاطف البلاغة عند سماع فضله وكماله . حتى اجتمع عندي ماطاب وراق . وزين بمحاسن لطائفه الاقلام والاوراق . فاقتصرت منه على أخبار أهل المائة التي أنا فيها . وطرحت مايخالفها من أخبار من تقدمها وينافيها . حرصاً على جمع ما لم يجمع . وتقييد شيء ماقيل إلا ليسمع . ووقع اختياري على اضافة كل أثر إلى ترجمة من أسند اليه . حسبما يعوّل من له مساس في باب التاريخ عليه . فصار تاريخ رجال وأيّ رجال . يضيق عند سرد مآثرهم من الدفاتر المجال . وقد وجد عندي مما أحتاج إليه من المعونة ، والآثار المتعلقة بهذه المؤنة . ذيل النجم الغزي وطبقات الصوفية للمناوي وتاريخ الحسن البوريني وذيله لوالدي المرحوم وخبايا الزوايا والريحانة للخفاجي وذكرى حبيب للبديعي ومنتزه العيون والالباب لعبد البرّ

الفيومي هذا ماعدا المجاميع والتلقيات من الافواه والمكاتبات وكان بقي عليّ بعض أخبار اليمن والبحرين والحجاز . وقد تعسر عليّ في طريق تطلب حقيقتها المجاز . فلما منّ الله عليّ وله المنة . والمنحة التي لايشوبها كدر المحنة . بالمجاورة في بيته المعظم . والالتقاط من بحار أهليه الدر المنظم . تلقيت من الافواه تراجم لاناس يسيرة . كانت في التحصيل عليّ عسيرة . وهم ، وان كانوا قليلين في العدد ، فانهم كثيرون بسبب انهم ذريعة للمدد في كل المدد . وقد يقال إن أعداد الكبار الشم الأنوف ربما عدلت عشراتها بالمئتين ومئوها بالالوف . ثم وقفت في أثناء السنة على ذيل الجمالي محمد الشبلي المكي الذي ذيّل به على (النور السافر في أخبار القرن العاشر) .للشيخ عبد القادر ابن الشيخ العيدروس و (المشرع الروي في في أخبار آل باعلوي) . له أيضاً وعلى تراجم منقولة من تاريخ ألفه الصفي بن أبي الرجال اليمني في أهل اليمن فأجلت فكري في مجالها . وألحقتها بحسب ترتيبها في محالها.

وكان وصلني خبر الكتاب الذي أنشأه السيد علي بن معصوم ذيلاً على الريحانة . ووسمه بسلافة العصر في شعراء

أهل العصر . فلم أزل حتى حصّلته . وقطعت به أمر الطلب ووصلته . وأتحفني بعض الافاضل بذيل الشقائق الذي ألفه ابن نوعي بالتركية . وضمنه معظم أهل الدولة العثمانية . ووصلني بعض الاخوان بقطعة من تاريخ أنشأه الشيخ مدين القوصوني المصري ذكر فيه تراجم كبراء العلماء من أهل القاهرة . وزين طروس سطوره بمآثرهم الباهرة . فكانتا عندي فاكهتين باكورتين . وتحفتين بلسان البراعة مشكورتين . فجمعت الجميع على نية الترتيب . مستعيناً في خصوصه بالفياض المجيب . وأضفت إلى تلك الاخبار المواليد والوفيات . حسبما حررته من التعاليق التي هي بهذا الغرض وافيات . وما أقدمني على هذا الشأن إلا تخلف أبناء الزمان . عن احراز خصل الفضل في هذا الميدان . شعر :

لعَمْرُ أبيكَ مانسب المعلى
إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت
وصوّحَ نبتَها رعيُ الهشيم

فأنا ذلك الهشيم . الذي سدّ مسدّ الكريم . كيف وقد نجم نجم الجهل . وصوّح نبت بيت الفضل . وصدئت القلوب . وضعف الطالب والمطلوب . وربما يظن أن ماتخالج في صدري وهجس . لرعونة أوجبها الفراغ والهوس . كلا بل ذلك لأمر يستحسنه اللبيب . ويحسن موقعه لدى كل أريب . لمافيه من بقاء ذكر أناس شنفت مآثرهم الأسماع . وجمع أشتات فضائل حكم الدهر عليها بالضياع . وليس غرضي إلا أداء حقهم المفترض . وأبرأ إلى الله من تهمة الغرض . وإني وإن قصرت فما قصرت . وان طوّلت فما تطوّلت . وغاية البليغ في هذا المضمار الخطير . أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير . فان المرء ولو بلغ جهده . فالاحاطة في هذا الشأن لله وحده . وقصدي أن أسمه (**بخلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر**) . وإلى الله أتضرع في سدّ خللي . وستر زللي . ودفن عيبي . ورتق فتق جيبي . انه الجواد الكريم . ومنه الهداية إلى الصراط المستقيم . واعلم أن مصطلحي في هذا الكتاب أني رتبته على حروف المعجم، ليسهل لمطالعه ماغم عليه واستعجم. وأقدّم أوّلاً الاسم الذي أوّله همزة

ممدودة ثم ماكان أوّله ألف، وأقدّم من ذلك ماشاركه أبوه في اسمه ، فاذا تعدّد ذلك قدّمت الاسبق وفاة ثم أرجع فأذكر من بعد حرف الهمزة الحروف المعجمة من أوّلها إلى آخرها، وأذكر في كل حرف مافيه من الاسماء مقدماً ماكان فيه ثاني الاسم من الحروف المقدّمة، وهكذا أفعل في أسماء الآباء. فاذا انتهى من وصلني اسم أبيه ذكرت من لم أعرف اسم أبيه مراعياً سبق الوفاة. وأكتفي بذكر الكنية أو اللقب إذا اشتهر صاحب الترجمة بأحدهما ولم يرو له اسم، وأذكر ذلك في ضمن الاسماء وأبتدىء منها بالاسم، ثم باللقب، ان اتفق ثم بالكنية وأذكر بعد ذلك النسبة إلى البلد، ثم الاصل ثم المذهب غالباً، ولاأورد من أحوال الرجل إلا ماتلقيته من هذه التواريخ، أوسمعته من ثقة أو ضبطته عن عيان ومشاهدة، ولاأثبت من الكرامات إلا ماتحققته. ولا أعتقد أني وفيت بالمقصود . ولو أوتيت علم ذلك النجم المرصود . بل كل ماآمل من هذا المراد نيل سعادة ثواب في المبدأ والمعاد . فقد ذكر الحافظ عبد العزيز ابن عمر بن فهد المكي الهاشمي في تذكرته التي سماها (نزهة الابصار لما تألف من الافكار). مانصه مما نقله

الوالد من مجاميع الميورقي: «سمعت ممن أثق بدينه وعلمه يقول: إن الاشتغال بنشر اخبار فضلاء العصر ولو بتواريخهم، من علامات سعادة الدنيا والآخرة، اذ هم شهود الله تعالى في أرضه». وهذا أوان الشروع فيما أردته . والله مسدّدي فيما أوردته .

* * *

[تراجم أعلام السياسة والادارة]

(**السلطان ابراهيم**) بن أحمد ، بن محمد ، بن مراد ، ابن سليم ، بن سليمان ، بن سليم ، بن بايزيد ، بن محمد ، ابن مراد ، بن محمد ، بن يلدرم بايزيد ، بن مراد ، بن أورخان ، بن عثمان ، بن أرطغرل ، ابن سليمان شاه ، السلطان الأعظم ، أحد ملوك آل عثمان ، المطوّق بعقد مفاخرهم جيد الزمان . قد تقرّر أن أصل بيتهم من الترّكمان النزالة الرحالة من طائفة التاتار . وينتهي نسبهم إلى يافث ابن نوح ، وهو الجدّ السادس والأربعون للسلطان إبراهيم . ولما كانت أسماؤهم أعجمية ، أضربت عن ذكرها لطولها واستعجامها ، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف إن لم يضبط شيء منها ، ولا حاجة إلى الإحاطة فيها بلا فائدة ، فانها مذكورة في التواريخ الترّكية . وأما ذكر مبدأ ظهورهم فهو شائع مشهور ، وقد تكفل به غير واحد من

المؤرخين ، فلا نطيل بذكره . ونرجع إلى ماهو الغرض من ترجمة السلطان إبراهيم ، فنقول: تولى السلطنة بعد موت أخيه السلطان مراد ، في تاسع شوّال سنة تسع وأربعين وألف . وقيل في تاريخه على لسانه (استعنت بالله) (١) .

---

(١) لقد استخدم « حساب الجمل » في التأريخ في العهد العثماني . وهذا يعني أنه في تأريخ سلطان أووال أو غيرهما ، أو في تأريخ ميلاد أو وفاة ، أو تأريخ انشاء أو تعمير ، كانت تركب جملة قصيرة مفيدة ، أو ينظم بيت شعر ، يكون مجموع حروفها ، أو مجموع حروفه ، أو حروف شطر منه ، إذا ماحلل إلى أعداد هي التاريخ المطلوب : وهذا يستند بالطبع إلى أن كل حرف في العربية يقابله عدد . ونسوق أدناه الأبجدية وما يقابلها من الحروف :

(أ = ١) ، (ب = ٢) ، (جـ = ٣) (د = ٤) ، هـ (= ٥) ،
(و = ٦) ، (ز = ٧) ، (ح=٨) ، (ط = ٩) ، (ي = ١٠) ،
(ك = ٢٠) ، (ل = ٣٠) ، (م = ٤٠) ، (ن = ٥٠) (س=٦٠) ،
(ع = ٧٠) ، (ف = ٨٠) ، (ص ٩٠) ، (ق = ١٠٠) ،
(ر = ٢٠٠) ، (ش = ٣٠٠) ، (ت = ٤٠٠) ، (ث = ٥٠٠) ،
(خ = ٦٠٠) ، (ذ = ٧٠٠) ، (ض = ٨٠٠) ، (ظ = ٩٠٠) ،
(غ = ١٠٠٠) .

استعنت = ١ + ٦٠ + ٤٠٠ + ٧٠ + ٥٠ + ٤٠٠ = ٩٨١

بالله = ٢ + ١ + ٣٠ + ٣٠ + ٥ = + ٦٨

١٠٤٩

وكان ملكاً معظماً ، حسن المنظر ، سمح الكف ، وكان زمانه أنضر الأزمان ، وعصره أحسن العصور . وأطاعته جميع الممالك ، وسكنت بيمن دولته الفتن ، واعتدل به الزمن ، وفيه يقول الأمير « منجك بن محمد المنجكي الدمشقي » قصيدته التي مدحه بها وهي من غرر القصائد ، ومطلعها :

لو كنت أطمع بالمنام توهماً
لسألت طيفك أن يزور تكرما

حاشا صدودك أن تذم فانها
تحلو لديّ وإن أسيغتْ علقما

فاهجر فهجرك لي التفات مودّة
ألقاه منكَ تحنناً وترحُّما

عذِّبْ فؤادي بالذي تختاره
لو كنت منسياً تركت وانما

لو لم تكن بغبار طرفك أكحلت
عين الغزالة صدّها وجهُ الدما

ومن جملتها وهو محل الشاهد :

ملكٌ من الايمان جرّد صارما
بالحق حتى الكفر أصبح مسلما

لوشاهدا لمطرود سطوة بأسه
في صاب آدم للسجود تقدّما

العدل أخرس كان قبل زمانه
أذنت له الايام أن يتكلما

لم تخطُ آساد الفلا في عهده
بين الشقائق خيفة أن تتهما

عقد المثار على العداة سحائبا
لولاالحيا لسقى العدا منها دما

ودعت نلباه الطير حتى انه
قد كاد يسقط فرخه نسرُ السما

وكان صاحب طالع سعيد ، ماجهز جيشاً إلى ناحية إلا انتصر ، ولا قصد فتح بلدة إلا ظفر . ومن الفتوحات

التي وقعت في عهده : فتح قلعة ازاق (١) . وكان أهل دائرتها من الكفار ، أظهروا الشقاق ، فجهز اليهم جيشاً فافتتحوها في سنة اثنتين وخمسين وألف . ومنهافتح خانية احد البلاد المشهورة بجزيرة اقريطاش (بفتح الالف - وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون المثناة من من تحت وكسر الطاء المهملة وفي آخرها شين معجمة) وتعرف الآن بجزيرة كريت ، وكانت لملوك الفرنج المعروفين بالبندقية . وهذه الجزيرة من أعظم الجزائر وأكبرها ، تشمل على بلاد ورساتيق (٢) كثيرة . وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى ، أربعاً وعشرين ألف قرية . وأن دَوْرَها ثلاثمئة وخمسون ميلا. وذكر في كتاب الفرس ، أن دورها مسيرة خمسة عشر يوماً ، وهي ذات رياض نضرة ، وبها أنواع الفواكه والثمار ، وخيراتها وافرة . وبالجملة فانها من أحاسن الجزائر .

(١) المقصود مدينة (ازوف) شمالي البحر الأسود ، وقد تمكن « القوزاق » من الاستيلاء عليها من يد العثمانيين، ثم نجح العثمانيون في استردادها .

(٢) رساتيق : كلمة فارسية الأصل ، وهي (رسدق) وتعني مجموعة من البيوت .

وكان السلطان ابراهيم أرسل إليها عساكره بالسفن الكثيرة، وقدم عليهم حاكم البحر يوسف باشا الوزير ، فدخل الجزيرة وحاصر قلعة خانية وافتتحها ، وكان ذلك في عشري جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وألف . ثم بعدما قدم إلى القسطنطينية ، قتله السلطان ، لأمرٍ نقمه عليه . وأمّر مكانه الوزير الكبير حسين باشا المعروف بدالي حسين وجهز معه عدّة من وزرائه ، وأمرائه ، إلى فتح الجزيرة بتمامها ، فوصل إليها ، ونازل قلعة رتمو . واستعان عليها باللغم ، حتى أهلك خلقاً كثيراً من الفرنج ، بسبب ذلك . وفتحها واستولى على جميع قرى الجزيرة ، ولم يبق منها مما خرج عن ملك آل عثمان في تلك الجزيرة الا قلعة قندية ، وطال أمرها مدّة مديدة ، حتى فتحت في زمن سلطان زماننا السلطان محمد ، كما سنذكر تفصيل فتحها في ترجمة الوزير أحمد باشا الفاضل.وبالجملة فان السلطان ابراهيم المذكور كان ميمون النقيبة ، منصور الكتيبة ، وكانت ولادته في سنة أربع وعشرين وألف ، وخُلع عن الملك في نهار الخميس سادس عشر رجب سنة ثمان وخمسين وألف . وكانت مدّة سلطنته ثمان سنين ، وتسعة أشهر . وذكر سبب خلعه يحتاج إلى تفصيل ممل ، أعرضنا

عنه لشهرته . ومحصله ، أنه كان ارتكب بعض امور تتعلق بهوى النفس ، وأطال في تعاطيها ، حتى ملته اركان دولته ، ثم اجتمعوا وخلعوه من السلطنة ، وسلطنوا مكانه ولده السلطان محمد . وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه ، ودفن في مدفن عمه الصالح السلطان مصطفى ، إلى جانبه بجامع ايا صوفيا . ومما اتفق له ، ولم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم ، انه رأى سلطنة أبيه ، وعمه ، وأخويه ، وولده . ووجدت في بعض المجاميع القديمة فائدة غريبة يناسب ايرادها هنا ، محصلها ، انه استقرى من وُلـِّي السلطنة ، وكان اسمه ابراهيم ، فوجدوا لم يتم لاحدهم أمرها إلاقتل. وقال الراغب ، في محاضراته : قال أبو علي النطاح ، كان المهدي يحب ابنه ابراهيم ، فقالت له شكلة أم ابراهيم : ألا تراه يلي الخلافة، فقال: لا ولا يليها من اسمه ابراهيم . ان ابراهيم الخليل أوّل نبي عذب بالنار ، وان ابراهيم ابن النبي عليه السلام لم يعش ، وبويع ابراهيم بن المهدي فلم يتم له الامر ، وأحكم ابراهيم الامام أمر الملك فقتل وتم لغيره ، وطلب الخلافة ابراهيم بن عبد الله بن الحسين، فما تمت له على جلالته ، وكثرة جيشه . وقد بايع المتوكل لابنه ابراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل . وما ذكرن

اللغم هو شيء غريب ، ينبغي التعرّض للكلام عليه ، فانه مستحدث ، وهو في الاصل من عمل الفرنج ، اصطنعوه في محاصرة بعض الحصون في أوائل القرن التاسع ، على عهد السلطان سليم الاكبر (١) ، واشتهر عند ملوك الروم حتى فاقوافيه على الفرنج . وكيفية عمله على ماتلقيته من الافواه ، ثم وجدته في بعض المجاميع بخط بعض الادباء ، انه إذا حوصرت قلعة أو حصن وتعسر تملكه لصعوبته ، يسوقون أمامه تلاً عظيماً من التراب ، ثم يحفرون من تحت ذلك التراب سرداباً عظيماً إلى أن يصلوا إلى الاساس ، ثم يجوّفون قعر الأساس مقدار مايريدون ، بحيث إنهم لم يخرجوا من تحت الجدار أبداً ، فان خرجوا بطل جميع العمل . وينقلون التراب من السرداب إلى خارج خفية ، ليخلو ماتحته ثم يملؤونه بالنفط والبارود ، طولاً وعرضاً ، ويضعون فتيلة ثخينة من القطن مقدار شبرين ، فيحرقون أطرافها بالنار في الخارج ، ويضعون

(١) ان السلطان سليم الاكبر هو السلطان سليم الذي ضم بلاد الشام ومصر الى الدولة العثمانية . وقد ظهر خلال الربع الاول من القرن العاشر ، لا القرن التاسع كما جاء في النص .

فتيلة أخرى على قدرها . ثم يأخذون بالساعة مقدار زمان احتراقها ، ليعلموا في أي وقت تصل نار الفتيلة إلى البارود تحت الارض . ثم ان العسكر يأخذون الاهبة للهجوم ، ويسدّون اللغم سداً محكماً خوفاً من رجوع البارود إلى خلف . وعند احتراق البارود ينقلب مافوقه من جدار أو سور أو غير ذلك ، فيهجم العسكر دفعة واحدة ويملكون القلعة بهذه الحيلة . وهذا ماانتهى إليّ من خبره على هذا التفصيل والله أعلم .

* * *

(**ابراهيم باشا**) بن عبد المنان المعروف بالدفتردار(١) نزيل دمشق وأحد كبرائها ، صاحب شأن رفيع . كان وقوراً متواضعاً ، ساكناً ، كثير العبادة ، ملازماً على أداء الصلوات في أوقاتها مع الجماعة في الجامع الاموي ، ويحضر مجالس الاوراد والاذكار ، ويحب العلماء والصلحاء ، ويذاكر في العلوم ، وجمع كتباً ، وكان له اطلاع على كثير من الاحاديث النبوية . وروى الحديث والتفسير

(١) الدفتردار : هو الذي يعنى بسجلات الواردات والمصروفات المالية في الدولة العثمانية .

والمسلسل بالاوّلية (١) ، عن الشيخ الامام فتح الله بن محمود البيلوني الحلبي. وقفت على اجازته له بخطه، وتاريخ الاجازة في السادس من رجب سنة تسع وثلاثين وألف بالقدس ، والبيلوني المذكور يومئذ مفتي الشافعية بها . وذكره والدي رحمه الله تعالى في تاريخه وقال في ترجمته هو برسوي(٢) المولد، قدم إلى دمشق أوّلاً في حدود سنة اثنتي عشرة بعد الالف وحج ثم عاد اليها ثانياً في سنة احدى وعشرين كتخدا الدفتر (٣) بالشام ، وهذه الخدمة تتعلق بأرباب الزعامات والتيمار ، ثم عزل ، ثم وردها ثالثاً دفترياً بها، في سنة خمس وعشرين ، وتوطنها وانعقدت عليه رياستها، وصار أمير الركب الشامي (٤) في سنة احدى وأربعين ،

---

(١) نوع من الحديث النبوي لاسناده طريقة خاصة . كأن يرويه مثلا مكي عن آخر من أوله إلى آخره . وكل راو يقول عمن قبله : « هو أول حديث سمعته عنه » .

(٢) من مدينة « بروصة » أو « بورصة » ، وتقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى .

(٣) كتخدا الدفتر : معاون (الدفترأميني) ، وهو المشرف على شؤون الاقطاعات . وكان عمله الاشراف على اقطاع (الزعامة) فحسب، إلا أنه ضم إليه فيما بعد (التيمار) أيضاً .

(٤) قافلة الحج الشامي .

ثم عزل بعد ان حج بالركب في تلك السنة . وأقام دفترياً. وبنى في داره قصراً مطلاً على الجامع الأموي ، ولزم انه نقب جدار الجامع القبلي لاجل الباب ، فقال الاديب عمر بن الصغير في تاريخه (بنى نقب القبلة ابراهيم) . وهدم القصر المذكور عقب قتله . وبنى حماماً بالقرب من تربة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولصيق داره التي كان يسكنها ، ووقفه وجملة من املاكه ، على تدريس فقه وأجزاء رتبها في التربة المذكورة . فقال شيخ الادب أبو بكر العمري رحمه الله تعالى في تاريخه :

بنى وأوقف ابراهيم دام له
منجزاً لصلاح الدين حماما

وقلت : وهذامن التواريخ البديعة فانه بيّن فيه المراد من غير حشو . قال : ولما قدم الوزير أحمد باشا المعروف بالكوجك حاكماً بدمشق ، صدر بينه وبين صاحب الترجمة منافسة ، أدّت إلى أنه عرض فيه إلى الابواب السلطانية ، فجاءه الامر بالتفتيش عليه ، فجمع أعيان دمشق وأحضره ، وأمر مراد باشا ابن الشريطي الآتي ذكره

بمحاسبته ، وكان ابن الشريطي يبغض ابراهيم باشا ، فأطلع في ذمته أموالاً كثيرة بسبب غرضه ، وكتب بذلك حجة وحبسه في قلعة دمشق مدّة ، وقبض على جميع مايملكه فباعه ، ثم أمر بقتله سراً فغمي بالماء وقيل عصرت مذاكيره ، وقيل وضع على رأسه الوسادة حتى مات . وحكى بعض من شاهد قتله انه كان يقول في تلك الحالة : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وفي ثاني يوم قتلته أشيع انه مات فجأة ، وكتب بذلك حجة وكان قتله يوم الاحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وأربعين وألف ودفن بتربة صلاح الدين بوصية منه رحمه الله تعالى .

* * *

(**الشريف أبوطالب**) بن حسن ، بن أبي نمي محمد ، ابن بركات ، بن محمد ، بن بركات ، بن حسن ، بن عجلان ، ابن رُميثة ، بن أبي نمي محمد ، بن أبي سعيد الحسن ، بن علي ، بن قتادة ، بن ادريس ، بن مطاعن ، بن عبد الكريم ، ابن عيسى ، بن حسين ، بن سليمان ، ابن علي ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن موسى ، بن عبد الله المحصن ، ابن الحسن المثنى ، ابن الحسن السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم . صاحب

مكة والحجاز . كان من أمره أنه لما كبر أبوه ، فوض أولاً نيابة الإمارة لابنه الشريف حسين ، فلم يطل أمره فيها فمات . فولاها شقيقه الشريف مسعود . وكان موصوفاً بالشجاعة والقوّة ، لكن لم يسلك فيها مسلكاً مرضياً ، وتوفي وهو شاب . فآلت إلى أبي طالب صاحب الترجمة . وكان ذا فكر صائب ، وشجاعة عظيمة ، وفضيلة باهرة ، وفاق سائر اخوته . وبعد ماحكم بالنيابة عن أبيه مدّة ، أمر أبوه أمراء الحجاز أن يلبسوه الخلعة الكبرى ، وألبسوا ولده عبد المطلب الخلعة الثانية ، فلبساهما . ثم جهز من اتباعه ، الامير بهرام ، بهدية سنية إلى الابواب السلطانية في هذا الخصوص ، والتمس من السلطان محمد خان بن السلطان مراد ، تقريراً بذلك ، فأجيب إلى ملتمسه ، ورجع بهرام بالتقارير . وصورة منشوره مذكورة في ريحانة الخفاجي ، وهو من انشائه ، لكنه مطوّل أعرضت عن كتابته لطوله ، ويعجبني منه محل ، وهو قوله في مخاطبة الشريف حسن : « وقد ورد من جنابه رسول تلقاه من سدّتنا نسيم القبول ، اذ جاب الفيافي من حَزْنها وسهلها ، وأدّى الامانات إلى أهلها ، وكان كالميل ،

سالك بين الجفون فأجاد ، ومتع العيون باثمد الصلاح والسداد ، ومعه منشور أرق من نسيم السحر ، معرب عن العين بالاثر ، فأخبر أن مرسله أراد الفراغ ، وما على الرسول إلا البلاغ ، وتضمن منشوره المذكور ، انه أراد الاستراحة من نصب المناصب ، والتقاعد عما بها من المراتب ، رغبة عن زخرف الحياة ، إلى خدمة سيده ومولاه ، وأن نجله النجيب ، الجليل الحسيب ، الناشىء في حجر الشرف الباهر ، المستخرج من أطيب العناصر ، ليث غابة ، بيض الصفاح ، وسمر العسالة الرماح ، عليه أمارة الامارة ، ومخايل النجابة والصدارة .

بلغ السيادة في ابتداء شبابه
إن الشباب مطية للسـودد

وسأل أن نقلده صارم امارة تلك الديار ، ومايتبعها من البلدان والاقطار ، على ماجرت به عادة سلفه الذي سلف ، وقانون من خلفه من الخلف . فأجبناه إلى مراده ، وأمددناه باسعافه وإسعاده . لانه انما نزع صارمه من يده إلى يده الأخرى ، وجعله من بعد يمن اليمنى في يسار اليسرى ،

فسارت الامارة من حرم إلى حرم ، ولم تخرج من جيران نجد وذي سَلَم . وخلعنا عليه حللاً تأنق ،واشيها ، ورقت حواشيها ، ونظرنا اليه بنظرنا ، الذي هو اكسير ، أن يحسن في العمل والتدبير ، وينظر إلى الرعايا بعين الرعاية ، ويصونهم عن أهل الضلالة والغواية ، ويؤمن تلك المناسك ، ويحرس تلك المسالك . ويختار من قومه من يحرسها من الاعدا ، ويحميها من كل قاصر في فعله تعدى . ويبطل مافيها من المكوس والمظالم ، ويقيم الحدود على مستحقيها من كل باغ وظالم ، ليخلد في صحائف تلك البلاد الحسنات ، ويمحو ما فيها من آثار السيئات. ويتصرّف في بندر جدّة ، على العهد القديم . ومن جاور ذلك المقام فليسعفه بالنعيم المقيم.﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نُذِقْهُ من عذاب أليم﴾ . ويحرس الوافدين إلى ذلك البلد الامين ، باقامة شعائر شرائع الدين، ويحمي بحمايته مَنْ ورد أو صدر ، ويحرس مواردهم الصافية من الكدر . ويلاحظ ماللخليل صلى الله عليه وسلم من صالح الدعوات، في قوله: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾. ثم ليعلم كل من كحل

بصره بإثمد منشورنا الكريم، وشنف مسامعه بلآلىء لفظه العظيم ، ممن في دارة تلك الديار ، وهالة تلك الاقطار ، وانتظم في سلك سكان القرى والامصار ، من السادات الكرام ، والقضاة ، والحكام ، وولاة الامور من الاعيان ، والوافدين على تلك الديار ، والسكان ، أن إمارة تلك المعاهد ومافيها من العساكر ، وما أحاطت به من الاصاغر ، والاكابر ، وسائر الوظائف ، والمناصب ، والجهات ، والمراتب ، مفوّضة إلى السيد السند أبي طالب ، ناظراً بعين الانصاف ، متجنباً سبيل الاعتساف ، ويصرف المستحقين بحسن التصريف ، ويصرف من لايستحق برأيه الشريف . أقمناه مقام نفسنا في ذلك المقام ، وفوضنا إليه النقض والابرام . والعلامة السلطانية حجة لما فيه مرقوم ، محققة لما فيه من منطوق ومفهوم . فليتحقق من وقف على هذا الخطاب ، ومن عنده علم الكتاب ، من أهل مكة ومن في جوارها ، وطَيْبَة الطيبة وسائر أقطارها ، وبقية الثغور الباسمة لدولتنا بمباسم السرور من حاضرها وباديها ، أنا أعطينا القوس باريها ، فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها . سدد الله سهام رأيه في أغراض الصواب ، وفتح

له بمفاتيح السمر كل مغلق من الابواب ، ماسقطت من كف الثريا الخواتم ، ورقت على منابر الاغصان خطباء الحمائم والسلام » .

واستمر أبو طالب تحت مراعاة والده إلى أن مات أبوه في سنة عشرة بعد الالف ، ولحقه أخوه عبد المطلب . فاستقل بالملك من غير شريك فيه ، وهنأه الله تعالى بما صار إليه ، وأصلح الله تعالى به أمور البلاد والعباد. وقام بأعباء الملك ، وأظهر السطوة ، وقهر الاكابر والاعيان على الانقياد لاوامره ، والانزجار لزواجره . فهابته النفوس، وأنصف في أحكامه ، وسار السيرة المرضية . وكان حسن الهيئة ، شديد الهيبة ، فاذا حضر الناس مجلسه سكتوا لمهابته . وكانت تخافه البوادي ، وأهل النوادي . وكان سخياً نديَّ الكف . ومما يحكى من كرمه ، أنه زار النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي أمر مكة . فلما أمسى نزل في واد هناك ، هو ومن معه ، فأضافه رجل من أهل الوادي يقال له السوداني ، فذبح الذبائح ، ومدّ الموائد ، وقدّمها. ثم بلغه أن الشريف أبا طالب لم يأكل من ذلك الطعام ، ولم يحضره لشغل عرض له ، فعمد السوداني إلى أربع أو خمس دجاجات فذبحهن ، وطبخهن وقدّمهن ، على كيلتين

من العيش ، في زبدية كبيرة من الصيني ، وجاء بها إليه ؛ وقال له : ياسيدي هذا عشاء عبدك ، اجبر خاطره جبر الله خاطرك . فغسل الشريف يده ، وأكل من تلك الزبدية لقيمات ، ودعا له . فلما استقل بالولاية وفد عليه السوداني بعد سنة ، فقال له الشريف: الزبدية التي تعشينا فيها عندك ، فقال : نعم ، فقال ائتني بها . فملأها له ذهباً . وله كثير من هذا القبيل . ولاهل عصره فيه مدائح كثيرة فمنها قول الامام عبد القادر الطبري مهنئاً في بعض غزواته :

بسُمْرِ القنا وبيض الصوارم
تنال العلى وتنال المكارم

وبالمرسَلات بلوغ المنى
وبالعاديات نوالُ الغنائم

ولو لم يحل ليل ذا العجاج
لما أشرقت شمس تلك المعالم

ولي سيّدٌ ماله في الوغى
شبيه سوى جدّه ذي العزائم

يجيل الحروب ويجلو الكروب
ويـنفي اللّغوبَ ويـُزري بحاتم

لقد أذكرتنا فتوحـاته
مغازي الأئمةِ من آل هاشـم

له النصرُ بالرعب من أشهر
ومن **شأنه** قسم مال الغنائم

إذا مابدا للعـدا جحفـل
ولم يكُ فيه فكلٌّ مقاوم

وان قيل فيه أبوطالـب
فمن ذا يلاقيه إلا مسـالـم

تراه يخوض بحور النحور
بجُرْدٍ تجاذبُ جذب الطرايم

هي البرق في السبق لولم تكن
لها غزوات بتلك الحماحم

يحقٌّ لها الزهوُ بابنِ النبـيّ
سليل الصفيّ عليٍّ المعالـم

من اتخذ الدرع تعويذة
وطول النجاد تمام التمائم
سناء النبوّة في وجهه
كفى شرفاً عن طراز العمائم
وأوصافه الغرّ بين الأنام
بها غنية عن طوال التراجم
فما حاول الخطب إلا وكان
له الفتح والنصر عبداً ا وخادم
فياسيّداً سُدت كلّ الملوك
من اُلخلّص العُرْبِ ثم الاعاجم
فهل ملكٌ أنت في الأرض أم
مليك فعدلك أنْسى المظالم

وبالجملة فهو من سراة الاشراف ومشاهير ولاة الحجاز. قال الشلّي: وكانت ولادته في سنة خمس وستين وتسعمائة. وتوفي ليلة الاثنين لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة بعد الالف ، بمحل يقال له العشة من جهة اليمن، وحُمل إلى مكة ودفن بالمعلاة وبُني عليه قبة كبيرة يزار بها .

* * *

(**الأمير أحمد**) بن رضوان ، بن مصطفى . الامير الكبير ، نائب غزة ، وأمير الحاج ، كان أبوه الامير رضوان . من كبار الامراء في زمن السلطان سليم بن مراد (١) . وأما جدّه مصطفى ، فانه كان في رتبة الوزراء في عهد السلطان سليمان ، وأرسل إلى فتح بلاد اليمن ، وكان يعرف في بلاد الشام بأبي شاهين ، قيل لكثرة حماله الشاهين الطائر المعروف على يده عند الصيد . ونشأ ولده الامير أحمد هذا ، في دولة باهرة ، وكان شجاعاً بطلاً ، وعقله في غاية الرزانة . وله مطالعة في كتب التاريخ وبعض الفنون ، وقصده الشعراء ومدحوه ، وخلدوا مدحه في مجاميعهم . فمنهم أبو المعالي الطالوي فانه مدحه بقصيدة ميمية ، عجيبة في بابها ، عند عوده من القاهرة ، ومروره بغزّة ، ومطلعها قوله :

ولما أَرَتّنا العيسُ غزّةَ هاشمٍ
عيانا أَنَخْناها بتلك المعالمِ
رواجعُ من مصر نوازعُ للحمى
حمى الشام تهدى بالبروق البواسمِ

---

(١) كذا الاصل ، وليس هناك سلطان عثماني اسمه « سليم بن مراد » والصواب : أنه « سليم بن سليمان » .

وقد ذكر فيها ماشتمل عليه الطريق من المراحل. فلأجل هذه الفائدة ذكرت منها محل ذلك بتمامه وذلك قوله :

أضاء لها البرق الشآمي مرة
فأثر في أخفافها والمناسم

الضميران للعيس المقدّم ذكرها وبعده قوله :

حننت وحنت اذ أضاء وانما
حنيني لوتدري لبرق المباسم

وأعدى حصاني قطعها البيد فانثني
يجوب الفلا جوب النياق الرواسم

فودّع ربع العادلية سائراً
ولم يُثْنِه عن سيره لوم لائم

ووافى ربوع الخانقاه عشية
ومرّ على بلبيس مرّ النسائم

وأصبح خطاراً بخطارة المنى
وجاز بها كالبرق لاح لشائم

وجاوز ورد الصالحية كالقطا
لقَطْيَة ليلى قبل ورد الحوائم

ترفع عن بِشْرِ الدوْيدارِ قدره
وخلفها مطروقة للسوائم
وأهوى لبئرِ العبدِ كالنجم غائراً
لأمٍّ الحَسا والليل وحف القوادم
وقابله رمل العريش فعاقه
عن السير إذ خانته احدى القوائم
وغيبه عن حسه هول صعقة
تخرّ لها كوم المطيِّ الروازمِ
فودّعته طرفاً أغر محجلا
كريم السجايا من عتاق كرائم
وقلت له هلا حملت على وجا
فتى سيره للشام ضربة لازم
فقال مقالاً كنت أجهل قدره
وعيناه فاضت بالدموع السواجم
أتشكو الجوى اذجئت غزة هاشم
وفيها أمير أريحي المكارم
سميٌّ نبي الله أحمد من غدا
حديث نداه ناسخاً ذكر حاتم

كثير رماد القِدْرِ دانٍ نواله
طويل نجاد السيف ماضي العزائم
سليل الملوك الصيد من خضعت له
قبائل من تَيْمٍ وقَيْسٍ ودارم
وذو النسب الوضاح والجوهر الذي
أقام فرنداً في متون الصوارم
أمير تردّى المجد درعاً وشاحه
طوال العوالي في طوال المهاذم
وقد ألف البيض الصوارم والقنا
وقتل العدا من قبل عقد التمائم
أخو الحرب يغشى الليث والليث مشبل
وتخشاه في الهيجاء أسد الضراغم
ترى بابه للوافدين محطة
فمن راحل مثن وآخر قادم
وردت حماه مستفيضاً نواله
فرحلني عنه بأسنى الغنائم
فلازالت الاقدار تخدم سعده
بغزة في عز مدى الدهر دائم

وكان يحب مذاكرة العلوم . ويسأل العلماء عن الأحكام ، ويعظمهم ويكرمهم . ويصل علماء بلده وغيرهم ، وانتشأ في أيام حكومته بغزة علماء وفضلاء سيأتي ذكرهم . ورزق من السعادة حظاً عظيماً واستولى على مملكة غزة مايقرب من ثلاثين سنة من غير عزل يقتضي رحيله عنها . وسكنها وتولى إمارة الحاج الشامي سنين عديدة ، بعد الامير قانصوه أمير عجلون وما والاها من بلاد الكرك . وكان يحضر إلى دمشق في بعض الاعوام ، وعمّر بها بالقرب من باب البريد بيتاً محكم البناء حسن الوضع وأنفق عليه مالاً كثيراً ، وكان له أولاد كلهم من بنت المرحوم درويش باشا صاحب الجامع المعروف بالدرويشية خارج دمشق ، وخالهم لأمّهم حسن باشا ، الوزير ابن الوزير . وتفرغ في آخر عمره لبعض أولاده عن امارة غزة ، وأرسل إلى طرف السلطنة قاصداً بتحف وهدايا كثيرة ، وطلب أن يصير أمير الامراء ببعض المدن الكبيرة ، على طريق التقاعد المعروف الآن في الاصطلاح ، فأجيب إلى ماطلبه . وكان ذلك في سنة تسع بعد الالف وأقام إلى أن

مات . وكانت وفاته في سنة خمس عشرة بعد الالف . رحمه الله تعالى .

* * *

(**الامير احمد**) بن طرباي ، بن علي الحارثي ، أمير اللجون ، من قبيلة حارثة ، ينتهي نسبهم إلى سنبس ، بكسر السين وسكون النون وكسر الباء الموحدة وبعدها سين مهملة ، من طي . وهؤلاء القوم لهم قدم في الامارة ، مازالوا في جينين ، وما والاها من البلاد ، لهم العزة والحرمة . وأحمد هذا نبغ من بيتهم ، وحيداً في المفاخر والشجاعة ، وكان له الرأي الصائب والطالع المسعود والعهد الوفي . ولي في مبدأ أمره حكومة صفد ، ثم تولى حكومة اللجون ، بعد موت أبيه طرباي في سنة عشر بعد الالف . ووقع بينه وبين فخر الدين بن معن حروب كثيرة . وكان ابن معن توجه إلى بلادهم ثلاث مرات للمحاربة . ورحل بن طرباي إلى الرملة . وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ، ويدحضه . وأشهر وقعاته معه وقعة يافا . وكان هو ، وحسن باشا حاكم غزة ، والامير محمد بن فروخ أمير نابلس ، فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة . وغنم غنيمة وافرة جداً . ومما شاع له في صدق العهد ، ماوقع

له مع ابن جانبولاذ مع ابن سيفا : وكان ابن سيفا هرب إلى محل حكومة ابن طرباي ، فأكرمه وأظهر له مايليق بأمثاله ، وكان ابن سيفا خرج اليه ومعهسبعةرجال من جماعته. وكان معه من الاموال والذخائر ما لا يدخل تحت الاحصاء . فأرسل ابن جانبولاذ إلى ابن طرباي برسالة ، وذكر له أنه يجتهد في قتل ابن سيفا ، وله جميع مامعه من المال ، وان لم يفعل جوزي بالعقاب الشديد . فكان جوابه إن هذه كلمة لاتقال ، ومن وقع في مثل هذا فعثرته لاتقال . ثم بادر إلى اكرام ابن سيفا أزيد مما كان عليه ، وأهداه خيولاً وغير ذلك ، وكان من خطابه له ، لوكان لي مال لقدمته اليك،ولكن عندي خيول ، وفيها جواد لم يَعْلُ ظهره أحد بعد أبي ، فهولك مني هدية. وأقام ابن سيفا عنده أياماً ، إلى أن راسل عسكر الشام بأن يقدموا عليه حتى يأتي معهم إلى دمشق.ولما وردوا تجهزمعهم، وأتى من طريق حوران إلى دمشق . وتمام قصته نذكرها ان شاء الله تعالى في ترجمته في حرف الياء.(١)وكانت وفاةالامير أحمد سنة سبع وخمسين وألف ، وقد قارب الثمانين . وقد ولي الحكومة بعده ابنه زين ، وكان شجاعاً عاقلاً

---

(١) أي في ترجمة « يوسف بن سيفا » .

حليماً ، ثم ولي بعده أخوه محمد ، وكان جواداً سمح الكف ممدحاً ، توفي ليلة السبت سابع عشري جمادى الثانية سنة اثنتين وثمانين وألف ودفن بجينين . وقام من بعده ابن اخيه زين المذكور ، وصالح ، ثم يوسف بن علي ، ابن عمتهم إلى سنة ثمان وثمانين وألف ، فخرجت الحكومة عنهم ووليها أحمد باشا الترزي ، وتصرفت فيها السلطنة إلى يومنا هذا . واللجون موضعان : الأول مدينة بالاردن قديمة وهي قرية يسكنها بعض أناس قلائل حكي ان ابراهيم الخليل عليه السلام سكن هذه المدينة ، ومعه غنم له . وكانت المدينة قليلة الماء فسألوه أن يرتحل عنهم لقلة الماء ، فضرب بعصاه على صخرة هنالك فخرج منها ماء كثير ، حتى عم أهل البلد ببركته ، والصخرة باقية إلى وقتنا هذا . والثاني منزل في طريق المدينة قرب البلقا والله أعلم .

* * *

(**مولاي أحمد**) بن عبدالله ، بن محمد الشيخ ، أبو العباس المنصور ، بن الخليفة المهدي ، ابن أبي عبد الله القائم بأمر الله ، الشريف الحسني ، ملك مراكش وفاس ، السلطان ، العالم ، الاديب . كان من أمر جده الشيخ . انه كان في بداية أمره من أهل العلم ، وكان مجتهداً في

تحصيل الكمالات . فاطلع على شيء من الجفر (١) ورأى ان طالعه يوافق الملك ، فصار قاضياً في نواحي السوس من ديار الغرب ، ثم وثب على بني حفص المنتسبين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلم يزل يقاتلهم حتى ملك ديارهم ، وعفا من السلطنة آثارهم . وقتل كثيراً من العلماء ، ومن جملة من قتل الشيخ الزقاق . وكان يقول من قتل سوسياً كان كمن قتل مجوسياً . فلما مسكه قال له أنت زق الضلال . فقال له ، لاوالله ، بل أنا زِقّ العلم والهداية ، فجعل عليه هذا الكلام حجة وبه قتله . واستمر يؤسس قواعد ملكه إلى أن مات في سنة أربع وستين وتسعمائة. وقام بالامر بعده ولده عبدالله ، وتوفي . فتولى الملك بعده ولد محمد ، أخو مولاي أحمد صاحب الترجمة ، وكان أكبر اخوته . ولما جلس على سرير السلطنة أظهر مولاي أحمد المنصور انه غير طالب للملك ، وانه لاينفق رأس مال عمره في غير ما للعلم من كنوز ومطالب . فلما مات أخوه ، قام ولده في محله ، واستولى عليه الغرور وأشار عليه

(١) علم الجفر : علم يدعي أصحابه أنهم يعرفون به المستقبل إلى انقراض العالم .

بعض خدمته بقتل من بقي من أعمامه . فلما علم بذلك مولاي أحمد ، وجف بجيش من الروم ، ومعه أخوه ، وجيش من عنده ، وقاتله فتمت على ابن أخيه الهزيمة . وذهب إلى ملك الفرنج فأمده ، ورجع إلى الحرب ثانياً فتقاتلا . ولما تمت عليه الكسرة ثانياً ، أسرع إلى البحر وأغرق نفسه . فتبرجت لمولاي أحمد عروس تلك الممالك ، وثبتت قواعده ، وارتدت معاهده . وكان موادعاً لسلاطين آل عثمان ، فيرسل اليهم بالهدايا في كل سنة ، وكانوا هم يرسلون اليه المكاتيب ، والخلع السنية ، حتى ان السلطان مراد بن سليم خان كتب اليه في اثناء مكاتيبه : لك علي العهد أن لاأمد يدي اليك إلا للمصافحة ، وان خاطري لاينوي لك إلا الخير والمسامحة. ورسله دائماً تأتي إلى قسطنطينية من جانب البحر ، ويمكثون زماناً طويلاً ، ويتعهدون الوزراء ، ويكاتبون من له قرب إلى الدولة . ولم يحصل لأحد من أولاد محمد الشيخ ماحصل لهذا المنصور ، فانه قد طالت في الملك مدته ، واتسعت مملكته ، وقويت شوكته . وكان ابتداء ملكه من حدود افريقية ، إلى حافة البحر المحيط ، وملك حصة من بلاد السودان .

وكان ابتداء تملكه في آخر سنة خمس وثمانين وتسعمائة ، واستمر سلطاناً ثمانية وعشرين سنة . وكان له أولاد قد فرقهم في البلاد ، فجعل الاكبر وهو مولاي محمد الشيخ في فاس ، وجعل زيدان في مكناس ، وكان هو بنفسه يقوم في مراكش . وكان سلطاناً عادلاً عظيم القدر ، حسن التدبير ، أديباً . له شعر نضير ، عليه رونق السلطنة . أنشد له الخفاجي في كتابه قوله :

حرام على طرف يراه منام
وأنّي لجسم قد شفاه سـقام
وكيف بقلب في هواه مقلب
وأين له بين الضلوع مقام
فياشادناً يرعى الحشاأنتالحشا
أما لمحـل أنت فيه ذمـام

والبيت الاخير مما تداولت بمعناه الشعراء وأجود ماقيل فيه قول الارّجاني :

يرمي فؤادي وهو في سودائه
أتراه لايخشى على حوبائـه

ومن البلية وهو يرمي نفسه
أن تطمع العشاق في إبقائه

وقول مهيار :

أودع فؤادي حرقاً أودع
ذاتك تؤذي أنت في اضلعي
أمسك سهام اللحظ أو فارمها
انت بما ترمي مصاب معي
موقعها القلب وانت الذي
مسكنه في ذلك الموضع

ومن المشهور من شعر مولاي أحمد :

لا ولحظٍ علّم السيف فقدّ
وقوام كقنا الخط مَيَدْ
ووميض لاح لما ابتسمت
من ثنايا مثل درٍ أو برد
ماهلال الافق الا حاسد
لعلاها وبهاها والغيد
ولذا صار عليلا ناحلا
كيف لا يفنى نحولاً من حسد

وهذا منوال لطيف وأسلوب ظريف تنوعت في قوالبه الشعراء ومثله في حسن موقع القَسَم قول ابن المعتز في قصيدة :

لا ورمـــان النهـــود
فـوق أغصـــان القـدود
وعناقيـــد مـــن الصد
غ وورد من خـــدود
وبدور مـــن وجـــوه
طالعـــات بالســـعود
ورســـول جـــاء بالمـــيـ
ـعاد من غـير وعيـــد
ونعيـــم مـــن وصـــال
وشـقـا طـول الصـدود
مارأت عيني كـغَـيـدٍ
زُرْنني في يوم عــيد

وهذا القسم وأمثاله عد من المحسّنات البديعية . واليه أشار صاحب الكشاف أيضاً . ولم يفهمه كثير من

الادباء ، لظنهم انه من معاني الكلام الوضعية ، ولا وجه لجعلها محسنة . ووجه حسنه انه لما بولغ في عظم الشيء ، أقسم بغير الله تعالى إعلاماً بشرف المقسَم به ، ففيه نكتة زائدة على مجرد القسم ؛ ألا ترى انهم لم يعدّوا والله ، وتالله وبالله من القسم الاصطلاحي انتهى . ومن املاء حافظ المغرب أحمد المقري ، لمولاي أحمد قوله :

إن يوماً لناظري قد تبدى
فتملى من حسنه تكحيلاً
قال جفني لصنوه لا تلاقي
إن بيني وبين لقياك ميلاً

ومن أدبه الباهر أن بعضهم أنشده قول الأبيوَرْدي :

ولوأني جعلت أمير جيش
لما حاربت الا بالسؤال
لأن الناس ينهزمون منه
وان ثبتوا لاطراف العوالي

فقال لو كان البيت لي لقلت :

ولوأني جعلت أمير جيش
لما حاربت إلا بالنوال

قال الخفاجي . وأين كلام سائل مل السؤال ، من كلام ملك يملك القلوب بالنوال انتهى.وقيل عليه رأي مولاي أحمد رأي الملوك ، فان ذلك شأنهم.ومن هذا ماقيل في شواهد المطوّل :

والجراحات عنده نغمات
سبقت قبل سيبه بنوال

وهذا أبلغ من قول ابن النبيه :

وتهزه في السلم نغمة طالب
طرباً ويوم الحرب صرخة ضارب

وقد أشار إلى ماجنح اليه مولاي أحمد ، ابن الرومي في قصيدة طويلة مشهورة بقوله :

وحارب من نعمائه ريب دهره
من البر والمعروف جند مجند

ومنها قوله :

له صورة مكتنّة في سكينة
كما اكتنّ في الغمد الجراز المهند
بجهل كجهل السيف والسيف منتضى
وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

قال الخفاجي : انتقدت عليه انه كرّر السيف أربع مرات ، وثلاث منها محل الاضمار ، ومثله يخل بالفصاحة . ثم قال: وردّ بأنها كدعائم الخباء، لو رفعت واحدة انهدم . ووجهه أن تغاير الصفات، منزّل منزلة تضاد الموصوفات، وكذا تغاير أوقاتها ، وكرّرت هنا لتدل بطريق الكناية الايمائية على ذلك ، حتى كأنه السيف . ودلالة اللفظ عليه في كل حال بمنزلة دلالة المشترك على معانيه . وهذا نقله الشيخ في دلائل الاعجاز عن الصاحب . انتهى ملخصاً .

وكانت محظية من حظايا مولاي أحمد غضبى ، فجاءه رجل من بستان بودرة في أوّل ظهور الورد ، فأرسلها لها مع هذه الابيات استعطافاً لها :

وافى بها البستان صنوك وردة
يقضي بها لما مطلت عهوداً

أهدى البهار محاجراً وأتى بها
في وقته كيما تكون خدودا

فبعثتها مرتادة بنسيمها
تثني من الروض النضير قدودا

وبالجملة فأشعار المنصور كلها جارية على نهج الرقة والعذوبة ، وفيما أوردناه له كفاية . وأما جلالة شأنه وعظم قدره فمما تكفلت بهما شهرته وأخباره، وحاشية من العلماء والادباء ، كالمقري ، والثعالبي ، وأضرابهما. وتوفي في سنة اثنتي عشرة بعد الالف .

* * *

(**السلطان أحمد**) بن محمد ، بن مراد ، السلطان الاعظم ، والخاقان الافخم ، أعظم ملوك آل عثمان ، وأحلمهم ، وأكرمهم . كان سلطاناً ، عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء ، وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لارباب الفضائل ، سمح الكف ، جواداً، لاتزال احساناته للفقراء واصلة ، وعطاياه لارباب الاستحقاق مترادفة . وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات ، وله شعر بالتركية ، ومخلصه على قاعدة شعراء الروم ، بختي . ومما يروى له من الشعر العربي قوله ، وأجاد :

ظبي يصولولااتصال إليه
جرح الفؤاد بصارمي لحظيه

ماقام معتدلاً وهز قوامه
الا تهتكت الستور عليه
يسقي المدامة من سلافة ريقه
ويخصنا بالغنج من جفنيه
عيناه نرجسنا وآس عذاره
ريحاننا والورد من خديه
ياشعر في بصري ولا في خده
اني أغار من النسيم عليه
عجبي اسلطان يعز بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه
لولا أخاف الله ثم جحيمه
لعبدته وسجدت بين يديه

قلت: والبيتان الاخيران من جملة قصيدة لابن رزيك الشيعي ، ومطلع قصيدته قوله :

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه

ولما توفي والده ، كان الوزير له اذ ذاك قاسم باشا .

فأخفى الوزير موت السلطان ، ودخل إلى داخل بيت السلطنة ، وذكر للسلطان أحمد المذكور كلاماً ، يقتضي أن يلبس السواد ، ويحضر في الجمع ، ويجلس على الكرسي. واذا حضر أعيان العلماء ، وأصحاب المناصب ، وأركان الدولة من أكابر الوزراء والامراء ، وقبلوا يده وبايعوه على السلطنة على قانونهم ، فيقول لهم كل واحد منكم يمشي على طريقه ، ويصله كمال الشفقة ، ونهاية المرحمة. فلما صدر ذلك خرج الوزير ، وأرسل وراء الاعيان والوزراء فحضروا ، وأخذ كل واحد منهم مجلسه . فبعد هُنيئة رأوا شاباً حسن الوجه ، رقيق الجسم ، تعلوه هيبة عظيمة ، ووقار جسيم ، فجاء حتى جلس على كرسي السلطنة ، وعليه ثياب سود ، ومئزر من الصوف على رأسه ، على عادة آل عثمان فيما يلبسون عند موت واحد منهم. فلما جلس علموا أنه ، السلطان ، وتحققوا موت والده . فقاموا وقبلوا يده وحدثهم بما عهد اليه به الوزير ، وانقضى المجلس على ذلك . وشرعوا بعد ذلك في تجهيز السلطان محمد ودفنه . وكان ذلك نهار الاحد سابع عشر شهر رجب سنة اثنتي عشرة وألف ، وكان عمر السلطان أحمد يومئذ

أربعة عشر سنة وواءق تاريخ جلوسه مخلصه بختي . وقيل في تاريخه أيضاً ، هو خير السلاطين . ووقفت وأنا بالروم على مجموع بخط بعض الافاضل لايحضرني اسمه ، أنشأ فيه تواريخ آل عثمان شعراً ويستخرج التاريخ بطريق التعمية . ولم يعلق في خاطري الا تاريخ جلوس السلطان أحمد صاحب الترجمة وهو :

سلطاننا أحمد عزّتْ ولايتهُ
تاريخُها في اسمه للناس إن حسبوا
أعدادُ مضروبه اضرب في الأصول وفي
ثانيه رابعه يحصل لك الاربُ

ولما التحم أمره ، ابتدأ بارسال وزيره علي باشا الوزير الاعظم ، إلى جهة المجر بالعساكر ، فمات وهو متوجه . فعين مكانه محمد باشا ، الذي كان سرداراً (١) في روم ايلي (٢) . ثم بعد ذلك سعى في الصلح مراد باشا ،

(١) السردار : هو قائد الحملة العسكرية .

(٢) المقصود من كلمة « روملي » عموماً ، أراضي الدولة العثمانية في أوربا . إلا أنه كان هناك ولاية بهذا الاسم أيضاً ، وتحتوي المنطقة جنوبي بلغاريا .

بين السلطان والمجر ، على مدة عشرين سنة . ودخل إلى الديار الرومية برسل الكفار ، ومعهم الهدايا والتحف ، فقبل السلطان أحمد ذلك . ثم سعى في قطع دابر البغاة الخارجين على السلطنة في أيام والده . وقد كان جرى على أيامه منهم ما لم يجر على أحد من أهل بيته، ممن تقدمه ولا تأخره ، حتى إنهم ملكوا غالب النواحي والبلدان ، وقويت شوكتهم ، وكبر شأنهم . منهم حسين باشا الذي كان حاكماً في بلاد الحبشة . ولخروجه أسباب يطول الكتاب بذكرها،فأفسد ، وجبى الاموال من البلاد ، وأحرق بعض النواحي من بلاد قرمان (١) ، ونواحي أناطولي (٢) . وقتل وسبى وأسر بعض القضاة ، واستمر في غلوائه ، حتى وصل إلى مدينة الرُّها ، وبها العاصي الذي أسس بناء السكبانية ، وهو عبد الحليم اليازجي . فلما وصل المدينة

---

(١) ولاية من الولايات العثمانية في آسيا الصغرى ، وتمتد غربي وشمال غربي كيليكيا .

(٢) الأناضول . وهي بمعناها العام ، أرض آسيا الصغرى (تركيا الأسيوية الحالية) . إلا أنها بمعناها الخاص ، ولاية من ولايات الدولة ، وتمتد غرب آسيا الصغرى وحتى وسطها .

المذكورة التقى صلان صائلان ، واجتمع ثعبانان منثعبان . وأبرز كل منهما للآخر حكماً ، يشهد بأن آل عثمان قد أمروه بقتل الآخر . وقد اتفقا على المخالفة لآل عثمان دفعة واحدة ، ونزلا في قلعة الرُّها ، وتحالفا أن لا يتخالفا. فلما شاع توافقهما عين السلطان لقتالهما الوزير محمد باشا ابن سنان باشا ، وضم اليه عساكر الروم ، والشام ، وحلب ، وغيرهما . فرجع الامر لتسليم عبد الحليم لحسين باشا ، وأرسل يطلب رهناً من العسكر السلطاني ، على أن يدفع لهم حسين باشا ، ويتركوه هو في القلعة حاكماً . فأرسلوا له من عسكر دمشق كنعان الجركسي ، وهو من أعيان عسكر دمشق وبكر دواتدار (١) وحاكم دمشق خسرو باشا الخادم وجماعة فأذعن لإعطاء حسين باشا وسلمه . ولما أخذت العساكر السلطانية حسين باشا ، مالت إلى ترك اليازجي في قلعة الرها لان العهد هكذا صدر منه. فغضب لذلك السردار محمد باشا ،وعرض ذلك للسلطان أحمد وكاد أن يقتل بسببه حاكم دمشق خسرو باشا المذكور ،

(١) دواتدار (أو دويدار) : حامل دواة الحبر . وهو من هيئة الكتاب .

لولا أن تداركته المعونة . واستمر عبد الحليم عاصياً حتى قدم عليه الوزير حسن باشا ، ابن الوزير محمد باشا مع العساكر السلطانية بأسرها ، فالتقوا بجمع البغاة وكبيرهم عبد الحليم ، وأخوه حسن ، في مكان يقال له ألبستان من نواحي مرعش (١) ، فاقتتلوا هناك وكسر عسكر البغاة وقتل منهم مايزيدعلىأربعةالآف رجل.ثم ان عبد الحليم مات في قصبة سامسون (٢) . واجتمع البغاة على أخيه حسن . وكان أشجع من أخيه . فوصل إلى الوزير المذكور ، وطلبه للمقابلة فخرج اليه بمن معه من العساكر ، فما ثبتوا قدام البغاة لحظة ،حتى كسروا وهرب حسن باشا إلى قلعة توقات (٣) ، وما رفعوه إلا بالحبال . وهجم العدو على المدينة بأسرها . وصارت عساكر السلطان في أسر البغاة ، ماعدا حسن باشا مع بعض الخواص فانه اعتقل في القلعة . وأغلقت أبواب القلعة والعدو يحفها ، إلى ان وقع

(١) مدينة في تركيا ، قريبة من الحدود السورية التركية .

(٢) مدينة في تركيا ، على الساحل الجنوبي البحر الأسود ، غربي طرابزون .

(٣) مدينة شمالي تركيا ، وجنوبي سامسون .

موت حسن باشا على يد بعض خدمه كما سنذكره في ترجمته . فرحل حسن الخارجي عن توقات ، وتقرب من جانب قرا حصار (١) . ثم إن جماعة قربوه إلى خاطر السلطان وقالوا له ان يقنع بمنصب في بلاد الروم ، فأعطوه مدينة طمشوار (٢) ، وهي في أقصى مدن الاسلام ومنها بداية ولاية الكفر . فدام فيها مدة طويلة ، وحسن حاله ، وقلت أحقاده ، وخدم خدمة حسنة ، إلى ان قدر الله عليه المخالفة بينه وبين أهل ولايته ، فأخرجوه منها . فذهب إلى مدينة بلغراد ، فوضعه حاكمها في القلعة ، مكرماً في الظاهر محبوساً في الباطن . وعرض أمره إلى السلطان ، فأرسل أمراً إلى حاكم بلغراد بقتله ، فقطع رأسه . وخرج بعد ذلك على السلطنة ابن جانبولاذ حاكم كلّس ، وعزاز ، ووصل إلى أن جرد العساكر ، وقاتل عسكر السلطان على حماة . وكان رئيس العساكر الامير

(١) مدينة في الوسط الغربي من تركيا ، وإلى الشمال الغربي من قونية .

(٢) مدينة في أقصى غربي رومانيا ، وقريبة من حدودها مع يوغوسلافيا .

يوسف بن سيفا التركماني حاكم بلاد طرابلس الشام . وانكسر عسكر ابن سيفا ومن معه ، وآل أمر ابن جانبولاذ إلى الطغيان الزائد ، وجاء إلى دمشق ونهبها ، وسيأتي تفصيل ماوقع وفعل بدمشق في ترجمته . ثم رحل إلى حلب ، ومكث بها . وكانت جماعته تزيد يوماً فيوماً ، واشتهر أمره ، وقوي جأشه إلى أن ورد الوزير الاعظم مراد باشا إلى قسطنطينية ، من محاربة كفار المجر . وتشاور الوزراء معه في شأن ابن جانبولاذ ، فكان شوراه أن يذهب اليه وهو بحلب ، وأن يسعى في ازالته وقهره ففعل ذلك . وورد إلى حلب ، وانتزعها من أعوان ابن جانبولاذ إلى ان آل الامر إلى دخوله إلى قسطنطينية . واجتمع مع السلطان ، وحكى له قصته ، فقبل عذره ، وأعطاه حكومة طمشوار . ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمر أوجب قتاله لرعايا تلك البلاد . وانحصر في بعض القلاع ، فعرض أمره إلى السلطان ، فبرز الامر بقتله فقتل . وأرسل رأسه إلى باب السلطان . وكان كلما قتل واحداً من البغاة ، وضع رأسه في مكان تقبل فيه الوزراء ليعتبروا به . وكان أجلّ من قتله السلطان منهم نصوح باشا الوزير

الاعظم . وكان سبب قتله أن جماعة جاؤوا إلى السلطان بمكاتيب ادعوا أنه كتبها لجهة العجم ، فيها التحريض على عدم الصلح ، والتلويح بمساعدتهم . فحين قرأ السلطان المكاتيب أرسل خلف بعض الوزراء ، وأمره بفعل وليمة لجماعة نصوح باشا بأسرهم. وكان نصوح باشا اذ ذاك متمرضاً ، فجاء اتباعه بأجمعهم إلى الوليمة. فحين خلا محله من أتباعه ، أرسل السلطان جماعة لقتله ، فاستأذنوا في الدخول عليه ، فقال لهم بعض جماعته: لايمكن الاجتماع به. فقالوا: لابد من ذلك ، فدخلوا عليه ، وليس عنده أحد ، وأظهروا الامر السلطاني بقتله. فقال لهم: أمهلوني لأصلّي ركعتين ، فأمهلوه . فقام وتوضأ وصلى ركعتين، ثم لما فرغ خنقوه على سجادة الصلاة ، ثم ذهبوا إلى السلطان وأخبروه . فقال: ائتوني به فجاؤوا به فأمر بعوده ودفنه. وكان السبب في قتله المفتي الاعظم المولى محمد بن سعد الدين . ثم ولى مكانه محمد باشا زوج ابنة السلطان ، وجهزه بالعساكر إلى بلاد العجم ، ووقع المصاف بينه وبين عساكر العجم ، وكانت الهزيمة على العجم . ولما رأت الاعاجم ذلك ، أرسلوا استمالوا أتباعه . فحصل التواني ، ووقع الاختلال ،

وقتل من عسكر السلطان جانب كبير ، وعاد بلافائدة . فغضب السلطان وأراد قتله كما فعل بمن قبله ، ثم عفاعنه بواسطة أم الوزير بشرط جلوسه في اسكدار (١) . وكان السلطان أحمد مدة حياته لايفتر عن عمارة المساجد ، وفعل الخيرات . ومن جملة آثاره الجميلة انه كسا البيت الشريف ، وكذلك فعل بالحجرة النبوية ، وكسا أضرحة جميع سكان البقيع (٢) . وسكان المعلاة (٣) . وكان أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسةواحداً بالذهب وواحداً بالفضة فمنعه المولى محمد بن سعد الدين المفتي ، وقال: هذا يزيل حرمة البيت ، ولوأراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت ، فكف عن ذلك . وجعل ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب أيضاً ، داخل الكعبة الشريفة ، صوناً لها من الهدم . وأول من حلاها في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم . وفي الاسلام الوليد بن عبد الملك ، وقيل أبوه ، وقيل ابن الزبير . وحلاّها من العباسيين الامين ، والمتوكل ،

---

(١) هي الجزء الاسيوي من القسطنطينية (استامبول) .
(٢) مقبرة أهل المدينة .
(٣) المنطقة التي تعلو عن المسجد الحرام في مكة ، وفيها قبور أهل المدينة .

والمعتضد . وحلتّها أم المقتدر العباسي ، والملك المجاهد صاحب اليمن ، ومن ملوك آل عثمان صاحب الترجمة . ومن آثاره أيضاً تجديد مولد السيدة فاطمة ، وتبييضه . ومنها عمارة مسجد البيعة ، وهو بالقرب من عقبة منى ، على يسار الصاعد بينه وبين عقبة منى مقدار غلوة سهم ، ووهم من قال انه من منى . ومنها عمارة العين . وأصلح مآثر كثيرة بمكة. وأنشأ وقفاً من قرى مصر على خدام الحرمين ، لاجل أن يصرف عاوفة الخدم السنة تماماً. لان في القديم ما كان يصرف لهم إلا على حكم النصف . وفي سنة أربع وعشرين وألف أرسل للحضرة الشريفة فصّين من الالماس قيمتهما ثمانون ألف دينار ، فوضعها فوق الكوكب الدري . وهذا الكوكب تجاه الوجه الشريف في الجدار ، وهو مسمار من الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء ، من استقبله كان مستقبل الوجه الشريف. كذا قال ابن حجر في الجوهر المنظم وأنشد بعضهم :

الكوكب الدري من شـــأنه
يخفي مع الوجه السراج المنيرْ

فكثّروا الجوهر أو قلّلوا

فالجوهر الفرد عديم النظيرْ

وبعث أيضاً للحجرة بشبابيك من الفضة ، المحلاة بالذهب . وأمر أن يرسل اليه بالشبابيك القديمة ليجعلها في مدفنه ،، الذي أنشأه بقسطنطينية لاجل التبرك فمنعه المفتي ، واعترضه في نقل الشبابيك . فقال: نحن نرسلها من البحر ، فان كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها فهي تصل سالمة من غير غرق، والا فتغرق في الطريق . فأرسلها من البحر إلى الاسكندرية فوصلت سالمة ، ثم أرسلها من مصر إلى المدينة المنورة فوصلت سالمة أيضاً . وكذلك أمر أن يفعل بالشبابيك القديمة حين ترسل اليه . فوصلت إلى قسطنطينية من غير أدنى مشقة، فجعلها في مدفنه كما أراد. وجدّد عمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة في سنة ثلاث وعشرين وألف ؛ على يد الباشا حسن المعمار . وأوّل من وضع أنصاب الحرم خوف اندراسه ، الخليل ابراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام ، بدلالة جبريل عليه السلام. وهي في جميع جوانبه خلا جهة

جُدّة ، وجهة الجِعْرانة، فانه ليس فيهما أنصاب . ثم نصبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ثم قُصَيّ بن كلاب . وقيل ابن عدنان بن أد أول من وضع أنصاب الحرم حين خاف ان يندرس ، ونصبتها قريش بعد أن نزعوها ،والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل هجرته . وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح تميم بن أسد فجددها. ثم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث أربعة نفر لتجديدها ، وهم مخزوم بن نوفل ، وسعيد بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر بن عبد عوف . ثم عثمان ، ثم معاوية ، ثم عبد الملك بن مروان ، ثم المهدي العباسي . ثم أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين هما حدّ الحرم من جهة التنعيم في سنة خمس وعشرين وثلاثمئة . ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين ، اللذين هما حدّ الحرم من جهة عَرَفَة في سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة ، ثم صاحب الترجمة كما ذكرنا . وبعث إلى بيت المقدس من فضة مطلية بالذهب لتوضع على القدم الشريف بالصخرة وهي إلى الآن موجودة . وفي شوال سنة ست وعشرين وألف أرسل لاحمد باشا محافظ مصر ، يرسل مقداراً من الخزينة لاجل عمارة الحرم النبوي على

حكم الحرم المكي ، فامتثل وأرسل . ومات السلطان أحمد قبل الشروع في ذلك . وقال محمد بن عبد المعطي ابن أبي الفتح بن أحمد الاسحاقي ، في كتابه «لطائف الاخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» ، عند ذكر السلطان أحمد : ومن جملة محاسنه انه حصل في بناء الكعبة الشريفة ميلان في بعض أحجارها ، فأرسل عمداً من فولاذ مطلية بالذهب ، ومموّهة بالذهب ، فطوّقت بها الكعبة الشريفة من الجهات الاربع . وحفظت الاحجار من السقوط . وأرسل ميزاباً من الفضة ، مموّهاً بالذهب ، ووضع موضع الميزاب العتيق . وتسلم أمير الحاج الميزاب العتيق وأرسله إلى السلطان ، ووضع في الخزانة العامرة تبرّكاً . وعمل سُحابة(١) بطريق الحاج المصري ، يحمل الماء للفقراء والمساكين ، ووقف عليها أوقافاً ، وهي مستمرة إلى الآن ، وبها النفع العام . ورتب من ريع وقفه لفقراء الحرمين ، وأرباب وظائفهما زيادة في معلومهم ، في كل سنة اثني عشر كيساً تحمل اليهم صحبة الحاج المصري .

(١) فضلة ماء في الغدير .

ثم قال: والذي ضبطه جامع هذه الارقام بطريق التقريب ورقمه ، حسب ماوصل اليه علمه من أفواه المباشرين والكتاب ، أن الذي يجهز في كل عام إلى فقراء الحرمين ومجاوريهما من صدقات آل عثمان وخدمتهم ، وممن سيأتي ذكره في الديار المصرية ، ماهو من المال النقد المسمى بالصرّة ، مائة كيس وأربعة وستون كيساً . بيان ذلك : ماهو من أوقاف الدشيشة(١) الكبرى أربعة وستون كيساً ، وماهو من وقف السلطان مراد سبعة عشر كيساً ، وماهو من وقف السلطان محمد اثناعشر كيساً ، وماهو من وقف السلطان أحمد اثناعشر كيساً ، وماهو من وقف الخاصكيّة (٢) عشرة أكياس ، وما هو من وقف الحرمين عشرة اكياس ، وماهو من وقف الاشراف اثنا عشر ألف نصف ، وماهو من وقف الخدم ثمانون ألف نصف ، وما هو من وقف رستم باشا اثناعشر ألف نصف ، وماهو من وقف اسكندر باشا عشرة آلاف نصف ، وماهو من وقف سنان باشا عشرون

(١) طعام من القمح ، اعتيد أن يطبخ ويوزع على الفقراء وكانت تخصص له أوقاف .

(٢) المقربون إلى السلطان ، وفريق من حرسه الخاص .

ألف نصف ، وماهو من وقف علي باشا اثنان وثلاثون ألف نصف . وماهومن الحب في كل عام، ثمانية وأربعون ألف إردب وثمانمائة إردب ، وذلك خارج عن صدقات البلاد الرومية ، والشامية ، والحلبية ، وغالب الممالك الاسلامية . قلت : وذلك شيء لايحصره ضبط ،ولايحيط به وصف . وبالجملة فان محاسن هذه الدولة العثمانية كثيرة ، وخيراتهم غزيرة . ومن آثاره التي بقسطنطينية ، الجامع الذي لم يعمل مثله في انشائه ، وإحكام بنائه ، ودقة صنائعه إلى غير ذلك . وله ست منارات حسنة الوضع إلى الغاية ، وداخله مزين بأنواع القناديل من البلور والقاشاني والسدف وغير ذلك . وفيه كل أعجوبة لانظير لها . ولما تمّ وضعه ، هادته ملوك الاقاليم بالتحف من قناديل الذهب وغيرها ، لتعلق فيه . وبلغت مصارف نفقته نحو نفقة عمارة جامع بني أمية بدمشق.فانه يقال ان الوليد بن عبدالملك الخليفة الاموي أنفق عليه أربعمائة صندوق من الذهب ، في كل صندوق أحد عشر ألف مثقال من الذهب . وفي خارجه المكان المعروف بآت ميداني ،

وهو ميدان واسع وبه رصد من نحاس على شكل أفعى .
قيل انه كان رصداً للحيات لكن الآن بطل عمله . فان
السلطان مراد ولد صاحب الترجمة كان كسر منه قطعة ،
فبطل عمله لذلك . ويروى انه بعد تمام بنائه واستحكامه
كان بقي في أحد جوانبه اعوجاج بسبب بيت صغير كان
لعجوز ، وقد أرغبت بالمال الكثير لتبيعه فأبت . فاتفق
انها ماتت عن غير وارث ، وآل البيت إلى بيت المال ،
فأضيف إلى الجامع ، وتناسب بذلك وضعه . ومما قيل فيه
من التواريخ تاريخ المولى محمد بن عبد الغني قاضي
العسكر وهو قوله :

ذا جامعٌ مؤسسٌ
على تُقى الربِّ المتين
بناه سلطان الورى
بعدله الجزل الرزين
سميُّ أحمدِ الهدى
ظلٌ إله العالمين
حاولت تاريخاً له
من نص قرآن مبين

فجـاء فيـه قـولُه

لَنِعمَ دارُ المتقـين

وبالجملة فان هذا السلطان أعظم سلاطين آل عثمان قدراً . وكانت ولادته في سابع عشر شهر رجب سنة تسع وتسعين وتسعمائة . وقيل في تاريخه: (حفظه الله) . وابتدأه المرض في شوّال سنة ست وعشرين وألف بقرحة في ظهره . وأخبر عنه مصطفى آغا ضابط الحرم (١) ، انه قبل موته بيوم . وكان قبل العصر . صار يقول «وعليكم السلام» إلى أن قال ذلك أربع مرّات . قال مصطفى آغا: تسلمون على من ؟ فقال: حضرلي في هذا الوقت سيدنا أبوبكر الصدّيق . وسيدنا عمر ، وسيدنا عثمان ، وسيدنا علي رضوان الله عليهم أجمعين ، وقالوا لي انك تجتمع بسلطان الدنيا والآخرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في غد مثل هذا الوقت ، فكان كما قال . فمات في ثاني يوم وهو يوم الاربعاء ثالث عشر ذي القعدة سنة ست وعشرين وألف، وقد بلغ

(١) أو الكزلار آغاسي : الضابط المشرف على غلمان قسم الحريم في السراي السلطانية . وقد ازداد نفوذه على السلطنة العثمانية في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

من العمر ثماني وعشرين سنة، ودفن بجامعه المذكور رحمه الله تعالى . وخلف من الاولاد أربعة وهم السلطان عثمان ، والسلطان محمد ، توفي شهيداً في سنة ثلاثين وألف ، والسلطان مراد ، والسلطان ابراهيم ، وثلاثتهم ولوا الخلافة ، وقد ذكرتهم في محالهم . وأما وزراؤه فسبعة وهم ياوز علي باشا ، ومحمد باشا البوسنوي ، ودرويش باشا ، ومراد باشا ، ونصوح باشا ، ومحمد باشا ، وخليل باشا ، رحمهم الله تعالى .

* * *

(**أحمد باشا**) بن محمد باشا . الوزير الاعظم ، المعروف بالفاضل أحمد باشا ، الكوبريلي الاصل ، القسطنطيني المولد ، احد وزراء الدولة العثمانية ، بل أوحدهم ، الذي عزت به السلطنة وافتخرت الدولة . وكان في وقته من مفاخره السامية ، وأفراده المتعالية ، وبه ظهر رونق الزمن ، وعلا قدر الفضل . وكان عصره إلى أواسط مدته أحسن العصور ، ووقته أنضر الاوقات . ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين ، وقانون الشريعة مثله ، صعباً شديداً في أمور الشرع ، سهلاً في أمور الدنيا . وكان حاذقاً ، مدبراً للملك ، قائماً بضبطه . وملك من نفائس الكتب ،

وعجائب الذخائر ، مالايدخل تحت الحصر ، ولايضبط بالاحصاء . ولد بقسطنطينية ، ونشأ بها ، واعتنى أبوه بتهذيبه ، وأقرأه العلوم حتى مهر ، وسمت همته نحو معالي الامور . وسلك في بداية أمره طريق المدرسين . ثم عدل إلى طريق والده ، فتولى ، وأبوه في الصدارة العظمى ، ولاية أرض روم ايلي ، فظهرت كفايته ، وحمدت طريقته. ثم انتقل منها إلى حكومة الشام ، وأعطيها برتبة الوزارة ، وذلك في سنة احدى وسبعين وألف . وقدمها وكانت أمورها مختلة النظام فأصلحها . وتقيد في أمور الاوقاف ، وأزال مابها من محدثات الوظائف ، وغيرها . وركب على أولاد معن ، وبني شهاب ، وأقام بالبقاع العزيزي أياماً حتى أزالهم عن بلادهم . وقمع أهل الفتن. وكان قبل وطأة قدمه دمشق ، ولغت بها أيدي القحط حتى عمَّها . وبلغت غرارةُ الحنطة في الثمن إلى ثمانين قرشاً . فنفع الناس في جلب الحبوبات من مصر . وأمر وهو بالبقاع ، بعمارة قاعة معظمة داخل الامارة بدمشق ، فبنيت على أسلوب عجيب ، ووضع غريب . ثم طلب من البقاع إلى الروم ، فسار بالسرعة وعزل عن حكومة دمشق . وجاءه أمر

حكومة حلب وهو ذاهب في الطريق . ولم يدخلها . وبعد وصوله إلى قسطنطينية ، صار قائماً مقام أبيه فيها . وكان السلطان اذ ذاك بأدرنة، وأقام أياماً قليلة ، ثم طلب إلى أدرنة . وكان والده قد ابتدأه المرض ، فلما وصلها صار قائماً مقامه في حياته . وبعد أيام قليلة توفي والده . فتولى مكانه ، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وألف . وأرخ بعضهم توليته بقوله: «دولته نعمة الاله» . وسلك طريقاً في وزارته لم يسبقه إليها أحد ، وبلغ من الاحكام ونفوذ القول مبلغاً ليس فيه مستزاد ، ولم يبق الناس سوى التمسك بعنايته ، ومراعاة حاشيته . وكان صائب الرأي ، كامل الفراسة . ومما ينسب اليه من الفطنة ، انه جاء يوماً شخص بتوقيع فتفرّس فيه أنه مصنوع ، فناوله لأحد جماعته وأمره بحفظه . ومضى على ذلك ست سنوات . فجاءه يوماً شخص آخر برقعة ، فلما رآها طلب التوقيع فجيء به . فقابله على الرقعة ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به ، فأرسل اليه . فلما مثل بين يديه ، أراه التوقيع ، وقال : أليس هذا بخطك ؟ فاعترف بأنه هو الذي كتبه . فأمر بقطع يمينه ، وعيّن له من بيت المال مايكفيه في كل يوم . وقصده

الشعراء من البلاد ، ومدحه جماعة . منهم والدي المرحوم ، فانه مدحه بثلاث قصد ، احداها التي أوّلها :

طيفٌ يمثّله الغرام بفكره
أرَجاً يحارُ بِطَيّه وبِنَشْره

وهي قصيدة فائقة في بابها . وكتب اليه رسائل عجيبة الانشاء ، وترجمه ترجمة استوعب المدح بجميع أفانينه فيها . وكتب اليه الامير المنجكي في صدر رسالة :

ياسيد الوزراء دعوة مُقْعَد
محت الحوادثُ رسمه فعسى عسى
فانظر اليه برأفة بل رحمة
يكفيك من جرح الأسى ياما احتسى
قد كان سحبانَ الزمان فضيلةً
قطعت عُلوفَتُه فأصبح أخرسا

ومن الغزوات التي وقعت أيام وزارته وعين اليها ، غزوة إيوار (١) عينه السلطان محمد إلى فتحها ، فسار بجميع العساكر اليها وحاصرها ، ووقع بينه وبين كفار

---

(١) هي سري فار : قلعة جنوبي غرب المجر .

المجر وقعة عظيمة . ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره . ثم افتتحها في حادي عشري صفر سنة أربع وسبعين وألف ، وهدم مما يليها قلعة تسمى بالقلعة الجديدة كانت الكفار بنوها ليتحصنوا بها . وبعد ماقدم إلى مقر الدولة واستقر مدة ، وقد قويت شوكته وعظمت مهابته ، أمره مخدومه بالسفر إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية ، التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بلادها لم تفتح ، كما شرحنا ذلك في ترجمة السلطان ابراهيم . فوصلها في خامس ذي القعدة سنة سبع وسبعين وألف وبنى بالقرب منها مكاناً كان متهدماً ، لتهيئة مهمات الحصار . ثم نزلها بمن معه من العساكر . وكان أهلها حصنوها باشياء لايمكن حصرها ، وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل السور القديم ، وطال الحرب بين الفريقين مدّة ثم افتتحها صلحاً في غرة جمادى الاولى سنة ثمانين وألف . ووردت البشائر إلى الاطراف بالزينة وكثرت تباشير الناس بفتحها. وبالجملة فان أمرها كان قد بلغ الغاية، وطال حتى مل الناس من خبرها ، وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ، وعملت القصد العجيبة ، حتى

رأيت بعض الفضلاء أفرد الاشعار التي نظمت في ذلك . وفي مدح الوزير صاحب الترجمة ، فبلغت شيئاً كثيراً . ومن نوادرها التاريخ اللفظي المعنوي لصاحبنا الشيخ الفاضل أحمد الصفدي ، وهو قوله في عام ألف وثمانين عام . ومن التهنئات قصيدة العلامة الاديب المشهور مصطفى ابن عثمان البابي الحلبي ، قاضي المدينة المنوّرة الآتي ذكره وهي من جيد شعره ومطلعها :

لك الله من نَدْبٍ اذا همَّ صمَّما
وطلاع أنجاد إذا أمَّ تمما

نقاب بأعقاب الأمور محدث
كأن له منها عليها مترجما

اذا عرضت في جانب الملك زَيغَةٌ
أراها قذى الأجفان أو تتقوما

وقام بأعباء الوزارة ناصحاً
ووطّأ فاستقصى وشاد فأحكما

من النضر الغُرِّ الألى تركتْ لهم
عزائمهم في غرة الدهر مبسما

اذا ظمئت بيض الظبا في أكفهم
تحاشوا لها ورداً سوى مصدر الظما
لقد قرنوا بالنجدة العلم والتقى
فقد نظموا طعمين شهداً وعلقما
ففي الجدب يستسقى بفضلهم الحيا
وفي الروع يستسقى ببيضهم الدما
فيا أسد الله الذي ان يحرم الـ
ـفريسة أقراهـم من الاسد مطعما
ليهنكَ فتحٌ بشَّرته سعودُه
باقبال عزٍ يملأ الارضَ والسما
رأيت به الاسـلام يلتام شعبه
وقد كربت أركانه أن تهـدما
فعلت بجيش الكفر ماأنت فاعل
وجرَّعته كأساً من الذل علقما
فأخَّرت حتى لم يجد مـتأخراً
وأقدمت حتى لم يجد متقدمـا
وماالختارموج البحر إلا لأنـه
رأى موجه من موج سيفك أسلما

فطوقتها طـوق الحمامة نعمة

وانا لنرجو فوقها لك أنعمـا

إلى أن تعود الارض بالأمن كعبة

حراماً وكل الدهر شهراً محرما

وبعدما مهد أمورها ، وبنى ماكان تهدم أيام المحاربة من مساكنها ، رجع إلى مقر حكومته . وكان السلطان اذ ذاك بأدرنة . فأقام مدة ، ثم عينه السلطان إلى محاربة القوم المعروفين بالليه (١) من النصارى ، فسار في جمع عظيم لم يشهد مثله ، وافتتح قلعة قمنيجة (٢) في سنة أربع وثمانين . وعاد إلى ادرنة ، وأخذ في نقض الامور وابرامها على الوجه الحميد والرأي السديد . ثم تغيرت أطواره وحبيت اليه العزلة عن الديوان ، وتعاطي المصالح ، واشتغل باتخاذ الندماء ، وكان مجلسه كله فوائد ولم ينسب اليه مايشينه سوى بعض التشاغل عن أمور الرعية . والافقد يقال ان جميع مزايا الحسن جمعت فيه ، فحاز من كل وصف كماله وغايته . ثم رحل السلطان من أدرنة إلى قسطنطينية

(١) البولونيون .

(٢) مدينة في بودوليا ، في جنوبي بولونيا .

وذلك في أواسط المحرم سنة سبع وثمانين وألف فرحل هو معه . فعند وصوله ابتدأه المرض، وكان ابتداء مرضه اليرقان الاسود . وعولج مقدار ستة أشهر فلم يفد العلاج . واشتد به إلى أن سافر السلطان إلى أدرنة ، في شعبان من هذه السنة ، وخرج هو على أثره من البحر في مركب إلى بلد سلورية (١) ووصل من البر إلى نواحي جورلي (٢) ، فأدركه أجله في قرية بالقرب منها.وغُسِّل بها وأتوا بجنازته إلى قسطنطينية فدفن مما يلي والده ، بتربته التي كان أنشأها بدرب الديوان . وصلِّي عليه مكان دفنه وذلك نهار الاربعاء سابع عشري شعبان سنة سبع وثمانين وألف. وكانت ولادته في سنة خمس وأربعين وألف . وكان قبل وفاته وقف كتبه ، ووضعها في خزانة بالتربة المذكورة ، ورتب لها أربعة حفاظ . وفيها من نفائس الكتب مالايوجد في مكان ، وأخبرني بعض من أثق به انها خمنت بأربعين ألف قرش. رحمه الله تعالى .

* * *

(**أحمد باشا**) الوزير الكبير ، المعروف بكوجك أحمد

---

(١) مدينة شمالي بحر مرمرة ، قرب استامبول .

(٢) مدينة صغيرة ، غرب استامبول .

الارنودي . أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة ، وشدة البأس ، وحسن التدبير . وكان عارفاً بأحوال الحروب ، وله طالع سعيد ، ورأي سديد . وكان في مبدأ امره خامل الذكر ، ثم نهض به الحظ حتى صار بكلربكيا (١) وتولى حكومة سيواس (٢) . ثم ورد دمشق حاكماً بها ، أولاً في سنة تسع وثلاثين وألف . وبعد ماعزل عنها ولي حكومة كوتاهية (٣) . فنجم في بلاد الروم الياس باشا ، وأظهر العقوق للدولة العثمانية ، فعين السلطان مراد صاحب الترجمة لمحاربته مع جملة من العساكر . فسار اليه وقابله وفتك به فتكة بالغة ، وأسره وغنم منه غنائم كثيرة ، وعاد به إلى الابواب العالية . فأكرمه السلطان لذلك وفوّض اليه ثانياً كفالة دمشق ، وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين وألف ، وخلع عليه خلعة الوزارة . وعيّنه لمقاتلة الامير فخر الدين بن معن ، وقد كان خرج عن طاعة السلطنة،

---

(١) بكلربكي : تعبير تركي ، يعني (أمير الامراء) ، ويقصد به (الوالي) .

(٢) ولاية شمال شرقي آسيا الصغرى .

(٣) مدينة إلى الشمال الغربي من تركيا ، وجنوب غربي أنقرة .

وجاوز الحد في الطغيان . وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق ، وتصرف في ثلاثين حصناً ، وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيماً . وبالجملة فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة . وكان في ابتداء أمره تعين لمقاتلته الحافظ المارّ ذكره ، فلم يقابله وهرب إلى بلاد الفرنج كما سلف الايماء اليه . ولما عاد أفرط فيما كان يرتكبه إلى أن تعين له صاحب الترجمة . وأمر كافل حلب نوالي باشا ، وجميع أمراء أطراف الشام ، كطرابلس ، وغزة ، والقدس ، ونابلس ، واللجون ، وعجلون ، وحمص ، وحماة ، أن يكونوا تبعاً له ، وهو رئيسهم . فبعد قدومه إلى دمشق جمع أعيان العلماء ، وكبراء العسكر ، وقرأ عليهم الاوامر السلطانية ، فقابلوها بالطاعة ، وبادروا إلى مهمات تدارك السفر . واخذت أمراء الاطراف يردون ، واحداً بعد واحد ، إلى أن قدم نائب حلب ، فبرز بمن معه من العسكر في ثاني عشر صفر سنة ثلاث وأربعين . وقد كان جدد المحمل الشريف ، فأطلعه أمامه ، وأقام بالقرب من قرية الكسوة بأول الجسور أياماً قليلة ، إلى أن تكامل جمع الجموع . ورحل إلى قره خان ، ثم عيّن شرذمة

من العسكر لمنازلة بني الشهاب ، الذين يسكنون وادي تيم الله بن ثعلبة ، وهم منبع الشقاوة . فسار كتخداه (١) ومعه بعض الامراء إلى جانب حاصبيا وريشيا ، فاتفق من ألطاف الله ، ان الامير علي بن فخر الدين بن معن أمير صفد كان متوجهاً لناحية والده لمساعدته ، فالتقى العسكران عند صلاة الصبح ، فانقضت فرقة العسكر السلطاني انقضاض النسور على أضعف الطيور ، فمزقوهم بدداً ، وفرشوا الفضا بجثث القتلى . ولم يعلم أحد أن الامير علي بينهم ، ولو علموا لما ثبت أحد لكبر صيته . وكان من الاتفاق العجيب ، ان بعض الشجعان صادفه فطعنه برمح رماه عن جواده وماعرفه . فأتاه رجل من الجند ، وكان خدم الامير علي في مبدئه فنزل اليه ليحز رأسه ، فعرفه الامير علي ، فقال له : خلِّصْني : ولكَ عليّ من المال ماتريد. فقال له : انبقاءك بعد هذه الجراح محال ، ثم قطع رأسه . وأتى إلى مخيم الوزير فدخل عليه وهو نائم ، فنبهه خدمه الموكلون به ، ولما أفاق قبل يديه ووضع الرأس قدّامه ، وقال له هذا رأس رئيس القوم . فلم يصدّقه حتى جاء من عرفه ،

---

(١) نائبه .

وحقق له الامر . فضربت البشائر وكان العسكر الذين تلاقوا مع عسكر الامير علي انتصروا ، وغنموا غنيمة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ولم ينج من أيديهم الا شرذمة قليلة . وأرسل أحمد باشا رأس الامير علي إلى دمشق : في جملة من الرؤوس وأدخلوهم مشرعين على رؤوس الرماح. وجهزوهم بعد أيام إلى الابواب السلطانية . ثم ان أحمد باشا سار إلى البقاع العزيزي ، وافتتح قلعة قبر الياس . وتوجه إلى جانب صيدا وأقام بها مدّة شهر ، والأخبار عن الامير فخرالدين مختلفة ، فمنهم من يقول انه في قلعة نيحا ، ومنهم من يقول انه في قلعة جزين . وكان الوزير الاعظم محمد باشا في حلب ، فاستدعى أحمد باشا فسار بخواص اتباعه، وأبقى جميع العسكر بمدينة صيدا . واجتمع به في حلب ، وعاد بالسرعة. وكان تحقق أن فخرالدين في قلعة جزين ، فأخذ يحاصرها . ولما رأى فخر الدين أنه مأخوذ، خرج من القلعة ، وأتى طائعاً إلى أحمد باشا ، فقبض عليه . وأتى به إلى دمشق . ودخل بموكب حافل ، وفخر الدين خلفه مقيد على فرس ، وكثر دعاء الناس له ، ومدحه شعراء دمشق بالقصائد الطنانة ، وأكثروا من التواريخ.

ومن جملة من مدحه الامير المَنْجَكي فانه مدحه بهذه الابيات وهي :

إن الوزير أدام الله دولته
أخبارُه سِيَرَ في الناس تنتقل

وجاءنا بابن معن بعدما قطعت
صم الصخور عليه وهو معتزل

لم تغن عنه الحصون البيض إذ طاعت
سوء الرزايا عليه اليوم والقلل

ولا الدلاص ولا ذاك الرصاص ولا
تلك الجياد ولا العسالة الذبل

ولا من العرب من كانت جرائره
تأتي عليهم ولا الكتاب والرسل

أطفاله لهم من حوله زجـل
كأنهم قتلوا من غير ماقتلـوا

كم بات يحسب في التقويم مفتكراً
في نجمـه فرآه أنه زحل

من راح يطلبه التقدير ليس له
بحرٌ يقيه ولا بر ولا جبل
هذي عواقب من يطغى وحرفته
في قومه وبنيه المكر والحيل

ثم أرسله أحمد باشا مع من وكله به إلى مقر السلطنة .. فبعد وصوله أمر السلطان بقتله ، وسيأتي خبره مفصلاً في ترجمته في حرف الفاء . ولما تم الامر على هذا المنوال رجع صاحب الترجمة إلى بلاد فخر الدين، لضبط ما له من الاموال والامتعة . فنازل قلعة نيحة وتسلمها . واستدعى قاضي القضاة بالشام ، وعلماءها ، وأعيانها فتوجهوا اليه وحضروا الضبط . ولم يظهر من النقود إلا شيء يسير ، وأما الاملاك والعقارات والامتعة ، وحلى النساء ، وأواني الذهب والفضة ، وآلات الحرب ، فقد ظهر منها شيء وافر . وكتب بذلك حجة . وعاد صاحب الترجمة إلى دمشق وأقام بها مدّة . وكان عمَّر بدمشق تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم، ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعلبك ، وكان أملاكاً لفخر الدين . وألحق بذلك ستين جزءاً بالجامع الاموي ، وتعيينات لاهالي الحرمين ،

وبنى سبيلاً بالقرب من عمارته عظيم النفع ، وقيل في تاريخه :

أنشا الوزير للوفود منهلا
لوجه مولاه إذا وافى غدا
وأنشد الوارد في تاريخه
هذا السبيل الاحمدي قد بدا

ثم طلبه السلطان مراد إلى محاربة العجم في قلعة روان . وعزل عن حكومة دمشق ، ثم أعيد اليها قريباً. وأمر بمحافظة الموصل ، وعين معه عسكر الشام فحافظوا مدّة ومرض في أثناء المحافظة ، وأراد المقاومة لشاه العجم عباس شاه ، فماساعده القدر . فقتل ، وأسر غالب من معه من العساكر ، وأرسل رأسه إلى دمشق ، فدفن في تكية المذكورة . وكان قتله في ربيع الثاني سنة ست وأربعين وألف.رحمه الله .

* * *

(**السيد حسن**) ابن الامام القاسم ، بن محمد، بن علي . من ملوك اليمن الذين تسنموا من الفخر عالي الذرى ، ووسع جودهم عامة الورى . أمّا العلم فهو من أفاضل جيله ، وأمّا الحلم فهو الناهج لسبيله ، وأما الحماسة فما اشتقاق

الحمس إلا من حماسته ، ولا السماحة الا من فائض سماحته . وهو الذي فتح اليمن ، وأخذه لاخويه محمد ، واسماعيل ، من الاتراك ، وأخرجهم منه . وكان مع شجاعته ذا سياسة ، وتدبير عظيم . ومرجع الدولة في عصره اليه ، والكل من بني القاسم لايصدرون إلا عن رأيه ، ويعوّلون في جميع الامور عليه . وكان مع اشتغاله بالحروب ، وقيامه بأمر الملك على ضروب ، يهتز للشعر هز النشوان ، ولايشغله شاغل عن المذاكرة في كل أوان . فلو رآه ابن الرومي لما قال (شعر) :

ذهب الذين تهزهم مُدّاحهم
هَزَّ الكُماةِ عَواليَ المـرّان

وكان يبين بجودة ذهنه الوقاد ، الجواد والمقصر في ميدان الانشاد . وكان عظيم العطاء كثير المعروف ، محباً لفعل الخير . وكان يجل أولاد الاولياء ، والعلماء ، ويعرف لهم حقهم ، ولذلك تم له الدست . وكان سعيداً في حروبه ، وما اتفق أنه ركب في جيش الا وعاد منصوراً. وبالجملة، فكان حسنة في بني القاسم على وجه الزمان ، ولايدانيه في شجاعته منهم مُدانٍ . وأمّا ماقيل فيه من المدائح فيطول

ذكره وهو الذي اختط الجبل المسمى بضوران بضاد معجمة مضمومة ، فبنى به حصناً مشيداً ، واختط به مدينة ، عظيمة ، وأحيا به أرضاً دائرة ، وغرس بها فواكه، فصارت مدينة عظيمة بأسواقها ، وحماماتها ، ومساجدها ؛ وأمر كل أمير من أمرائه ان يبني بها بيتاً ، فاتبعوا أمره . وعمّر ماحول المدينة من القرى . وكانت وفاته يوم السبت ثاني شوال سنة ثمان وأربعين وألف بمرض ذات الجنب . وحصل بموته التعب الشديد ، لعموم نفعه ، ورياسته ، وشجاعته ، وحسن أخلاقه ؛ حتى إنه لما انتصر على الاروام في زبيد ، كان يغريه المجالسون بالايقاع بهم ، لما صدر منهم من حربه . فلم يؤثر فيه العذل ، بل عفا عنهم ، وكساهم وأحسن اليهم . وكانت مدّة امارته بعد خروجه من صنعاء ، نحو خمسة عشر عاماً . ودفن بضوران ، وبنى عليه قبة عظيمة ، إلى جانب مسجده ، الذي أسسه ، وتممه ولده محمد . وأجرى المياه هنالك اليه . وجاء تاريخ وفاته (حسن المخلد في الجنان) . رحمه الله تعالى .

* * *

(**الأمير حسن**) بن محمد ، الامير الجليل ، أبوالفوارس المعروف بابن الاعوج ، أمير حماة . أوحد امراء الدهر ،

وعين باصرة الادب ، وشمس فلك المجد . قد جمع الله له بين أدوات المحاسن ، ورقاه إلى أعلى ذروة المفاخر ، مع أدب بارع ، وحسب تارع (١) ، وطيب أرومة ، وزكاء جرثومة (٢) . وكان في الكرم غاية لاتدرك .

ومما قال فيه بعض الشعراء :

حوى قصبات السبق في حومة العلا
نَعَمْ هو للسباقِ ما زال يسبق
متى تُبرز الايامُ مثلَ وجوده
جواداً بما في كفّه يتصدّق
لقد زيّن الدنيا جمالاً كمالهُ
فمنه على وجه البسيطة رونق

ولد بحماة ونشأ بها . وهو من بيت أصيل الرياسة ، عريق النسب من الجهتين . أمّا من جهة أبيه ، فهو أمير ابن أمير ، ورث السيادة كابراً عن كابر . وأمّا من جهة والدته فهي ابنة شيخ الاسلام ، محمد بن سلطان العارفين الشيخ علوان الحموي ، صاحب الكشف والكرامات .

(١) ممتلىء وزاخر .
(٢) زكاء جرثومة : صلاح الأصل وطهارته .

ونشأ هو في صدر العز بنعم جزيلة؛ فمال طبعه نحو الكمال . فقرأ على علماء بلده علوم العربية ، والفنون الادبية ، وعاشر الادباء ، وجالس الشعراء . ولما شاع خبره ، شدّ الرحال اليه الادباء من الاقطار ، واجتمع عنده منهم مالم يجتمع عند أحد من امراء عصره . وسافر إلى الروم في أيام السلطان مراد بن سليم شاه ، واجتمع بمعلمه المولى سعد الدين ابن حسن جان ، ومدحه بعدّة قصائد فأكرمه. ومدحه للسلطان، وجمعه به ، فولاه ولاية حماة . ورجع اليها ، فأقبل عليه الشعراء من كل مكان . وأقام حاكماً بها ثلاث سنين ، ثم عزل . وأقام بمنزله ، ثم بعد مدّة ولي امارة معرّة النعمان، وتوجه اليها بعشائره . وتكرّر له العزل عنها ، وعن حماة، والتولية لهما . وعانده الدهر في بعض الاحيان ، وكان صبوراً على نوائبه . وكان في جميع حالاته مشتغلاً بالادب ، وكان ينظم الشعر ، فيأتي فيه بكل معنى رائق ، ولفظ شائق ، مما يليق أن يعلق تميمة في جيد الزمان، وينظم فريدة في عقد الحسن والاحسان ، فمن ذلك قوله في الغزل :

آهِ منْ لي بظبيـةٍ فتّانـه
وهي تلهو ومهجتي ولهـانه

ذات ثغر كأنه اللؤلؤ الرطـ
ـبُ حكى كفَّها وحاكتْ بنانه
هي في القدّ غصنُ بان ولكن
من رأى القد قال ذي رمّانه
ياعجيباً منها تظنّ سلوّاً
من فؤادي وتشتكي سَلَوانه
ياعجيباً إني أريد رضاها
وهي في حالة الرضى غضبانه
لست أخشى في حبها من عذول
فدعوه فينا يُطيل لسانه
حاصل الامر أن يقال فلان
طار صيتاً بحبه لفلانه
أنا صبّ بحبها مستهام
مَلكَ الحبُّ سرّه وعيانه
لست أنسى لما مضى ورقيبي
عينه من يد الكرى ملآنه
وقضينا الوصال رشفاً وضماً
بقلوب هيمانة حيرانه

وأراد الجموحَ طرفُ التصابي

فلوينا عما أراد عنانه

وملكنا نفوسنا برضاها

وزجرنا بعفة شيطانه

فدع العاذلين ينقلن عني

آه من لي بظبية فتانه

ومن شعره قوله من جملة قصيدة يتشكى فيها من الزمان وما لاقى من الالم في وطنه :

حاديَ العيس سرْ بغير ارتياب

ففؤادي قد حنّ للاغتراب

لا أريد الاوطانَ والذلُّ فيها

واضعٌ طوقه بأعلى الرقاب

ولو اني قضيت فيها سرورا

في شبابي لم اكتئب لمصابي

بل تولت نضارة العزِّ منــــي

بين َعيْشٍ ضَنْكٍ وفرط اكتئاب

فالفرار القرار من دار هون

تركتْني أشكو زمان الشباب

وإذا الضيم ماأقام فأحسب
بجياد تمــرُّ مرّ السحاب
لو يكن في مقام ذي اللُّبِّ فضلٌ
قطع السيف وهو ضمن القراب
أدْرك المسكُ بالتنقل شأناً
وهو في أرضه دُوَيْن التراب
فالفتى الشهمُ من إذا شام ضيماً
لا يبالي بفرقة الاحباب
كيف مكثي مابين أظهر قومٍ
عهدهم في ثباته كسراب
جارهم ان غدا عزيزاً عليهم
كان كالشاة في مقيل الذئاب
هم اذا صادروا أسود شراة
واذا حاربوا فدون الكلاب
كم أناسٍ من دارهم أخرجوهم
ليَسوموهمُ بسوء العذاب
إن فِرْعَوْن ثم نمرودَ كانا
دونهم في اختراع شؤم العقاب

ومساويهم التي مثل هذا
عدد الرمل والحصى والتراب
ربِّ يا من أباد عاداً وأودى
بثمود ذوي النفوس الصعاب
لا تذرْ على الارض شخصاً
انهم جاحدون نصَّ الكتاب
وانتقم مسرعاً وعجلّ عليهم
ليس فينا صبر ليوم الحساب

ورأيت بخط الاديب ابراهيم رامي ، كثيراً من أشعار صاحب الترجمة . وذكر في بعض أوراقه : ومن محاسن مااتفق له في الشعر ، وذلك ان الامير موسى بن الحرفوش أمير بعلبك ، عزم على الحرب مع الامير علي بن سيفا في ناحية غزير ، وقتل ابن سيفا جماعة الامير موسى . فكتب للامير في ابتداء القتال هذين البيتين ، مع كتاب أرسله اليه يستحثه على القتال فقال :

غزير طورٌ ونار الحرب موقدةٌ
وأنت موسى وهذا اليوم ميقات

أَلْقِ العصا تتلقفْ كلَّ ماصنعوا

ولاتَخَفْ ماحبال القوم حيّات

قلت: وقد رأيت البيتين في تاريخ الصلاح الصفدي في ترجمة الاشرف منسوبين للكمال ابن النبيه ،ونظمهما عندما نازل موسى الاشرف ،دمياط ، وصدرهما ،كذا: دمياط طور.... إلى آخر البيتين. وللامير حسن،وكتب بهذه الابيات إلى جدّي القاضي محب الدين، في صدر كتاب ، وكان سمع بوفاة المولى سعد الدين بن حسن جان المذكور آنفاً:

فجئت بنعي لو أبثُّك بعضه

لأيقنتَ ان الدهر قد عدم الرشدا

وليس يقر المرء عند سماعه

ولو كان قلب السامع الحجر الصلدا

ولو انه قد مرَّ يوماً بيذبل

ورضوى لهذا الرزء دكهما هدّا

أظنك ذقت الحزن مما سمعته

فاني لم آلوكَ في كشفه جهدا

على انني أرجو بقاء محمد

وأسعد ان غال الزمان لنا سعدا

وقوله في حلاق سيئ الخلقة :

ألا رُبَّ حلاقٍ بُليت بشرّه
فأثر في رأسي الجراحة والبوسا
أنامله كالطور من فوق جبهتي
ورأسي كليمٌ كلّما حرك الموسا

واستأذن عليه بعض ندمائه الادباء بهذين البيتين :

على الباب المعظّم عبْدُ رِقٍ
بأنواع اللقا منكم يفوزُ
يجوز الباب عن إذن كريم
والا فهو شيء لا يجوز

فأنفذ اليه الجواب بهدية سنية :

نحيط بعلمكم أنا نشاوى
وقد جُليت لنا بكرٌ عجوزُ
فان جوّزتمُ مانحن فيه
والا فهو شيءٌ لا يجوزُ

ومن غريب مااتفق له . انه كان من أقربائه شاب يسمى

الامير يحيى . وكان بارع الجمال بعيد المنال . وكان الامير حسن يحبه محبة شديدة بمنزلة ولده . وكان من المنسوبين اليه رجل من طلبة العلم . كردي الاصل يسمى يحيى أيضاً . وكان عيّنه معلماً للامير يحيى المذكور ، يقرئه العلم ، ويعلمه الادب . فواظب على اقرائه دهراً طويلاً ، وكان الامير يحيى ساكناً في دار مستقلة قبالة دار الامير حسن ، وكان يتيماً.فاتفق ان الامير حسن بنى داراً عظيمة . وصرف عليها مالاً جزيلاً . ولما تمت عمارتها . وفرش مساكنها ، صنع وليمة عظيمة ، ودعا أعيان بلدته . وكانت الوليمة ليلة الجمعة ، فاجتمع أكابر البلدة . وكان الامير يحيى من جملة القوم ، فسهروا قريباً من ثلث الليل الاخير ، وباركوا للامير بالدار ، وتفرّقوا . فتوجه الامير يحيى إلى منزله ، ونام ، واستغرق من تعب السهر . فلما أصبح الصباح جاء الشيخ يحيى الكردي ، ودق الباب عليه فخرجت الجارية ، فقال لها: نادي لي الامير لأقرئه الدرس ، لان لي حاجة مهمة أريد المسير اليها . فتعجبت الجارية من مجيئه في ذلك الوقت . وقالت له: انّ الامير أطال السهر في هذه الليلة . وهو نائم

وان اليوم يوم الجمعة ، ومن عادتكم ترك القراءة في الجمع . فقال لها: لي حاجة مهمة أخاف من التعويق بسببها عن درس غد. فرجعت الجارية إلى الدار ونبهت الامير يحيى فخرج مسرعاً إلى الشيخ ، وتلقاه وسلم عليه ، وتوجه هو إلى قضاء الحاجة. فلما دخل بيت الراحة تبعه الشيخ . وأشهر سكيناً ومسكه بعنف ، وطرحه على الارض وذبحه ، وخرج من الدار هارباً يريد الخلاص . ولم يكن في الدار إلا الجارية ، ففطنت للامير وخرجت خلفه إلى الطريق ، ونادت بأعلى صوتها ياقوم الشيخ ذبح الامير يحيى. فأدركوه من جميع الجهات وأحاطوا به ، فقاتل مع الناس قتالاً شديداً ، وقتل ثلاثة رجال . ثم ضربه رجل من العوام بحجر كبير على ظهره ، فسقط مغشياً عليه ، فمسكوه . ثم أحضروه بين يدي الامير حسن ، فسأله عن سبب ذلك . فلم ينطق بحرف ، فأمر باحراقه . فجمعوا حطباً وأوقدوه ، ثم ألقوه في النار ، فاحترق ، وعجل بروحه إلى النار . والذي يظهر أن قتله له انما كان عن ولوع وهيام ، ورأى انه اذا قتله يقتل به فيخلص مما كان فيه من المشقة والالم . ونظم الامير حسن هذه الواقعة في قصيدة يرثي بها الامير يحيى . وأثبتها

برمتها لغرابتها في بابها وتضمنها مثل هذه الواقعة العجيبة.
وهي قوله :

عجبت لمن أمسى يؤمل أنّ يحيى
بصفو وربع الانس قد هدّه يحيى
هلال قبيل التمّ وافى مُحاقه
وسار إلى الاخرى فاظلمت الدنيا
وغصن ذوى من قبل أن يثمر المنى
كأنّ الاماني قاطعات على المنيا
وأصبح روض العيش أغبر يابساً
وعوّض قبراً بعد دوحته العليا
أتاه الردى ممن تربى بفضله
فقد لج في كفران نعمته بغيا
أقيم عليه حارساً راعياً له
وقالوا له رعياً فقال لهم نعياً
ومن وضع الاحسان في غير أهله
فمن كفّه في عنقه وضع المدْيا
ومن يجعل السِرْحانَ للظبي راعياً
فلا يلم السرحان ان قتل الظبيا.

وما هذه الامثال إلا وسيلة
أسلّي بها قلباً سلاه الجوى سليا
والا القضاء الحتم ان حل بالورى
فأبْصرُهم أعمى وأحْنقُهم أعيا
ومالم يكن من جانب الله حافظ
فلاترجُ بالاشياء ان تحفظ الاشيا
فقد يُشرقُ الريقُ الفتي وهو عونه
ويبري الحسام العَضْبُ صاحبه َبريا
وقد يفجأ الموتُ الفتي وهو آمنٌ
أينْجو ونار الحرب قد صليت صليا
ويدرك عند اليأس ماالعبد طالب
ويحرم عند الرشد مما له غيا
ألم تر من سموه يحيى تفاؤلاً
سيبقى غداً في الحال رهن أبي يحيى
فويلُ امه الثكلى لو انّ مصابها
برضوى دحاه الخطب في أرضه دحيا
تُصوِّره حياً لفرط ذهولها
وتسأل منه أن يردّ لها هَدْيا

تعانقه والعنق يجري لها دماً
أظننت خلوقاً حيث لم تملك الوعيا :
بكى لبكاها الجوّ وانهلّ دمعه
بتموز شاهدناه يذري الحيا ذريا
وضجّ جميع الناس ضجةّ واحدٍ
له واحداً من فقده واظب النعيا
فلو أنه يُفدى فدتْه نفوسنا
وسيقت له الارواح في حبه هديا
ولكنما الاقدار اخفاء سرِّها
لقد أذهل الافكار والعقل والرأيا
فان ناب خطب سُلِّم الامرُ للذي
بحكمته قد أحْكم الامر والنهيا :
وصبراً فما الدنيا بدار اقامة
كأنك بالأحياءِ قد فارقوا الاحيا
ألم يكُ في قتل الحسين مواعظ
لمن رام انصافاً من الدهر أو بقيا
فلو تم شيء كان آل نبينا
أحق به من سائر الناس في الدنيا .

ولكنها دار الاهانة والعنا
فتُعساً لأهليها وخزياً لهم خزيا
تبدّدهم فتكاً ولايتركونها
وتسقيهمو سُمّاً يظنونه ريا
تسرّهم كيما تعنّ بفعلها
وتلهيهمو نزراً وتفريهمو فرياً

وقد أطلنا الكلام ، ولولا خوف السآمة لذكرت من محاسن هذا الامير ونوادره وأشعاره شيئاً كثيراً . وبالجملة فانه زينة امراء عصره ، ومع شهرته التامّة وأدبه الغض لم يذكره أحد من المؤرخين . ولم أظفر بشيء من خبره إلا ني وريقات بخط ابراهيم رامي ، وهذا من أعجب العجب . وقد ذكر ابراهيم المذكور ان وفاته ليلة النصف من شعبان سنة تسع عشرة وألف ، ودفن امام داره بجامع المرابد عند والده وأجداده . قال ابراهيم المذكور ، واخبرني بعض أفاضل حماة ممن كان ينخرط في سلك ندماء الامير حسن بن الاعوج ، قال : دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه ، فعند دخولي أقبل بريد من الباب العالي ، وبشره بامارة حماة . وكان له مدّة لم يتولها . وناوله من يده

منشور الحكومة . فالتفت إلى البريد ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، وتنفس الصعداء ، وقال بصوت ضعيف : قضي الامر الذي فيه تستفتيان . قال : فدعوت له بطول العمر ، وسليته عما كان فيه من الاضطراب ، والألم . فتلهف . وتفجع ، وبكى بكاءً شديداً ، ثم مسك يدي وقال : أرى الامر قد آن ، وقرب الارتحال ، ولا أرى لي مخلصاً بعد ما أنا فيه من شدّة المرض . ثم أنشد بديهاً لنفسه :

لايحسب الانسانُ بعد ذهابه
مكث الاسى في عشرةٍ وقرينِ

في الحالِ يعتاضون عَنْه بغيره
ويعود ربُّ الحزن غير حزين

العندليبُ الوردُ كان أمامَه
لما قضى غنّى على النسرين

ثم فارقته ، ففي تلك الليلة قضى نحبه ، ولقي ربه . رحمه الله تعالى .

* * *

(**حسين باشا**) بن جانبولاذ الكردي ، أمير الامراء بحلب . كان في ابتداء أمره من المتفرّقة (١) . ثم تولى امارة كلّس منصب والده . وعزله عنه أخوه الامير حبيب ، وشبت العداوة بينهما ، ثم استمرّا يتعازلان . فتولى ديو سليمان كلّس ، فاحتاج إلى جمع السكبانية . وكان ابتداء كثرتهم وظهور قوانينهم من عبد الحليم اليازجي احد أتباع المسطور . ولما سجن صاحب الترجمة بحلب ، وبيعت جميع أسبابه وعقاراته ، بأبخس الاثمان ، لمال سلطاني كان عليه ، تولى كلّس بعد ذلك . وصمم على الامتناع من تسليمها ، ان عزله أحد . فكان اذا عزل من جانب السلطنة ، سعى في العود من غير تسليم المتولي الجديد . فعلم أكابر الدولة انهم اذا صمموا على عزله شق العصا فتركوه ، وارتضوا بالمال . فكثرت أجناده وأمواله . وكان له مروءة ، وفتوة ، ومحبة للعلماء، والصالحين ، إلا أنه كان ظالماً لاحتياجه إلى علوفات السكبانية . وكان له فضيلة في علم الفلك ، والزايرجا ،والتقويمات ، والرمل ، وصرف أكثر عمره في ذلك . ولما توجه محمد باشا الوزير ابن

---

(١) فرقة من فرق حرس السلطان . وكانت لا تغادر الجانب الأيسر للسلطان خلال المعارك . ولا تقوم بخدمة عسكرية إلا في هذه الظروف .

سنان باشا الوزير الاعظم سرداراً على حسين باشا ، أمير لواء الحبشة ،وكان خرج عن الطاعة وشق العصا ، وسببه انه لما تولى امارة الحبشة أخذ منه أكابر الدولة مالاً جزيلاً استدان غالبه ، ثم عزلوه سريعاً فشق العصا مغاضباً لهم ، فتوجه صاحب الترجمة لحربه صحبة السردار . فقدم إلى كلّس خارجي من السكبانية يقال له رستم ، ومعه من البغاة أجناد كثيرة . وكان ضابط كلس عزيز كتخدا ، من جماعة صاحب الترجمة . فبعث واستنجد بعساكر حلب . منهم العسكر الجديد ، فخرجوا لنصرته واجتمعوا جميعاً . فتقابلت الاجناد ، وقام بينهم سوق الحرب والطعن والضرب . فانتصر عسكر رستم على عسكر كلس وحلب ، وقتل عزيز كتخدا ، وقتل من العسكرين ما لا يحصى ، وولوا منهزمين . فنهب الخارجي كلس ، وصادر أعيان أهل القرى . ولما تولى نصوح باشا كفالة حلب ، وكان عساكر دمشق تغلبوا على حلب ونواحيها ، وأمره السلطان أحمد باخراجهم ، وعجز عن ذلك ، فاستعان بصاحب الترجمة. فبعث ابن أخيه الامير علي بعسكر عظيم . فاصبح نصوح باشا ، وقد أخذ القلعة ، ووضع متاريس تحت قلعة حلب ، واستعدت

جماعته ، فكانوا نحو ستمائة . فأخذت العساكر الدمشقية باب بانقوسا . واستعدّوا وجمعوا عساكرهم نحو الالفين ، وهم لايعلمون ان صاحب الترجمة بعث عساكر . فاحضر نصوح باشا اليه كنعان سردار الدمشقيين ، واخبره ان السلطان رفعهم من الاستخدام، وأمر باخراجهم من حلب بعيالهم ، فامتنعوا . ثم تواردت الاخبار انّ الامير علي بن جانبولاذ وصل إلى قرية حيلان ، بعساكر لاتحصى . فخرجوا في الظلام ، و لم يبق منهم أحد . وفي اليوم الثاني دخل الامير علي بالعساكر المتكاثفة . فتبعهم نصوح باشا ، ومعه الامير علي إلى قرية كفرطاب . فوقع بينهم محاربة ، فانهزم الدمشقيون ، بعد ماقتل منهم جم غفير . فصادر نصوح باشا أقاربهم واتباعهم ، وفعل حسين باشا مع نصوح باشا هذا الفعل . فأخذ نصوح باشا يتكلم بين الناس انه يريد قتل حسين باشا . فسمع الخبر فأخذ في جمع العساكر ، وبعث جماعة إلى السردار سنان باشا ابن جغالة الذي أرسله السلطان لقتال الشاه ، فبلغ ذلك نصوح باشا فاشتدّت عداوته . فعزم على المفاجأة بالقتال ، لكون كلس قريبة من حلب . فخرج في عساكره مجداً ،

حتى وصلها في يوم واحد . فقابل حسين باشا بعساكره . والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا ، وقتل أكثر عساكره ، ودخل حلب منهزماً . ثم في اليوم الثاني أخذ في جمع الاجناد . وبذل الاموال ، لتكثير العدد والاعداد ، ظناً منه ان صبح سعده أسفر . ثم جاء رسول من السردار سنان باشا ابن جغالة يخبره بالاوامر السردارية ، انه قد صار حسين باشا كافل الممالك الحلبية ، وعزل نصوح باشا منها . فلبس نصوح باشا جلد النمر . وامتنع من تسليم حلب لحسين باشا . وقال : اذا واوا حلب لعبد أسود أطيع ذلك ، الا ابن جانبولاذ . فما مضى أسبوع إلا وقد أقبلت عساكر حسين باشا بجموعها إلى قرية حيلان ، فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب ثانياً ، فانكسر ثانياً . فنزل حسين باشا بعساكره في محلات حلب ، خارج السور . وأغلق نصوح باشا أبواب المدينة ، وسدّها بالاحجار ، وفتح باب قنسرين ، وحرسه بعساكر أوقفهم هناك ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ، ومنع الميرة والطعام عن داخل المدينة . ونصب حسين باشا متاريس على أسوار المدينة ، وصفّ عساكره على الاسوار مع المكاحل . وقامت بينهم حرب البسوس : وأخذ حسين باشا في حفر اللغوم ، والاحتيال على أخذ البلدة ؛ ونصوح باشا في

حفر السراديب ، لدفع اللغوم . وعم الحلبيين البلاء من المبيت على الاسوار ، وحفر السراديب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء ، كل يوم وليلة لطعام السكبانية وعلوفاتهم . وأغلقت الدكاكين ، وتعطلت الصناعات ، وحرقت الأخشاب للطعام ، والقهوة ، بسبب قطع حسين باشا الميرة حتّى الخشب والحطب . ونزل البلاء من جانب السماء على حلب ، فبيع مكوك الحنطة بمائة قرش ريال . وجرة السيرج (١) بثمانية عشر قرشاً ، ورطل لحم الخيل الكديش بنصف قرش ، والتينة الواحدة بقطعة ، وأوقية بزر البطيخ بأربع قطع . وأعظم من في البلد يجد أكل البصل والخل من أحسن الاطعمة . وكان بعضهم يأخذ الشمع الشحمي ويضعه في طعام الارز والبرغل . وكان العساكر لايجدون التبن ، بل يأخذون الحصر وينقعونها في الماء ، ويقطعونها ويطعمونها للخيل بدلاً عن التبن . وكل فقير يغرم في اليوم قرشين ، والمتوسط عشرة ، والغني عشرين . واستمر الحصار نحو أربعة أشهر وأياماً . ثم قدم السيد محمد المشهور بشريف قاضياً بحلب ، فنزل خارج المدينة ، وأخذ يسعى في الصلح . ثم عقد الصلح . ولم يرض نصوح باشا الا بأيمانات السكبانية

---

(١) السيرج : زيت السمسم

وعهودهم ، فان لهم عهوداً وثيقة . فحلّفهم بالسيف أن يكون آمناً على نفسه وأمواله ، وانه اذا تعرضه حسين باشا يقاتلونه معه . ثم أمر الشريف نصوح باشا أن يذهب بنفسه إلى حسين باشا ويصالحه ، لكون نصوح باشا كان ضرب بنت حسين باشا وأخذ أموالها. فذهب ومعه شاطر واحد إلى منزل حسين باشا ، فأكرمه وسقاه شربة سكر ، بعدما امتنع نصوح باشا. فشرب حسين باشا من الاناء قبله فاقتدى به وشرب . ولما ذهب كان لابساً درعاً تحت الثوب ،وظن الناس خروج نصوح باشا خفية ليلاً ، خوفاً من حسين باشا وعساكره . فلم يكن الامر كذلك بل خرج بعساكره وطبوله وزموره وقت الغداة ، فودعه حسين باشا . واستولى على الديار الحلبية . وشحنها من السكبان ، وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان . ثم أمر سنان باشا حسين باشا بالتوجه اليه لقتال الشاه . فقدّم رجلاً وأخر أخرى ، وتثاقل عن السفر . حتى حصلت الكسرة ببلاد العجم للعساكر العثمانية ، في وقعة مشهورة قتل فيها جماعة من الامراء ، وكانت في سادس عشري جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وألف . فلما رجع الوزير سنان باشا ابن جغالة ، أدركه حسين باشا في رجعته بمدينة وان فقتله لتأخره . في السنة المذكورة.

وكان يريد جعل ابن أخيه الامير علياً قائماً مقامه بحلب، فلما بلغه قتل عمه تملّك حلب، وخرج بها على السلطنة ، وتولدت من ذلك فتن عظيمة سنذكرها في ترجمة الامير علي ان شاء الله تعالى .

* * *

(**حسين باشا**) الوزير المعروف بصاري حسين ، أي الأصفر . وهو أخو سياغوش باشا الوزير الاعظم . كان من الوزراء . له الصولة الباهرة . والهيبة العظيمة . وكان فيه تلطف بالرعايا . وانتقام من ذوي الكبر . والمناصب . ولي حلب مدّة . ثم نقل منها إلى نيابة الشام ، في سنة احدى وثمانين وألف . وعينه السلطان وهو نائبها . لسفر قنيجة من بلاد اللية ، فتوجه اليها وفي خدمته العساكر الشامية . وتعين هو وبعض الوزراء للمحاربة . فكسر هو ورفقاؤه . وشاع أنّ الكسرة كانت بسوء تدبير منه . فغضب عليه السلطان ، وعزله عن حكومة الشام . ورفع منه رتبة الوزارة ، وأمره بالاعتزال في داره بقسطنطينية . فأقام مدّة منعزلاً ، حتى لم يبق فيه رمق . ثم عطفت عليه والدة السلطان . وشفعت له بمنصب التفتيش بولاية أناطولي . فوليه وظهر سعيه فيه لطرف السلطنة . فجوزي على ذلك بحكومة الشام ثاني مرّة . فقدمها . ومهد أمورها

بعد اختلال كان أصابها من حكامها ، وساس الرعية سياسة عجيبة ، ولزم كل أحد حدّه في عهده . وعمر القصر المعروف به الآن في طرف الشرف ، بالميدان الاخضر من دمشق ، وكان مكانه يعرف قديماً بالخاتونية . وتأنق في وضعه ، وغرس فيه أنواع الاشجار من كل صنف . وعز عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة ، فجلب من أماكن بعيدة. والحاصل انه أثر أثراً حسناً. وفي أيامه وقع الجراد بدمشق ثلاث سنين متواليات ، فبعث رجلين من أهل دمشق إلى أنقرة ، ليأتيا بماء السمرمر ، الذي يقال انه اذا كان في بلدة يطرد الجراد عنها . وكان وصولهما إلى دمشق في أواخر المحرّم سنة ثلاث وتسعين وألف . فأمر حسين باشا بخروج الصوفية بالاعلام ، وعامة الناس بالتهليل ، إلى لقائه . فدخلوا به على سفح قاسيون من ناحية القابون ، حتى وضعوا منه حصة على رأس المنارة الغربية بالجامع الاموي ، وحصة على منارة جامع المصلى . قلت: وماء السمرمر هذا قد ذكره غير واحد ، منهم ابن الوردي في (خريدة العجائب) ، في فصل عجائب العيون والآبار . قال : عين سرم وهي بين اصفهان وشيراز ، بها مياه مشهورة ، وهي من عجائب الدنيا . وذلك ان الجراد اذا نزلت ، ووقعت بأرض ، يحمل اليها من

تلك العين ماء في ظرف . أو غيره ، فيتبع ذلك الماء طيور سود تسمى السمرمر ، ويقال لها السوادية ، بحيث ان حامل الماء لايضعه الارض ، ولايلتفت وراءه ، فتبقى تلك الطيور على رأس حامل ذلك الماء ، كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الارض ، التي بها الجراد . فتصيح الطيور عليها ، وتقتلها ، فلا ترى من الجراد متحركاً أبل يموتون من أجل تلك الطيور . انتهى.

وذكر ابن الحنبلي في تاريخه ، ان من شرطه أن يكون الوارد به من أهل الصلاح ، ولايمر به تحت سقف . وقال الصلاح الصفدي في الجزء الثاني والثلاثين من تذكرته : قال الشيخ شمس الدين أبو الثنا محمود الاصبهاني ، ان بمدينة قشمير مسيرة ثلاثة أيام عن أصبهان ، عين ماء سارحة برزة يسمى ماؤها بماء الجراد ، له خاصية ان من حمل من مائها في اناء إلى الارض التي أتاها الجراد ، فيعلق ذلك الاناء في تلك الارض ، فيقصدها ما لايحصر من طير يقال له سار ، يأكل مافيها من الجراد حتى يفنى . وشرط هذا الاناء أن لا يمس الارض في طريقه ، ولا في مكان تعليقه انتهى .

ثم أمر حسين باشا بالسفر إلى محاصرة قلعة بتيج من بلاد

الانكروس (١) . فسافر اليها ومعه عسكر الشام . وكان الوزير الاعظم قره مصطفى باشا قد سبقهم إلى بلغراد ، وجعلها مجمع العساكر جميعها . ولما تكامل جمع الجموع رحل بهم اليها ونازلوها . وكاد أن يفتحوها عنوة ، قدر الله تعالى ماقدّر من مجيء جيش كبير من الكفار وكسروا عسكر المسلمين ، وفرقوهم في تلك النواحي ، كما سنفصله في ترجمة الوزير مصطفى باشا المذكور . ونسب الوزير هذه الكسرة إلى فشل بعض الوزراء ، ومنهم حسين باشا صاحب الترجمة ، فأراد قتله . فكانت منيته أسبق ، فتوفي في غضون ذلك . وكانت وفاته في شهر رمضان سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله تعالى :

* * *

(**خليل باشا**) ابن عثمان ، المعروف بابن كيوان ، أمير الحاج الشامي . وهو أخو ابراهيم المقدم ذكره في حرف الهمزة . كان من صدور دمشق ، وأعيانها ، المشهود لهم بالرأي الصائب ، والدولة الباهرة . وتخوّل في نعم ورفاهية عيش ، وتملك الاملاك الكثيرة ، وانقاد له الزمن ، وأحبه أركان الدولة . وملأ صيته برّ الشام حتى هابه عربانها

---

(١) بلاد المجار .

وغيرهم ، وكانوا يراجعونه في مهماتهم . وينقادون لأمره ، ولا يخالفونه في حال من الاحوال . وقد أسلفنا في ترجمة أخيه ابراهيم ، أنه كان تفرغ عن منصبه في العسكر لاخيه خليل هذا ، وكان ذلك ابتداء ظهوره . وسافر إلى فتح ايوار ، في خدمة الوزير الاعظم أحمد باشا الفاضل ، سنة خمس وسبعين وألف . واتصل به فأحبه وقربه وعاد إلى دمشق وقد رأس . ثم فرغ عن منصبه لابن أخيه حسين ، وهو على الآتي ذكره ان شاء الله تعالى . وتقاعد هو بعلوفة في خزينة الشام مدّة ، إلى أن حدث من الامير حمد بن رشيد ، أمير بادية الشام ، في حق الحجاج ماحدث . من النهب والغارة . وفعل في الامير موسى بن تركمان حسن الآتي ذكره مافعل من القتل . واستمر في غيه وضلاله ، وأمر الحاج في اختلال مدّة سنين . ولم يتفق اصلاحه بحال ، حتى عرض ذلك على أركان الدولة ، فرأوا من الصواب تولية خليل باشا هذا أمر الحاج . فولي الامرية وظهرت فيها كفايته ، وأطاعته جميع العربان . واستمر ثلاث سنين والحجاج في أيامه مطمئنون ، في بلهنية من العيش ورخاء وراحة ، إلى أن توفي وهو متوجه بهم في أول السنة الرابعة

من توليته . تمرض يوم طلعة المحمل ، ويقال ان نائب الشام سقاه سماً ، فخرج مع المحمل وهو يجود بنفسه . فأدركه أجله بالصنمين ، وحمل إلى المزيريب . وكانت وفاته أواخر شوال سنة اثنتين وتسعين وألف . وقبره بالمزيريب ظاهر ، وأظنه ماجاوز عمره الستين بكثير رحمه الله تعالى .

* * *

(**الأمير رضوان**) بن عبدالله الغفاري ، أمير الحاج المصري ، الكرجي الاصل . كان في ابتداء أمره ، من مماليك ذي الفقار ، أحد أمراء مصر المشهورين ، بالشأن العظيم والدولة الباهرة . اشتراه صغيراً ، واعتنى بتربيته . ولما مات مولاه المذكور رق حاله ، ثم استغنى ، ونبه قدره . وكان وقوراً مهيباً . وله سكون ، وديانة ، ورياسة . واشتهر صيته ، وعظمت دائرته ، حتى صار أربعة من مماليكه مثله ، أصحاب لواء وعلم ، مع مايتبعهم من الجند ، والكشاف ، والملتزمين . وله الآثار الحسنة في طريق الحاج المصري ، والحرمين . وكان حسن السيرة ، خصوصاً في بر الحجاز . فكان معتنياً بأهله ، يرسل صرّهم من حين وصوله إلى ينبع ، إلى مكة ، ويتسمه عليهم قبل وصول الحاج ، وكل من

له حاجة منهم بمصر قضاها بأيسر حال . ومكث نيفاً وعشرين سنة أميراً على الحاج . وفي اثناء ذلك وقع له محنة ، في زمن محمد باشا سبط رستم باشا الآتي ذكره . وكان اذ ذاك محافظ مصر ، بسبب أمر افتري عليه . فعرض فيه الوزير المذكور إلى باب السلطان ، فجاء الامر الشريف بعزله عن امارة الحاج . فلما بلغه توجه للاعتاب العالية هارباً ، واجتمع بالسلطان مراد . فحبسه ، وأمر ببيع جميع أملاكه ، وعقاراته . فبقي محبوساً مدّة ، وتكرر اجتماعه بالسلطان مراد . فلم يأذن الله تعالى بانطلاقه إلا بعد موت السلطان المذكور ، وتولية أخيه السلطان ابراهيم السلطنة . ثم أطلق فعاد إلى مصر . وأخذ جميع ماذهب له ، بعضه هبة ، وبعضه شراء ، وانعقدت عليه رياسة مصر . ووقع له محنة أخرى في زمن أحمد باشا ، فان الامير رضوان سعى في نقض أمر الوزير المذكور ، وتغييره من محافظة مصر ، وفاوض جماعة من الاعيان في ذلك ، فلم يوافقه الجند على ذلك . وتوجه الامير رضوان إلى الحج ، والمنافرة واقعة ، فراسل الوزير الامير علي حاكم جرجا ، وألقى بينه وبين الامير رضوان العداوة ، ونصبه أمير الحاج مكانه ،

ووجه جرجا لاحد مماليك الامير علي . وقدم الامير علي من جرجا إلى مصر . ولما قرب قدوم الحاج استشار الامير علي بعض أصحابه في استقبال الامير رضوان ، فأشاروا عليه بأن يفعل ، الا قليلاً من الاخصَّاء ، فانهم أنكروه . فتبع رأي الأول ، وصمم على الاستقبال ، وخرج بجمعية عظيمة . ولما اجتمع هو والامير رضوان تسالما ، ولم يبد من أحدهما مايغير خاطر الآخر ، وكان كل منهما يجل الآخر ويعرف حقه . وأقاموا يومهما ، والامير رضوان مفكر في أمر الاجتماع بالوزير ، وفيما ينجر اليه حاله . فقام من المجلس وبقي جميع الامراء ، والاعيان ، وطلع إلى جانب ، ووضع مِجَنّاً (١) تحت رأسه ، وأخذ يفكر . فاتفق انه جاء في ذلك الوقت خبر عزل الوزير عن مصر ، وانه صار مكانه عبد الرحمن باشا الخصي ، ومر متسلمه على العادلية وسار إلى مصر . فجاء رجلان إلى البركة محل نزول الحاج ، وهما في قصد الامير رضوان ، ليبشراه . فلما أخبرا بمكانه أسرعا اليه وأيقظاه ، وأخبراه بذلك . فكان ذلك له من باب الفرج بعد الشدة . فأتى المخيم ،

(١) المجن : كل ماوقى من سلاح . وتعني (الترس) أيضاً .

القوم كلهم جلوس . ولما استقر به الجلوس التفت إلى الامير مصطفى الدفتري بمصر . وأخبره جهاراً بالخبر . فتعجب الجميع من ذلك ، وظنوا انه رأى مناماً . ثم أخبرهم بحقيقة الامر فصدقوا . ودخل مصر ، فلم يتفق له اجتماع بالوزير ، واصطلح هو والامير علي صلحاً لافساد بعده . وبالجملة فان هذين الاميرين كانا من الافراد ، وهما زينة ملك آل عثمان . وكانت وفاة الامير رضوان في سنة ست وستين وألف.

* * *

(**سنان باشا**) الوزير الاعظم . صاحب الآثار العظيمة في البلاد ، من جملتها الجامع بدمشق خارج باب الجابية ، والحمام ، والسوق ، المتفق على حسن وضعهم ، ودقة صنعتهم . وله مثل ذلك في كل من القطيفة ، وسعسع ، وعيون التجار ، وعكة ، مع خانات ينزلها المسافرون . وله ببولاق جامع عظيم ، ومثله باليمن ، وقسطنطينية ، وغيرها من البلاد . جوامع ، ومساجد ، ومدارس ، وخانات ، وحمامات ، تنوف على المائة . وبالجملة فهو أكثر وزراء آل عثمان آثاراً ، وأعظمهم نفعاً للناس . وكان وزيراً عالي القدر ، رفيع الهمة ، ولي الحكومة بمصر ، في زمن سلطنة السلطان سليم بن سليمان . ومن غريب ما وقع له

وهو حاكم بها ، انه لما تعين الوزير لالا مصطفى باشا إلى
فتح اليمن ، سار إلى مصر ، وتقاعس بها عن السير ، رجاء
أن تضم له امارة الامراء بمصر إلى سردارية العساكر
المعينة لليمن . فاتفق مع بعض خواصه أن يضيف سنان باشا ـ
ويضع له السم في المشروب ، ثم دعاه فأجاب . وكان الشيخ
أدهم بن عبد الصمد العكاري ، المقدّم طرف من أخباره
في ترجمة ابن جلال ، من معتقدي سنان باشا . وهو عنده
بمنزلة مرشده ومربيه ، ولا يصدر في الامور إلا عن رأيه .
فاستدعاه ، وقال له: قم نذهب إلى الضيافة . فقال له: والله
ماأنا بذاهب معك ، ولكن احترز أنت على نفسك ، فاني
أخاف عليك ، والقوم عازمون على أن يضروك . فلما
قدموا اليه الاناء المسموم في ماء الشعير المحلى بالسكر ،
لم يتناول منه شيئاً . ودعا بعض الامراء الحاضرين إلى شربه ..
فقال له من دعاه: أما أنا فلا أشرب من هذا الاناء . فازداد
وهمه . فقال رجل واقف للخدمة: إلى متى تتوقفون في شربه ،
وتناوله ليشربه . فلما وضعه بين شفتيه تناثر لحم فمه في
الحال ، ووقع مقدّم أسنانه ، وسقط شعر لحيته ، فألقى
الكأس من يده . وعلم الحاضرون بالقصة ، فقام سنان باشا ،

وهو يقرأ قوله تعالى﴿ ولا يَحيقُ المكرُ السيِّءُ الا بأهله﴾ ، ونادى بفرسه فركبها وذهب ، ثم عينه السلطان إلى اليمن . وكان السبب في ذلك ، ان إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن ، كان داخلاً في حوزة سلاطيننا العثمانيين في أيام السلطان سليمان . وكان له نائب واحد ، واستمر زماناً ، إلى أن فوضت حكومته لاثنين ، وعين لكل منهما حدّ من البلاد ، فكان ذلك باعث الاختلاف ، والجدال . وكان مطهر بن شرف الدين يحيى الزيدي لعب الشيطان بعقله ، وسوّلت له نفسه العصيان . فصادف انقسام المملكة وصول خبر وفاة السلطان سليمان . فقطع الطريق ، وحاصر تعز ، وصنعاء ، وسلب كثيراً من امراء . فلما وصل الخبر إلى السلطنة عينوا مصطفى باشا ، كما تقدّم ، ثم عزلوه ، وعينوا مكانه سنان باشا سرداراً على العساكر . فتوجه وأصلح ماكان اختل ، واستنقذ ماكان مطهر أخذه ، بعد وقائع وأمور يطول شرحها ، وهي مذكورة في تاريخ القطب المكي . وفي ذلك يقول بعضهم من أبيات :

وما يَمَنٌ إلا ممالك تُبَّعٍ
وناهيك من ملك قديم ومن فخر

تملَّكَها من آل عثمان اذ مضت
بنو طاهر أهل الشآمة والذكر
فهل يطمع الزيدي في ملك تُبَّع
ويأخذه من آل عثمان بالمكر
أبى الله والاسلام والسيف والقنا
وسر أمير المؤمنين أبي بكر

ثم انه بعد تمهيد هذا الامر ، عاد فدخل مكة المشرفة ، وحج حجة الاسلام ، وصادف الحج فلم يفته . وأنشأ بمكة آثاراً حسنة منها : تعميره حاشية المطاف ، دائرة حوله مفروشة بالحصى ، يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية كالافريز لها . فأمر أن تفرش هذه الحاشية ، بالحجر الصوّان المنحوت ، ففرشت به في ايام الموسم ، وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف من بعد أساطينه . وصار مابعد ذلك مفروشاً بالحصى الصغار ، كسائر المسجد الحرام ، وهذا الاثر خاص به . ومنها تعميره سبيل التنعيم ، أنشأه وأمر باجراء الماء اليه من بئر بعيدة ، يجري الماء منها إلى السبيل ، في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنُّوْرَة ، وعيَّن

لها خادماً يستقي من البئر ، ويصب في الساقية ، فيصل الماء إلى السبيل ليشرب منه ، ويتوضأ المعتمرون . وعيّن لمصارف ذلك من ريع أوقاف له بمصر . ومنها آبار حفرها بقرب المدينة المنوّرة ، لقوافل الزوّار ، في وادي مفرّع وغيرها ، كثيرة النفع جداً . ومنها قراءة ختمة شريفة في كل يوم ، يقرؤها ثلاثون نفراً بمكة ، وأخرى بالمدينة . ثم بعد أن قدم إلى تخت السلطنة ، عينه السلطان سليم إلى فتح حلق الوادي، ببلاد تونس الغرب . وكان النصارى استولوا عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين الغرب من آل حفص : فصار بعضهم يقوى على بعض بالفرنج ، وأطمعوهم في بلاد المسلمين . فاستولوا عليها ، وتمكنوا منها ، وحصّنوا الحصون ، وأحكموا القلاع ، بحيث أيس المسلمون من فتحها ، وصاروا تحت حكم الفرنج . واخذوا مملكة تونس ، ووضعوا السيف في أهلها ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد . فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب(١)، مشحونة بالابطال والمدافع وآلة الحرب ، وعين معهم سنان باشا ، وقلج علي باشا . وكانت غزوة مشهورة من أعظم

(١) نوع من السفن .

غزوات بني عثمان ، يحتاج تفصيلها لمؤلف ، فنقتصر منها على خلاصتها . وهو أن المسلمين انتصروا على الكفار ، وقتلوا منهم عشرة الآف مع الحصار المديد ، والقتال . ومن العجب أن الفرنج كانت بنت هناك حصاراً حصيناً ، وقلعة منيعة ، أقاموا في استحكامها ، واتقان بنائها ، ثلاثاً وأربعين سنة . فافتتحها سنان باشا في ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها ، وذلك في سنة احدى وثمانين وتسعمائة . ثم خرب الوزير القلاع والحصون ، فلم يبق لها رسم . ثم توجه سنان باشا إلى دار السلطنة ، فولي بعد مدة الوزارة العظمى ، وذلك في زمن السلطان مراد الثالث ، في شهر ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وتسعمائة . ثم عزل عنها ، وولي بعدها نيابة الشام . وشرع في عمارة الجامع المذكور أولاً . ثم ولي الوزارة العظمى بعد ذلك أربع مرات ، عزل من الثالثة في شهر ربيع الاول سنة أربع بعد الالف ، وصار مكانه لالا محمد باشا . فبعد ثلاثة أيام توفي محمد باشا فاعيد إلى مكانه ، ولم تطل مدته فتوفي في شعبان من تلك السنة . وكان في أحد تولياته الوزارة تعين لمحاربة الكفار المعروفين بالنمسة . ووقفت على ترجمة له ، ترجمه بها منشيء الديوان

عبد الكريم بن سنان ، ذكر فيها غزوه مع الكفرة .
ومن زبدتها قوله : ملأ بقتلاهم الهضب والبقاع وأخذ منهم القلاع والبقاع ، وجبر قلوب الاسلام بكسر الصلبان والاصنام . ومن غريب فتوحاته تسخير الحصن الموسوم بيانق ، وهو على مايقال اسماك السماء معانق . أحكمت يد الدهر بنيانه ، وقد أزرى بالهرم في الحصانة ، وأهله يقطفون بأيديهم نرجس الكواكب ، ويثقبون بأسنتهم دراري الثواقب.

يزرُّ عليه الجوُّ جيبَ غمامـــهِ
ويلبسها من رونق الانجم الزهر

وقد أحاطت به الانهار احاطة الهالات بالاقمار ، وكم ورد فيها لحياض المنية من ورد ، ولبس من حيكها المنسوج بيد الشمال زرداً على زرد .

فيالله من عَجَبٍ دلاصٌ (١)
يَرُدُّ به الحمامُ غدتْ حِماماً

وتيسر فتحه في نحو سبعين يوماً ، وجفون الغزاة لم تكتحل بغير نقع الهيجاء ، ولم تذق نوماً . وقد تثبتوا في

---

(١) درع دلاص : لينة ملساء .

الحرب تثبت الجبال ، علماً بأنها بين الرجال سجال . فهناك باحت أغماد السيوف بأسرارها ، فطارت غربان البنادق من أوكارها . وكم قتيل غدا بألسنة الاسنَّة مكاماً ، وأصبت درعه تبكي عليه بألف عين دماً . والاعداء كأنما أجسادهم جرائر ، يحملها من الدماء السيل،وكأنما رؤوسهم أُكَرٌ ، تلعب بها صوالج الايدي والارجل من الخيل. شكر الله مساعيه الراضية، وأحله في قصور الجنان العالية • انتهى .

* * *

(**الأمير شديد**) بن أحمد ، الامير حاكم العرب . وهو من آل جبار ، حكام العرب ، أباً عن جدّ . يقال إنهم ذرية جعفر البرمكي . ومقام هؤلاء في بلاد سلمية (١) ، وعانا(٢) ، والحديثة (٣) . ومن عادتهم ، أن من استولى منهم على خيمة المال والسلاح يكون حاكماً على العرب جميعهم . وذلك أنلهم خيمة من الشعر كبيرة جداً ، ولها

(١) مدينة في سورية إلى الجنوب الشرقي من حماة .

(٢) ـ(٣) مدينتان في العراق ، على نهر الفرات ، الأولى (عانة) شرقي البوكمال السورية والثانية (الحديثة) جنوب (عانة) .

نواطير ، وحرس بالنوبة في اليوم والليلة. وكلها صناديق مقفلة بالاقفال الحديد المحكمة ، والصناديق مملوءة من الذهب ، والفضة ، والجوهر ، والسلاح ، وغير ذلك من نفائس الاشياء النفيسة. وكان « شديد » استولى عليها بعد أبيه أحمد . وكان ظالماً ، جباراً ، عنيداً ، متكبراً ، خسيساً ، قبيح المنظر ، والفعل ، والوصف ، غير محسن في شيء من الاشياء . ولم يزل حاكماً إلى أن مات في سنة ثمان عشرة بعد الالف . واتفق في هلكه عجيبة : انه كان في خيمة في بعض صحارى حلب ، وكان ابن عمه مدلج بن ظاهر معه في الخيمة . وكان « شديد » يلعب بالشطرنج مع بعض أقاربه ، ولم يكن عنده من إخوته أحد . فاختلس مدلج الفرصة في خلو الامير ، فناداه وهو يلعب ، ياشديد ياشديد . فقال : نعم . فما أتم قوله نعم ، الا ومدلج قد ضربه بخنجر في بطنه خرج من ظهره . ولم يحتج في إخراج روحه ضربة أخرى . ولقد أرسل الأمير فخر الدين بن معن مكتوباً يخبر فيه عن قتل شديد، وقال في مكتوبه : إن تاريخ قتله قد اتفق في هذه الكلمات ، وهي قوله (مدلج قتل شديد ولد أحمد) . ومن العجب، أن والد شديد ، أحمد ، كان قتل

ظاهراً والد مدلج في بيته ، وهوضيف عنده . فقدّر الله أن ولد المقتول قتل ولد القاتل . قلت : وهذا ظاهر ، هو ابن مدلج المترجم في « الكواكب السائرة » . وهو ظاهر ابن عساف ، بن عجل ، بن مظين ، بن قدموس. كان أمير عرب الشام . وله قوّة وبطش ، بحيث يمسك الدرهم من الفضة بأصبعيه ويفركه فيذهب نقشه ، ويفتت الحنطة بين أصبعيه . ومن عجيب أمره ، أنه دخل عليه ولده قرموش ، وهو مريض ، ليقتله ، فضربه بسيف فقتله . وشرب شخص لبناً حليباً ، وكان بيد امرأة . فشكته اليه فاستخبره ، فأنكر ، وحلف بحياته أنه لم يشربه . فطعنه برمح كان بيده ، فاذا اللبن خارج من جوفه . فأمر المرأة بأخذ بعير من بعرانه ، عوض لبنها . ومات على فراشه ؛ وذلك في سنة خمس وأربعين وتسعمائة انتهى .

* * *

(**الشاه عباس**) بن سلطان محمد ، خدا بنده ابن طهماسب ، ابن شاه اسمعيل ، بن سلطان حيدر ، بن سلطان شيخ جنيد ، ابن سلطان شيخ صدر الدين ابراهيم ، بن سلطان خواجه علي ، ابن شيخ صدر الدين موسى ، بن سلطان شيخ صفيّ

الدين أبي اسحق ، بن شيخ أمين الدين جبريل ، بن السيد صالح ، بن السيد قطب الدين أحمد ، بن السيد صلاح الدين رشيد ، بن السيد محمد الحافظ كلام الله ، بن السيد عوض الخاص ، بن السيد فيروز شاه درين كلاه ، بن محمد شرف شاه ، بن محمد ، بن أبي حسن ، بن محمد ، بن ابراهيم ، ابن جعفر ، بن محمد ، بن اسماعيل ، بن محمد ، بن أحمد العراقي ، بن محمد قاسم ، بن أبي القاسم حمزة ، بن الامام موسى الكاظم ، بن الامام جعفر الصادق ، بن الامام محمد الباقر ، ابن الامام علي زين العابدين ، بن الامام الحسين ، بن الامام علي بن أبي طالب ، رضوان الله تعالى عليهم . هذا نسب سلاطين العجم ، الذين منهم صاحب الترجمة . وأول من بالغ في التشيع وأظهره سلطان حيدر ، وكان ذلك في سنة ست وتسعمائة. وقيل في تاريخه : (مذهبناحق). ويروى أن بعض أهل السنة سمع هذا التاريخ ، فقال : (مذهب ناحق) على النفي. فإن (نا) في الفارسي اداة نفي . ومن ذلك العهد ، هاجر كثير من أهل السنة الذين في بلادهم إلى كثير من البلاد . وتغلبت سلاطين بلادنا العثامنة على ملوكهم ، من عهد السلطان سليم الأول . فانه ركب على شاه إسماعيل وأخذ منه بلاداً

وقهره . وكذلك فعل السلطان سليم الثاني فانه جهز عليهم جيشاً ، فأخذوا منهم تبريز ، وشروان ، وكيلان (١) ، وروان ، وكثيراً من القصبات والولايات . واستمروا مغلوبين إلى أن ظهر شاه عباس صاحب الترجمة ، فولي السلطنة بخراسان في سنة خمس وتسعين وتسعمئة ، مكان والده في حياته . وكان جلوسه بقزوين لكون والده كان أعمى . وقد استولت في أيامه أمراء قزلباش (٢) على الدولة ، واتخذوها حصصاً فسفك فيهم ، واستقل بالامر . وكان في ابتداء أمره يداري طرف آل عثمان، ويرسل ابن أخيه حيدر بالهدايا والتحف ، إلى أن مات ملك الاوزبك ، أوزبك خان ، وولده عبد المؤمن ، في سنة عشر بعد الالف. وكان ملوك الاوزبك أخذوا من خراسان بلاداً ، فاستخلصها واحدة بعد واحدة . ثم قصد جدال آل عثمان لما كان وقع

(١) أو جيلان . مقاطعة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين (شمال غربي إيران) .

(٢) قزلباش كلمة تركية تتألف من مقطعين : قزل وتعني أحمر وباش . الرأس ، أي أصحاب الرؤوس الحمراء . ويقصد بهم جنود الدولة الصفوية ، لأنهم كانوا يضعون قلنسوات حمراء على رؤوسهم .

من الاختلال بسبب الجلالية (١) الذين ظهروا في زمن السلطان أحمد. ونقض العهد الذي بينه وبينهم ، وحاصر مملكة تبريز ، وروان ، واستولى عليهما . ثم أخذ قندهار (٢) من بلاد الهند ، واستولى على خوارزم (٣) ، وكيلان ، وسجستان ، ثلاثاً وأربعين سنة. وكان سلطاناً صاحب جأش ، وقوّة مكر ، غداراً محتالاً ، فاسترد بعض البلاد . وتقوى في العسكر والعدّة ، فأخذ بغداد من يد آل عثمان . وقد قدّمنا سبب أخذه لها ، وانه كان الفاعل لذلك بكر ، كبير عسكرها ، وان الشاه دخلها بمخامرة منه ، ومن ابنه محمد ، وفعل مافعل فيها ، وفي أهلها . وكان أخذه لها في ثالث شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين وألف . واستمرت في يده إلى سنة ثمان وأربعين ، فأخذها من يده السلطان مراد . وسنذكر خبر أخذها ان شاء الله تعالى في ترجمة السلطان مراد المذكور . ومن ذلك العهد لزم شاه عباس حدّهم

---

(١) اسم أطلق على الثائرين على الدولة العثمانية في بلاد الأناضول من أمثال عبد الحليم اليازجي و اتباعه .

(٢) مدينة في إقليم (سجستان) ، شرقي إيران ، وغربي الهند .

(٣) الاقليم الغربي من بلاد ماوراء النهر ، الواقع شرقي بحر قزوين .

الاصلي الذي كان في زمن الشاه اسمعيل ، ولم يتجاوزه ، لاهو ولا أبناؤه ، إلى يومنا هذا . وطال عمره في السلطنة وبلغ من العزة والحرمة نهاية أمانيه . وخدمه أجلاء العلماء في مناصبه ، منهم الشيخ الاستاذ محمد بهاء الدين بن حسين الحارثي الهمذاني الشامي ، فانه كان مفتيه ومشيد أركان دولته ، باسمه ألف كثيراً من كتبه ، ورسائله ونوّه به . وقد رأيت في بعض كتبه غريبة ، حكاها في سياق ذكره . قال : ان سلطان زماننا خلد الله ملكه ، وأجرى في بحار التأبيد فلكه ، عرض له يوماً في مصيده خنزير عظيم الجثة ، طويل السن الخارج ، فضربه بالسيف ضربة نصفه بها نصفين . ثم أمر بقلع سنه ، والاتيان بها اليه ، فوجد مكتوباً عليها لفظ الجلالة . بخط بين مثبت ناتيء منها . فحصل له ، ولنا ، ولمن حضر المصيدة من العسكر المنصور ، نهاية العجب فان ذلك من أغرب الغرائب . ولما أرانيها ، أدام الله نصره وتأييده ، قال لي: كيف يجتمع هذا مع نجاسة الخنزير ؟ فقلت له : ان السيد المرتضى قائل بطهارة ما لاتحله الحياة من نجس العين. ووجود هذا الخط على هذا السن ، ربما يؤيد كلامه،طاب ثراه . فان

السن مما لا تحله الحياة انتهى. ومن المقربين اليه من الحذاق ، الحكيم شفائي . وكان حكيمه وطبيبه ونديمه الخاص . وكان شاعراً مطبوعاً ، مليح التخيل . وكان عند الشاه في المكانة المكينة . ثم غضب عليه ، فحمى ميلاً حديداً وكحله به ، فأعماه ، وأبعده عن مجلسه ، وأحواله . وأموره غريبة جداً . ومما يحكى عنه في باب اللطائف والنكات مما يستظرف ، وأبدعها ، ماكان يقع له مع الرسول المرسل اليه من طرف سلطاننا السلطان مراد المسمى بانجيلي جاويش . وكان طلق اللسان ، حاضر الجواب ، نهاية في اللطائف والاعاجيب . وكان الشاه يبتدره بمخترع من الفعل أو القول ، ويقصد بذلك الازراء بجانب سلطاننا . فيجيبه عنه بأحسن جواب ، يدفع به ذلك الازراء ، وربما قلب عيانه فازرى بطرف الشاه . وكان الشاه يعجب من تيقظه ، وينتقل معه انتقالات عجيبة ، خارجة عن الازراء . ومن جملتها ، انه جلس الشاه يوماً على حرف جبل في الصحراء ، والجاويش المذكور عنده . فقال له الشاه : أتحبني ؟ فقال له : نعم . فقال : ان كنت تحبني ، فارم بنفسك من هذا الجبل إلى تحت . فقام ومشى مسافة بعيدة إلى ظهر

الجبل ، ثم رجع وهو يركض حد الركض ، حتى انتهى إلى طرف الجبل ، ثم وقف . فقال له الشاه : مالك ؟ فقال : محبتي لك انتهت إلى هذا المحل ، وأراها لاتتجاوزه . وله من هذا القبيل أشياء أخر . وللشاه عباس في سياسة الرعية والرعاية لجانبهم ، والذب عنهم ، واكرام التجار الواردين إلى بلاده من أهل السنة ، أحوال مستفيضة شائعة . وبالجملة فلم يجيء من سلسلتهم مثله . وكانت وفاته في جمادى الاولى سنة ثمان وثلاثين وألف ، بدار ملكه ، مدينة أصفهان . ودفن بأردبيل ، في تربة الشيخ صفي الدين ، وكان عمره ينيف عن السبعين .

* * *

(**الأمير علي**) بن أحمد ، بن جانبولاذ ، بن قاسم الكردي القصيري . قد أكثر أهل التاريخ والمجاميع ، ممن لقوا واقعته ، من ذكره ، وذكر مافعله بدمشق ، وماجرى لحكام الشام وأهلها معه من الوقائع . وقد اخترت من ذلك ماأودعته في هذه الاوراق من مبدأ أمره إلى منتهاه . وأما ذكر أصله ومنزعه : فجدّه جانبولاذ هذا كان يعرف بابن عربوا . وكان أمير لواء الاكراد بحلب ، ولي حكومة المعرّة ، وكلّس ، وعزاز ، وكان له صيت شائع ، وهمة

عليّة . ومبدأ الامير علي هذا ، انه كان في طليعة عمره ، ولي حكومة العزيزي . وقد تقدّم في ترجمة عمه حسين باشا ، انه لما قتله الوزير ابن جغال لتراخيه في أمر السفر الذي كان عين له ، خرج الامير علي عن طاعة السلطنة،وجمع جمعاً عظيماً من السكبانية ، حتى صار عنده منهم مايزيد على عشرة آلاف . ومنع المال المرتب عليه ، وقتل ، ونهب ، في تلك الاطراف . ودبر على قتل نائب حلب حسين باشا ، وكان ولاه السلطان نيابتها . ووصل إلى اذنة ، وكان باذنة حاكم يعرف بجمشيد ، فكتب اليه ابن جانبولاذ أن يصنع له ضيافة ، ويقتله ، ففعل، ونما خبره إلى الاقطار . واستمر في حلب يظهر الشقاق . إلى أن أرسل الامير يوسف ابن سيفا ، صاحب عكار إلى باب السلطنة رسالة ، يطلب فيها أن يكون أميراً على عساكر الشام . والتزم بازالة الامير علي عن حلب . فجاءه الامر على ماالتزم . وأرسل إلى عسكر دمشق ، وأمراء ضواحيها ، يطالبهم إلى مجتمع العساكر ، وهو مدينة حماة . فتجمعوا هناك من كل ناحية . وجاء ابن جانبولاذ إلى حماة ، وتلاقيا ، وتصادما . فما هو الا ان كان اجتماعهم بمقدار نحر جزور ، فانكسر

ابن سيفا ، وأتباعه ، ورجع بأربعة أنفار . واستولى ابن جانبولاذ على مخيمه ، ومخيم عسكر الشام . ثم انه راسل الامير فخرالدين بن معن ، أمير الشوف وبلاد صيدا ، وأظهر له انه قريبه ، مع بعد النسبة ، فحضر اليه ، واجتمعا عند منبع العاصي . وتشاورا على أن يقصدا طرابلس الشام لاجل الانتقام من ابن سيفا . فسار ابن سيفا في البحر ، وأخلى لهم طرابلس ، وعكار ، وأرسل اولاده وعياله إلى دمشق . وأجلس مملوكه يوسف في قلعة طرابلس ، فتحصن بها . وبعث ابن جانبولاذ ، الامير درويش بن حبيب ابن جانبولاذ إلى طرابلس فضبطها ، واستولى على غالب اموال من وجد هناك ، واستخرج دفائن كثيرة لاهلها ، ولم يستطع أن يملك قلعتها . وسار الامير علي ، ومعه ابن معن ، إلى ناحية البقاع العزيزي من نواحي دمشق . ومرا على بعلبك ، وخربا ماأمكن تخريبه منها ، واستقرا في البقاع ، وأظهرا انهما يريدان مقاتلة عسكر الشام . ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق ، حتى استقر في وادي دمشق الغربي مايزيد على عشرة آلاف . وتزاحف العسكران حتى استقر

ابن جانبولاذ وابن معن في نواحي العرّاد (١) . وزحفه العسكر الدمشقي إلى مقابلتهما . وكان ابن سيفا وصل إلى دمشق ، وأظهر التمارض ، ولم يرحل مع العسكر الشامي . واستمرت الرسل متردّدة بين الفريقين ليصطلحا فلم يقدر لهم الاصطلاح . وتزاحف الجيشان ، فتوهم ابن جانبولاذ من صدمة العسكر الشامي ، فشرع في تفخيذ(٢) أكابر العسكر عن الاتفاق ، وأوقع بينهم . ثم أرسل إلى طائفة من أكابرهم ، فوردوا عليه في مخيمه ليلاً ، وألبسهم الخلع ، وتوافقوا معه على انهم ينكسرون عند المقابلة . وكان في جانب ابن جانبولاذ ابن معن ، وابن الشهاب أمير وادي التيم ، ويونس بن الحرفوش ، فطابت نفسهم لملاقاة الشاميين . وتقابل الفريقان في يوم السبت من أواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشرة بعد الالف ، ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين . ثم في صبيحة نهار الاحد ، وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا . فما مر مقدار جلسة خطيب ، الا وقد انفلّ العسكر الشامي ، حتى قال ابن جانبولاذ : العسكر الشامي ماقاتلنا ، وانما قابلنا

---

(١) واد يقع شمال قرية الصبورة التابعة لمنطقة قطنا ، غربي دمشق .
(٢) تفريق .

للسلام علينا . فلما ولّى عسكر دمشق، زحف ابن جانبولاذ حتى نزل بقرية المزة ، وكان نزوله في الخيام . وأما ابن معن فانه كان ضعيف الجسد في هاتيك الأيام ، وكان نزوله في جامع المزة . وأصبحت أبواب البلدة يوم الاثنين مقفلة ، وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلاً ، بعد ان اجتمع به قاضي القضاة بالشام ، المولى ابراهيم بن علي الانيقي، وحسن باشا الدفتري ، المقدّم ذكرهما، ولم يمكّناه من الخروج حتى دفع اليهما مائة ألف قرش ، ليفتدوا بها الشام من ابن جانبولاذ . ثم خرج ومعه الامير موسى ابن الحرفوش. ولما بلغ الامير ابن جانبولاذ خروجه غضب ، وقال : أهل دمشق لو أرادوا السلامة مني، مامكنوا ابن سيفا من الخروج ، وهم يعرفون انني ماوردت بلادهم الا لاجله . ونادى عند ذلك بالسكبانية أن يذهبوا مع الدروز جماعة ابن معن ، لنهب دمشق . فوردت السكبانيةوالدروز أفواجاً إلى خارج دمشق ، وشرعوا في نهب المحلات الخارجة . فلما اشتدّ الكرب والحرب على المحلات ، وتلاحم القتال ، خاف العقلاء في دمشق . فخرج جماعة إلى ابن جانبولاذ ، وقالوا له: ان ابن سيفا قد وضع لك عند قاضي الشام مائة

الف قرش . وتداركوا له خمسة وعشرين الف قرش اخرى ، كما وقع عايه معه الاتفاق ، من مال بعض الايتام التي كانت على طريق الامانة في قلعة دمشق . وبعد ذلك ادّاها ايضاً ابن سيفا كالمائة الف . فلما تكلم الناس في الصلح ، طلب ابن جانبولاذ المال الذي وقع عليه الصلح على يد الدفتري ، وقال : ان جاءني المال في هذا الوقت رحلت . فحملوا له مئة الف قرش وخمسة وعشرين ، ونادى بالرحيل عن المزة في اليوم الرابع من نزوله . واستمر النهب في اطراف دمشق ثلاثة ايام متوالية . وكانوا يأخذون الاموال ، والاولاد الذكور ، ولم يتعرضوا للنساء . ولما رحل ابن جانبولاذ ، ارتفع النهب عن المدينة ، وفتحت ابواب المدينة في اليوم الرابع . فازدحم الناس على الخروج افواجاً افواجا ، ودخل اليها من نهبت اسبابه من المحلات الخارجة ، فكانوا لايعرفون لتغير أسبابهم ووجوههم . وابتدأت العساكر الهاربةتتراجع إلى دمشق ، ولم يبالوا بما صدر منهم من الفضيحة. ولما فارق ابن جانبولاذ دمشق ، سار على طريق البقاع ، وفارق ابن معن هنالك ، ورحل إلى أن وصل إلى مقابلة حصن الاكراد ، واقام هنالك . وارسل إلى ابن سيفا يطلب

منه الصلح والمصاهرة . فأجابه وأعطاه مايقرب من ثلاث كرات من القروش ، وزوجه ابنته ، وتزوج منه أخته لابنه الاميرحسين . ورحل ابن جانبولاذ من هناك إلى جانب حلب . وجاءته الرسل من جانب السلطنة تقبح عليه مافعل بالشام. فكان تارة ينكر فعلته ، وتارة يحيل الامر على عسكر الشام . وشرع يسدّ الطرقات ، ويقتل من يعرف انه سائر إلى طرف السلطنة لابلاغ ماصدر منه ، حتى أخاف الخلق . ونفذ حكمه من ادنة إلى نواحي غزة . وكان ابن سيفا ممتثلاً لامره ، غير تارك مداراة السلطنة . واتفق معه على ان تكون حمص تحت حكم ابن سيفا ، وكانت حماة وما وراءها من الجانب الشمالي إلى ادنة في تعلق ابن جانبولاذ . وانقطعت أحكام السلطنة عن البلاد المذكورة نحو سنتين . ووقعت الوحشة ، وانقطعت الطرقات إلى أن ولي الوزارة العظمى ، مراد باشا . وكان سافر في ابتداء وزارته إلى الروم ، وأصلح مابين السلطان ومابين سلاطين المجر ، فلما قدم ، عينه السلطان لدفع ابن جانبولاذ وبقية الخوارج ، مثل العبد سعيد ، ومحمد الطويل الخارج في نواحي سيواس . فقدم الوزير المذكور ومعه من العساكر الرومية مايزيد على ثلاثمئة

ألف ، مابين فارس وراجل . وكان كلما مر بقوم من السكبانية الخارجين ، يقتلهم ، حتى أزال السكبانية الخارجين. ولم يبق سوى العبد سعيد ، والطويل محمد ، فانهما حادا عن طريقه ولم يستطع لحاقهما . ووصل إلى ادنه فخلصها من يد جمشيد الخارجي . ولما انفصل عن جسر المصيصة إلى هذا الجانب ، تيقن ابن جانبولاذ انه قاصده . فجمع جموعه المتفرقة في البلاد ، حتى اجتمع عنده أربعون ألفاً . وخرج من حلب ، والوزير في بلاد مرعش وجزم بمقابلته . وكان الوزير في أثناء ذلك يراسله بالكلمات الطيبة طمعاً في اصلاح أمره ، فلم يزدد الاعتوّاً . ولما تلاقى الفريقان برز عسكر ابن جانبولاذ إلى المقاتلة يومين ، ولم يظهر لإحدى الفئتين غلبة على الاخرى . ففي اليوم الثالث التحم القتال حتى كاد أن يكون عسكر البغاة غالباً . وكان من أعاجيب الامر أن وزيراً يقال له حسن باشا الترياقي ، وكان من جملة العسكر السلطاني ، رتب عسكر السلطان ، وقال : قاتلوا البغاة إلى وقت الظهر . فاذا حكم وقت الظهر ، فافترقوا فرقتين فرقة منكم تذهب لجانب اليمين ، وأخرى تذهب لجهة الشمال ، واجعلوا عرصة القتال خالية للاعداء وحدهم .

وقد أخفى المدافع الكبيرة في مقابلة العدو ، وملأ ها بالبارود . فلما افترق عسكر السلطان ، ظن حزب ابن جانبولاذ انهم كسروا ، فبالغوا في اتباع عسكر السلطان إلى أن كادوا يخالطونهم . فلما قربوا وخلت لهم عرصة القتال ، أطلقوا عليهم المدافع ، ولحقوهم بالسيوف ، إلى أن أزاحوهم عن خيامهم ، وكسروهم كسرة شنيعة ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وهرب ابن جانبولاذ إلى حلب ، ولم يقرّ بها الا ليلة واحدة ، فوضع أهله وعياله وذخائره في قلعتها ، وخرج منها إلى أن ألجأه الهرب إلى مَلَطْيَة (١). وبقي الوزير يتبع أعوان ابن جانبولاذ ، فأبادهم قتلاً بالسيف ، وجاء إلى حلب بالجنود ، فرأى قلعتها في أيدي بعض أعوان البغاة ، فرام محاصرتها . فتحقق من فيها أن كل محصور مأخوذ ، فطلبوا الامان من الوزير ، فأنزلهم بأمانه ، وكانوا نحو ألف رجل ، وكان معهم نساء ابن جانبولاذ ، وكان أكابر الجماعة أربعة من رؤوس السكبانية . فلما نزلوا بادروا إلى تقبيل ذيل الوزير ، فأشار إلى النساء بالكَن (٢)

(١) من المواقع الحصينة (الثغور) شمالي شرقي مرعش ، وقرب نهر الفرات في الأرض التركية اليوم .

(٢) الكن : الستر والصيانة .

في مكان معلوم ، وفرّق الرجال على ارباب المناصب .
وطلع إلى القلعة ورأى مابها من أموال ابن جانبولاذ ، وتحفه العزيزة ، فضبط ذلك كله لبيت المال . ثم شرع يتجسس في حلب على الاشقياء ، وأتباعهم، فقتل جملة من الاتباع . وهجم الشتاء ، ففرق العساكر في الاطراف ، وشتى هو في حلب. وأما ابن جانبولاذ فانه خرج من ملطية ، وسار إلى الطويل العاصي في بلاد اناطولي ، وأراد أن يتحد معه . فأرسل اليه الطويل يقول له: أنت بالغت في العصيان، وأنا وان كنت مسمى باسم عاص ، لكني ما وصلت في العصيان إلى رتبتك .فرحل عنه بعد ثلاثة أيام ، وسار إلى العاصي المعروف بقرا سعيد، ومعه ابن قلندر . ولما وصل إلى جمعية هؤلاء العصاة تلقوه ، وعظموه ، وحسنوا فعلته مع العساكر السلطانية،وأرادوا أن يجعلوه عليهم رئيساً . فشرط عليهم شروطاً ، فما قبلوها . فاطمأن تلك الليلة ، إلى أن هجم الليل وأخذ عمه حيدر ، وابن عمه مصطفى ، وابن عمه محمداً ، وخرج . ولم يزل سائراً حتى دخل بروسة مع الليل، وتوجه إلى حاكمها ، وأخبره بنفسه فتحيّر منه . ولما تحقق ذلك ، قال له : ماسبب وقوعك ؟ فقال ضجرت

من العصيان ، وها أنا ذاهب إلى الملك ، فأرسلني اليه في البحر . فأرسله من طريق البحر . فلما دخل دار السلطنة ، أعلم به السلطان ، فقال : أحضروه . فلما حضر اليه ، قال له : ماسبب عصيانك ؛ فقال له : ماأنا عاص ، وانما اجتمعت عليّ فرق الاشقياء ، وما خلصت منهم الا بأن ألقيتهم في فم جنودك ، وفررت اليك فرار المذنبين . فان عفوت فأنت لذلك أهل ، وأن أخذت ، فحكمك الاقوى . فعفا عنه ، وأعطاه حكومة طمشوار في داخل بلاد الروم ، ونجا بذلك . ولم يزل على حكومتها ، إلى أن عرض له أمر أوجب قتاله لرعايا تلك الديار . ولزم انه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم ، فعرض أمره إلى باب السلطنة الاحمدية ، فبرز الامر بقتله ، وعدم اخراجه من تلك القلعة . فقتل ، وأرسل رأسه إلى باب السلطنة ، وكان ذلك في حدود العشرين وألف والله أعلم .

* * *

(**علي باشا**) بن أحمد باشا، المعروف بكوزلجة . هو من بلدة استانكوي ، وجده لأمه قيا باشا ، فهو سيد صحيح النسب . قال ابن نوعي في ترجمته : كان أبوه أمير الامراء

بتونس من بلاد الغرب ، فلما خرج بتلك الدائرة الخارجي المعروف بيحيى ، وادّعى أنه مهدي الزمان ، حاربه أحمد باشا ، فقتل أحمد باشا في تلك الوقعة بعد حروب كثيرة . وكان ذلك في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة . وكان سن علي باشا اذ ذاك تسع سنين ، فبعد مدّة من قتل أبيه ، تسلط بعض عبيدهم على يحيى ، ووجد فرصة فقتله . ثم قدم علي باشا الروم فولي حكومة دمياط ، فضبطها خمس عشرة سنة؛ ثم قدم إلى طرف الدولة . وكان السلطان أحمد عازماً على التوجه إلى بروسة ، فأخذه في سفينته المعينة له ، وذلك في سنة أربع عشرة وألف . وفي تلك الاثناء أعطي ولاية اليمن ، فلم يقبلها . ثم عرضت عليه حكومة ماغوسة (١) قبرس ، فلم يقبلها أيضاً . ثم أعطي ولاية تونس فتصرف بها سنتين ، وعمر بها جامعاً . ثم أعطي حكومة مورة (٢) . وبعد ثلاث سنين نقل إلى حكومة قبرس ، ثم أعطي تونس برتبة الوزارة. ثم صار حاكم البحر (٣) ، في المحرّم سنة ست وعشرين

---

(١) مدينة فماغوستا في شرقي جزيرة قبرص .

(٢) جنوبي بلاد اليونان (شبه جزيرة البلوبنيز) .

(٣) إن تعبير (حاكم البحر) هو تعريب للقب (قبطان باشا) ، أمير ال البحر عند العثمانيين ، أي القائد الأعلى للأسطول .

وألف . واتفق له في سفرته الثالثة ، انه أخذ ستة غلايين (١) من غلايين الكفار ، وجاء بها إلى دار الخلافة . وأتى بغنائم كثيرة لاتعدّ ولا تحصى ، وأهدى إلى السلطان هدية لايمكن وصفها . فكانت جائزته من السلطان مصطفى ، أن ميزه على سائر الوزراء ، بزنجير ذهب يضعه لجواده اذا ركب . ثم صار صدر الوزراء في المحرّم سنة تسع وعشرين وألف . وأثر آثاراً حسنة، منهاجامع في جزيرة ساقِزْ (٢) وآخر في ينكي كوي قرب حصار روم ايلي من ضواحي قسطنطينية . وساق الماء لزاوية عمَّرهاالشيخ أمير بقصبة قاسم باشا قبالة قسطنطينية . وكانت وفاته في خامس عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وألف ودفن ببشكطاش في تربة مخصوصة . وكان عمره لما مات احدى وأربعين سنة . رحمه الله تعالى .

* * *

(**السلطان عمر**) بن بدر ، بن عبدالله ، بن جعفر الكثيري ، سلطان حضرموت بالشحر . ذكره الشلي ، وقال في ترجمته : كان حسن الشمايل ، وافر العقل ، كثير العدل . وكانت سيرته مرضية ، وله التفات تام إلى

(١) الغليون : نوع من السفن .

(٢) جزيرة خيوس في بحر إيجه .

الرعايا ، حسن السياسة ، صادق الفراسة ، صاحب أخلاق حميدة . قلّ أن ورد عليه أحد من الغرباء الاوصدر يثني عليه الثناء الجميل . وكان شجاعاً مقداماً . ولعبد الصمد باكثير فيه عدّة مدائح . وكانت وفاته سنة احدى وعشرين وألف . وأرّخ وفاته عبد الصمد المذكور ، بقوله : (رضاك). وتولى بعده ابنه السلطان عبدالله ، وكان حسن الخلق ، والخلق ، مهاب المنظر ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . ولي الملك ، فأحسن القيام به ، وأظهر السطوة ، وقهر البادية ، وغيرهم ، فهابته النفوس ، وأمنت البلاد . ثم حصلت له جذبة ربانية ، فلم يرض إلا بالدرجة العليا . وخرج عن أهله ، وماله ، وقصد الحرم الشريف ، واعرض عن الملك . وأقام بمكة إلى أن توفي في سنة خمس وأربعين وألف ، ودفن بالشبيكة .

* * *

(**الملك عنبر**) شنبو سنجس خان ، وزير الهند ومدبره ، ومرجع أهله . هو في الاصل حبشي من الامحرة . وتسمى قبيلته مايه . ويقال انه من عبيد القاضي حسين المشهور بمكة ، ثم اشتراه بعض التجار . وجلبه إلى الهند ، فاشتراه الوزير سنجس خان . ولما مات سنجس خان ، تنقلت بهالاحوال إلى أن

صار من عساكر عادل شاه صاحب بيجافور (١) ، من اقليم الدكن . وكان المال الذي يعطاه لايكفيه لكثرة سماحته وانفاقه ، فاستزاده من الوزير الاعظم فلم يزده . فخرج الملك عنبر من حينه خائفاً يترقب . وكان السيد الجليل ، علي حدّاد باعلوي ، قد وعده بأنه سيصير ملكاً عظيماً . فكان له ظهور عجيب ، يحتاج إلى تاريخ مستقل ، ولعذوبته ذكرته ، لكني لخصته من ملخص ماذكره الشلي في ترجمته . قال : وحاصله انه خرج من عند عادل شاه ، سنة ست بعد الالف ، وهو يومئذ مفلس ، وخرج معه السيد علي . ثم وصل به الحال إلى أنه لم يقدر على نفقة يومه. ثم أعلم السيد علياً بما هو فيه من ضيق الحال فدعا الله تعالى ، فوجدوا ركازاً (٢) جاهلياً . فاتسع أمره ، وأكثر من العساكر والاتباع . ولا زال أمره يعظم إلى ان ملك بلاداً كثيرة . وكان كلما ملك بلداً أوقرية أحسن إلى الرعايا ، وأظهر العدل والاحسان ، ونصب قاضياً للاحكام ، وحاكما للسياسة . ثم استدعاه السلطان حسين نظام شاه من سلاطين

---

(١) مدينة في الدكن غربي (حيدر آباد) وشمال شرقي (غوئا) .

(٢) مادفن من ذهب وفضة في الأرض .

الدكن . فانحاز اليه.وهو من أعظم سلاطين الهند . لكن مذهبه في الاعتقاد مذهب الرفض . وكان مقر سلطنته دولة آباد . وكان وزيره الاعظم كافراً شجاعاً فاتكاً . صاحب جيوش وأموال . مستولياً على المملكة . وكان الملك عنبر يعجز عن مقاومته . فصار يداريه ويترصد له فرصة . حتى قتله على حين غفلة . وولي مكانه الوزارة العظمى . ورأى السلطان محبته ، وجده . فأمدّه . واتفقت له وقائع كثيرة ، وفتح قلاعاً ، ونفذت كلمته ، واتسعت مملكته . وأخرب الكنائس ، وعمر شعائر الاسلام . ثم مات السلطان حسين نظام شاه ، وكان ولده برهان صغيراً . فعقد الملك عنبر له البيعة . ولم يكن له من السلطنة الا الاسم ، وجميع الامور بيد الملك عنبر ، كما كان الخلفاء العباسيون ببغداد . ثم استبدّ الملك عنبر بالامور ، واستمر في القتال والجلاد ، وأزال المظالم من تلك الجهة . وعمرها . وأخمد الفتنة والبدعة ، وعمر المساجد والمآثر . وكان مؤيداً في حروبه ومغازيه . مسدّداً في رأيه . مسعوداً في أحواله . وكان كثير الاحسان إلى السادة . وأهل العلم . وقصدته الناس من جميع

البلدان ، فغمرهم باحسانه . خصوصاً أهل تريم (١) من السادات . وكان يحسن لمشايخ الطريق ، والصوفية . وكان عصره أحسن الاعصار . وزمانه أنضر الازمنة . وكان يحمل كل سنة إلى حضرموت ، من الاموال والكسوات للسادة والمشايخ والفقراء مايقوم بهم سنة . وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم . والقصاد . ووقف ربعة قرآن بمدينة تريم . ووقف بمكة والمدينة مصحفين . واشترى في الحرمين دوراً . ووقفها على من يقرأ فيهما ويهدي ثواب القراءة اليه . ومن آثاره الحسنة أنه عقم(٢)نهر الكركي وهو نهر عظيم يمر تحت البلاد ولا تنتفع به . وسبب ذلك ان بعض وزراء عادل شاه وهو المنلا محمد الخراساني استبعد وقوع ذلك لسعته وكثرة مائه ، وظن انه يحتاج إلى عمل كثير لايقدر عليه أحد من المخلوقات ، وغرم مالاً كثيراً للملك عنبر إن قدر على ذلك . فشرع فيه ، وساعد القدر فكمل العمل في خمسة أشهر . وجعل له قنوات تجري إلى البساتين . والزراعات وكثر به النفع . وجمع من في ذلك المكان من السادة والاعيان وأنعم عليهم ، وأجزل الصدقات .

---

(١) مدينة في حضرموت ، جنوبي شبه الجزيرة العربية .

(٢) تابع الحفر سهلا .

وكانت عمارته في سنة أربع وعشرين وألف ، واخترع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان . ومن ألطف ماقيل فيه : (خير جاري).وأكثر من شراء الحبوش،وكانت التجار تجابهم اليه ، ويتغالون في أثمانهم ، إلى أن كثروا جداً . يقال انّ جملة مااشتراه من الذكور نحو ألفي حبشي . وكان الجالب ، أوّل مايشتريه ، يسلمه إلى من يعلمه القرآن ، والخط ، ثم إلى من يعلمه الفروسية ، واللعب بالسيف والعود والسهام ، إلى أن يتفرّس في أنواع الحرب والحيل والخداع ، ثم يترقى . وصاروا يترقون في المراتب ، ويتفاضلون في المناصب ، كلٌّ بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته . وكان لهم اعتناء باقامة الجماعة ، وأمور الدين . وكان لكل أمير منهم فقيه ، يتعلم منه الفقه وأمور الدين ، وامام يصلي به ، ومؤذن، وجماعة يتدارسون القرآن ، وجماعة يذكرون الله تعالى ليلة الجمعة والاثنين . وكان لكل أمير سماط مملوء بأنواع الاطعمة الفاخرة . وبالجملة ، فانهم وان كانوا عبيداً حبشة ، فلم تكن العرب تفوقهم الا بالنسب . وقصده جماعة من مشاهير شعراء عصره من البلاد الشاسعة ، ومدحوه بأحسن المدائح . وكان

السلطان ابراهيم عادل شاه أظهر له العداوة والحسد .
وبلغ غاية جهده في اضمحلال هذا الرجل ، وبذل أموالاً
كثيرة لمن يقتله أو يسمه فلم يقدر له ذلك . ومن عداواته
انه عزم جهان كير (١) أعظم سلاطين الهند لمقاتلته .
وعهد اليه أن يبذل له في كل مرحلة مائة ألف هُن ،
والهُن بضم الهاء نحو دينار ذهباً . فأرسل جهان كير بعساكر
وخيل وأفيال ضاق عنها الفضاء ، وجرى على مراد الله القدر .
وأقبل عادل شاه بعساكر من الجانب الثاني ، وأيقن كل من
عند الملك عنبر بالهلاك . فجمع من عنده من السادة الاشراف
والعرب ، وطلب منهم أن يجتمعوا للدّعاء كل يوم .
وبذل الخزائن للعساكر . وأقبل بعساكره على القتال .
ثابتين ثبات الجبال . وحمل بمن معه ، فقتلوا خلائق لايحصون ،
وأسروا من وزراء جهان كير وعادل شاه أربعين ، أو
يزيدون ، ورجع الملك عنبر ظافراً منصوراً . ثم بعد ذلك
جرد الحمام سيفه عليه ، ومزق جلباب ملكه ، وتوفي
في سنة خمس وثلاثين وألف . وأكثر الناس ، والضعفاء .

---

(١) ابن السلطان (أكبر) الذي دعم الامبراطورية المغولية المسلمة شمالي الهند . وقد حكم جهان كير من (١٦٠٥ م حتى ١٦٢٧م) .

والفقراء ، والارامل والايتام ، من البكاء حول جنازته . ويقال انه لم يعهد عند أهل الهند مثل ذلك اليوم . ودفن بالروضة ،وهي موضع بالقرب من دولة آباد . وعمل على قبره قبة عظيمة ، وللناس فيه اعتقاد عظيم ، وتحترمه الملوك والسلاطين . ومن استجار بقبره لايقدر أحد أن يناله بمكروه . ورثاه الشعراء والفضلاء بأحسن المراثي ، وعمل الادباء لعام وفاته تواريخ نظماً ونثراً . ومن أحسنها نثراً قول بعضهم : (الجنة مثواه) . وكان موته بالسم . وبعد موت الملك عنبر ، فوّض السلطان برهان نظام شاه ، تدبير مملكته إلى **عبد العزيز فتح خان** ، أكبر أولاد الملك عنبر ، وجعله أمير الامراء . وكان شجاعاً مقداماً ، كبيراً سخياً ، لكنه قليل التدبير ، مبذِّر ، لايصغي لقول مشير . وارتكب الامر الفظيع ،فكان حجّاجَ زمانه.ووقع بسببه فتن ، ثم تضعضع الزمان ، وآل ذلك إلى حصاد العلم والدين ، إلى ان رماه الدهر عن قوس وزارته . ثم خربت تلك الديار ، وذهبت بهجتها ، وتخلقت ديباجتها . قال الشلّي قلت : وقد تكرر ذكر الدكن في هذه الترجمة ، وقد يتشوق إلى الوقوف على معرفته من لاله معرفة بحقيقته . وتفاصيل

أمره تحتاج إلى تأليف كبير ، ولايحتمل هذا المحل الا اليسير ، فلنذكره بطريق الاجمال لضيق المجال . ومجمل ذلك انه اقليم عظيم من أقاليم الهند التي هي أم الدنيا ، كثير الحصون والقلاع ، حسن الهواء ، كثير الامطار والأنهار والبساتين ، أعدل الاقطار . وفيه حصون وقلاع في غاية الاستحكام والاتقان ، وكل قصر شامخ له شرف في السماء باذخ ، تحاكي الاهرام في احكام البنيان . عالية البناء ، تسامي السماء . وهي الروضة المورقة ، والغيضة المونقة ، وقلاعها مشحونة بآلات الحرب، والمدافع الكبار ، مملوءة بالمكاحل الكثيرة ، حصينة الحصار . وأهل حرفه أحذق الفطناء ، وأفطن الحذاق : فما من صنعة الا ومن مشربهم مطلعها ، ومامن حكمة إلا وعندهم شرفها واليهم منزعها ، وما من حرفة توجد إلا وجدتها فيهم ، ومامن عمل يعرف الا اجتنى من مغانيهم . ومن أحسن بلاد الهند بلدة بيجافور . وفيها وقف عليّ عادل للسادة والعرب ، أوقف عليها أراض ، تصرف غلتها للسادة والعرب وفي . هذه البلدة وهي محل السلطنة مكان عظيم الشان ، محكم البنيان ، تحته بركة كبيرة ، كأنما عناها الشاعر بقوله :

وبركة للعيون تبدو

في غاية الحسن والصفاء

كأنّها إذ صفت وراقت

في الارض جزءٌ من السماء

خفيفة الماء العذب ، لطيفة الهواء الرطب ، وبستان معروف الاشجار، مونق الثمار . وهو منتزه بديعي حسن . وبمحاسنه يذهب عن القلب الحزن :

عليه من بهاء البدر نور

ووصف الشمس يكسوه الشعاعا

وفي هذا المكان خزانة من الخشب ، وعليه ستور . وداخل الخزانة قبضة من ذهب . فيها من الآثار الشريفة : أعني آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، شعرات من شعره . وفي كل ليلة جمعة وليلة اثنين ، يجعل للعرب خبز ، وحلوى . ومن أعظم حصونه حصن دولة آباد ، الذي ضاهى إرَم ذات العماد . وهو عجيب الوضع والبناء ، بحيث يزعم الناظر اليه انه من وضع الجنّ لغرابة أمره . ومن عادة سلاطينها ، وملوكها ، ووزرائها ، انهم يعتنون بالليالي

الفاضلة : كليلة العيدين ، وليلة عاشوراء ، والمولد ، والمعراج ، والنصف من شعبان . وليالي رمضان يحيونها بالذكر ، وتلاوة القرآن ، وتنشد المدائح النبوية السائر بها الركبان . ويجتمع عندهم في تلك الليالي ، العلماء ، والصلحاء ، والقراء ، والكبراء ، والفقراء . ويملون لهم الاسمطة العظيمة ، ويفرغ على كواهلهم التشاريف الجسيمة . وقد سبقهم إلى تعظيم بعض هذه الليالي كثير من الملوك . فقد ذكر المؤرخون ان الملك المظفر صاحب إربل ، كان ينفق ليلة المولد النبوي ألف دينار . وقد قيل في سماطه في بعض الموالد ، فيما حكاه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ، خمسة آلاف رأس غنم مشوي ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف زبدية حامضة ، وثلاثون ألف صحن حلوى . ويخص أعيان العلماء بالخلع والكرامات . ويطلق لهم عنان العطيات . انتهى . ثم حصل لهاتيك الديار تغير واضمحلال بسبب انهم اتخذوا رؤساء جهلاء والله أعلم .

* * *

(**الأمير فخرالدين**) بن قرقماس بن معن الدرزي ، الامير المشهور ، من طائفة كلهم أمراء . ومسكنهم بلاد

الشوف (١) . ولهم عراقة قديمة . ويزعمون ان نسبتهم إلى معن بن زائدة ، ولم يثبت . وكان بعض حفدة فخرالدين حكى لي عنه ، أنه كان يقول : أصل آبائنا من الاكراد . سكنوا هذه البلاد ، فأُطلق عليهم الدروز ، باعتبار المجاورة لا أنهم منهم ، وهذا أيضاً غير ثابت . فانهم منشأ زندقة هذه الفرقة وكثرتهم . وفخرالدين هذا ولي امارة الشوف من جانب السلطنة ، بعد موت أبيه . وعلا شأنه ، وتدرج إلى أن جمع جمعاً كبيراً من السكبان . واستولى على بلاد كثيرة ، منها صيدا ، وصفد ، وبيروت ، وما في تلك الدائرة من أقطاع ، كالشقيف ، وكسروان ، والمتن ، والغرب ، والجرد . وخرج عن طاعة السلطنة . ولما وصل خبره إلى مسامع الدولة ، بعثوا لمحاربته أحمد باشا الحافظ نائب الشام ، وكثيراً من أمراء هذه النواحي . فلم يقابلهم ، وهرب إلى بلاد الفرنج ، وأقام بها سبع سنين ، إلى أن عزل الحافظ عن نيابة الشام ، فطلع إلى مستقرّه في شوّال سنة سبع وعشرين وألف . وزاد بعد ذلك في الطغيان . والاستيلاء

---

(١) الجزء الجنوبي من لبنان ، حيث دير القمر وجزين .

الا عتواً وكبراً . وبلغت شهرته الآفاق،حتى قصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه . ورأيت مدائحه مدونة في كتاب ، يبلغ مئة ورقة ، وأكثرها قصائد مطولة . وأمّا المقاطيع ، فلم استحسن منها الا هذا المقطوع ، أنشده اياه عطاء الله السامولي المصري يخاطبه به :

يـَراعاك ان أبكيته ضحاك الندى
وعـَضْبك (١) ان أضحكته بكت العدا
فسيمة هذاك اعتدى قطَّ رأسه
وسيمة هذا قطرأس من اعتدى

ولما تحقق السلطان مراد مخالفته وتعديه ، بعث لمقاتلته الوزير المعروف بالكوجك المقدّم ذكره ، وعين معه أمراء وعساكر كثيرة . فركب عليه وقتل أوّلاً ابنه الامير علياً ، ثم قبض آخراً عليه ، وجهزه إلى طرف السلطنة ، فقتله السلطان،وقد تقدم تفصيل ذلك في ترجمة الكوجك . وكان قتله في سنة ثلاث وأربعين وألف . وأنشد بعض الادباء في ذلك :

(١) العضب : السيف القاطع

على البلاد. وبلغت اتباعه إلى نحو مائة ألف من الدروز والسكبان. واستولى على عجلون ، والجولان ، وحوران ، وتدمر ، والحصن، والمرقب ، وسايمية. وبالجملة فانه سرى حكمه من بلاد صفد إلى انطاكية . وتنبل ولده الامير علي ، وولي حكومة صفد . وكان وقع بين فخر الدين وبين بني سيفا ، حكام طرابلس الشام ، حروب شديدة . ودهمهم مرة ، فنهب طرابلس ، وأباد كثيراً من ضواحيها ، وكان سبباً لخراب البلاد . ثم صاهر بني سيفا هو وابنه . وتزوجا منهم ، وجاءهما أولاد . ولما ولي نيابة الشام الوزير مصطفى باشا بعد عزله عن مصر في سنة ثلاث وثلاثين ، قصده بعسكر الشام . وكان الشاميون قد خامروا عليه . فلما وقع المصاف بين الفريقين ، بالقرب من عنجر ، ولى العسكر الشامي هرباً . فانكسر مصطفى باشا كسرة منكرة ، وقبض عليه ابن معن ، وأخذه إلى بعلبك مقيداً في الباطن ، مطلوقاً في الظاهر . وبقي عنده إلى أن وصل الخبر إلى دمشق . فاجتمع علماؤها ، وكبراؤها ، وذهبوا إلى ابن معن ، ورجوا منه فكاكه ، فأطلق سبيله . وقدم دمشق فانتقم ممن كان السبب له في الركوب . ورجع فخر الدين إلى بلاده ، ولم يزل بعد ذلك

ابن معن ماكان الا خبالا

ضعضع الكونَ واستمال ومالا

مكّن الله منه أحمد باشا

وكفى الله المؤمنين القتالا

ورأيت في المجموع الذي جُمعت فيه مدائحه أن ولادته كانت في سنة ثمانين وتسعمائة . وقيل في تاريخ ولادته خطاباً لوالده :

ياأمير الجود هُنّئت بمن

آنس الكون وحيّا الأهلا

قد غدا الدين به مفتخرا

أرّخوه فخر دينٍ هلاّ

* * *

(**الامام القاسم**) الملقب بالمنصور بالله . بن محمد ، ابن علي ، بن محمد ، بن علي ، بن الرشيد ، صاحب اليمن. وتقدّم ذكر بقية نسبه في ترجمة ابنه الامام اسماعيل ، المتوكل على الله . قال السيد روح الله عيسى ، بن لطف الله ، ابن المطهر ، في كتابه(الانفاس اليمنية في الدولة المحمدية) : « اعلم أن هذا الامام يعني القاسم ، ماالآبائه وأجداده في

الرياسة ، التي هي قود الجنود . وخفق البنود ، قدم ولاقدم ، ولا كان لسلفه علامة ولا علم . وكان أبوه من عسكر والدنا المطهر بن شرف الدين . وله رزق يجري عليه من جملة العسكر ، الذين هم غير مرابطين . وشهد مع والدنا الحرب التي جرت بينه وبين الوزير الاعظم سنان باشا ، وذلك في قاع خوجان . وكان مولد القاسم في سنة ثمان وستين وتسعمائة . ولما بلغ سنّ الاحتلام ، قرأ القرآن . وكان فيه فطنة ، وقوة . ولازم الامام الحسن ، الذي أدخله الوزير حسن باشا الروم ، وأقام عنده في بلاد الاهنوم . وبعد سفر الامام الحسن ، فارق تلك البلاد . ومابرح ينتقل في البلدان ، ويطلب العلم . ولما أدرك طرفاً من العلوم ، دعته نفسه إلى أن ينهض على فترة من الفتن . وذلك أنه علم أن البلاد كانت لوالدي لطف الله بن المطهر ، قد خلت عن واليها ، وتعطلت من كاليها . فدعا وقام لثلاث بقين من المحرّم ، سنة ست وألف في محل يقال له جديد قارة ، من أعمال شام الشرق . فاتقدت عند ذلك الجمرة ، وبزغ نجم الفتن » . انتهى كلامه . وقال غيره : كان من أمره ، أنه لما توفي المتوكل عبدالله ، بن علي ، بن الحسين ، بن عزالدين ،

ابن الحسن بن علي المؤيد ، في سنة ست عشرة وألف ، ظهر الامام القاسم في اليمن . وكاتبه الامير عبد الرحيم ، ابن عبد الرحمن ، بن مطهر ، مكاتبات اتفقا عليها ، منها فتح الحرب على السلطنة . وبث الامام الرسائل على كافة القبائل ، على جاري عادته ، فأجابوه . وقامت الحرب على ساقها ، فوجه الوزير سنان باشا المحاط على الامام وعبد الرحيم . فضعف الامام القاسم عن المقاومة ، فعطفت العساكر على عبد الرحيم . وحين رأى الامام اشتغال العساكر بعبد الرحيم ، نهض على حصن شهارة ، وتحصن به . ثم وصلت الاخبار للوزير سنان باشا بأن السلطان أنعم باليمن على جعفر باشا ، فتوجه من صنعاء إلى الابواب السلطانية ، فأتاه الاجل وأُلحد بالمخا . وسبب موته ، انه لما نزل من صنعاء أراد الاجتماع بجعفر باشا ، وهو بتعز ، فأكثر الناس الاراجيف ، وأرهبوا جعفر باشا من لقاء سنان باشا . وفهم الامراء منه ذلك ، فألجؤوه إلى المرور في أوعر المسالك . فلما وصل إلى المخا ، مات في شعبان من سنة ست عشرة وألف ، ودفن إلى جنب قبر الشيخ الامام علي بن عمر الشاذلي . وكان يحب العلماء والفقراء ، وآثار خيراته

كثيرة . ووصل جعفر باشا إلى صنعاء في شوّال . ولما دخلها رأى تقوّي الامام القاسم بمساعدة عبد الرحيم ، فصالح الامام في ذي الحجة سنة ست عشرة وألف ، على جهات معلومة . وفك أولاده من حصن كوكبان ، فأطلقهم الوزير ، وأحسن اليهم . ووجه العسكر على عبد الرحيم فأسره ، وأرسله إلى الابواب السلطانية . ثم استمرّ الامام القاسم والياً ، إلى أن حاربه الباشا وحصره في حصن شهارة . فخرج منه متنكراً ولم يشعر به أحد . وبقي ولده ، محمد المؤيد ، إلى أن عجز وضاق حاله ، فخرج بالأمان على أن يكون قراره عند صاحب كوكبان . وخرج باخوانه ، وأهله ، وقبض الباشا حصن شهارة . ثم مات ليلة الثلاثاء خامس عشر شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وألف ، وخلف عدّة أولاد ، منهم محمد ، والحسن ، والحسين ، وهو أعلمهم ، وأحمد المخلوع ، واسماعيل . فقام من بينهم محمد بعد أبيه . وجدّد الصلح بينه ، وبين الوزير محمد باشا ، على ماكان عليه في زمن والده . ثم اجتمعت كلمة اليمن اليه ، وأخرج الاتراك بأسرهم من اليمن .

* * *

(**كيوان**) بن عبدالله . أحد كبراء أجناد الشام .. كان في الاصل مملوكاً ، لرضوان باشا نائب غزة ، ثم صار من الجند الشامي ، وسرداراً عند صوباشي (١) الصبالحية (٢) . فنزع إلى التعدّي ، وأخذ الناس بالتهمة ، وتطاول إلى أخذ أملاكهم ، حتى استولى على أكثر بساتين الربوة ، والمِزّة (٣) ، وضم بعضها إلى بعض . وكان إذا أخذ حصة في مكان ، احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ أشقاصهم (٤) طوعاً أو كرها . وكان يساعده على ذلك نوّاب محكمة الباب وأعيان شهودها ، ويبالغون في نصيحته في كتابة التمسكات ، يعلمونه الحيلة ، وهو يبالغ في اكرامهم . ومن غريب خبره ، أنه كان مستأجراً لبستان من بساتين وقف بني العنبري قرب المزة ، وكان ملاصقاً

---

(١) كلمة تركية تتألف من مقطعين : صو وتعني (جيوش) . باشي : الرأس . أي قائد جيش . وهو أحد الفرسان المقطعين لزعامة ، ضمن الوحدة الادارية العثمانية الصغيرة وهي (القضاء) . ويقوم في فترة السلم بأعمال الشرطة وحفظ الأمن .

(٢) كانت قرية شمالي غربي دمشق . وفي سفح جبل قاسيون .

(٣) من ضواحي دمشق .

(٤) الشقص : النصيب ، والسهم .

لبساتين بيده ، فطلب من ناظر الوقف ، أن يأذن له بقطع الغراس ، ويحكره أرض البستان ، فلم يفعل . ووقع بينه وبينه مشاجرة ، فأدّى طغيان كيوان إلى أن جمع جمعاً من الفلاحين، وأتى بهم إلى البستان ليلاً . وأمرهم بقطع جميع غراسه الكبير . ففعلوا ، وغرسوا مكانه غراساً لطيفاً ، وحرثوا الارض ، وغيروا حدود البستان ، وبابه ، وأضافوه إلى بساتينه . ثم استدعى قاضي القضاة بالشام للكشف عليه . وأحضر أولاد العنبري ، فادّعوا أن البستان داخل في وقفهم ، وأبرزوا كتاب الوقف ، فقرىء بالمحضر العام ، فلم توافق الحدود والغراسات . فمنعهم القاضي ، وسلط يد كيوان على البستان . وبقي كيوان يترقب لابن العنبري الناظر ، فرصة ليوقعه في هلاك ، حتى قدم نائب الشام محمد باشا ، في سنة احدى بعد الالف . فتقرّب منه كيوان ، وأطمعه بجريمة (١) عظيمة في أن يوقع بابن العنبري فعلاً . فأمر منادياً ينادي على الخواجا (٢) محمد بن العنبري ، بأن من له عنده من جهة بستان ، أو معاملة ، أو ظلمه ،

---

(١) مكسب ، وتعويض ، وغرامة .

(٢) التاجر .

أو زوّر عليه ، فليحضر غداً بعد صلا ة الجمعة ، إلى الحجاجية. وهو بستان بالقرب من القنوات ، كان قد ادّعى المذكور أنه اشترى نصفه من رجل ، وأبرز تمسكات تشهد بذلك . فلما كان من الغد بعد صلاة الجمعة ، صلى الباشا في السنانية ، وأرسل خلف الشيخين : الشيخ محمد ، وأخيه الشيخ ابراهيم ابني سعد الدين . فخرجا من الجامع بالفقراء ، وانضم اليهما من رعاع الناس من لايحصر . وأرسل الباشا إلى القاضي فحضر ، وأمر باحضار ابن العنبري فأحضر . وعقد له مجلس بالبستان . وادّعى عليه السيد محمد الجعفري ، بأن من الجاري في وقف السبع النوري ، البستان المعروف بالحجاجية ، وان الخواجا محمداً المذكور وضع يده بغير طريق . فسئل عن ذلك فأجاب بأن نصفه بيده بطريق الاجارة ، والنصف بطريق الشراء من فلان ، وأبرز من يده تمسكات تشهد له بطبق جوابه . فأبرز الجعفري مايدل على أن جميع البستان وقف السبع النوري . فقال له القاضي : يارجل هذا ظهر به كتاب وقف يشهد بوقفيته ، فكيف تشتري ماهو وقف ؟ فقال : لم أعلم بكونه وقفاً ، وانما اشتريته على كونه ملكاً ، كما يشهد لي بذلك هذه التمسكات ،

على أني لما اطلعت على كونه وقفاً ، خرجت عنه وأعدته وقفاً كما كان ، وأظهر تمسكاً يشهد باعادته وقفاً كما كان . فقال له القاضي : يلزمك ريع مدّة وضع يدك عليه ، فقال : ان لزمني شيء دفعته . فقال له القاضي :ألزمتك بمائة قبرصي بدل ريعه الذي استوفيته منه . فقال : نعم أدفع ذلك . فلما لم يظهر في هذه الدعوى نتيجة كبيرة ، قال الجعفري للشيخين ومن معهما : يامشايخنا ويا ساداتنا ماذا تقولون في هذا الرجل ، وفي سيرته . فقال الشيخان : نشهد أنه رجل مزوّر مفسد ، ورموه بأمور . وأجابهم الناس من كل جانب هذا مزوّر مفسد واجب القتل ، وأمثال هذا ، حتّى صار للخلق ضجة عظيمة . فأمر بردّه إلى القلعة ، والناس خلفه يضجون عليه . قيل:كان هيأهم لذلك كيوان . ووقع بعد ذلك أن الباشا أمر بدمغ الخواجا محمد بن العنبري ، فدمغ بالنار في جبهته ، وأنفه ، ووجهه ، وأركب حماراً مقلوباً ، وكشف رأسه ، وعرّي حتّى صار بالقميص ، وطيف به في أسواق دمشق وشوارعها ، هذا جزاء من يزوّر على أوقاف نور الدين الشهيد . ثم بعد التطواف به أعيد إلى القلعة . وحزن الناس عليه حزناً عظيماً ، وكل ذلك

كان بتدبير كيوان ، لعداوته له . ثم عظم أمر كيوان ، وانتقل إلى سردارية (١) دمشق . وأخذ أكابر أهلها بالحيلة ، وعوامهم بالرهبة . وكان له كتخدا ، يقال له ابراهيم بن البيطار ، وكان من أخبث الناس وأسعاهم في الاذية . وكان من جملة خيانته أن يحتال بنسوة عنده ، بأخذ المرأة منهن حلياً أو حاجة من نساء الاكابر ، إما على سبيل العرض على البيع ، أو على سبيل العاريّة ، وتأتيه به . فيأخذه في كمه ، ويذهب إلى ولي تلك المرأة ، وهو مظهر لحزنه وهمه ، ثم يطلعه على مايكون معه ، سراً ، ويقول له : قد دفعت اليوم عنك شرّاً ، فان صاحبة هذا المتاع أخذها البارحة جماعة العسس في جمعية ، فخفت عليك من غائلة هذه القصة ، فقلت هذا المتاع لبنتي ، أو لأختي . خذ هذا المتاع ، واكتم هذا السر ، وقد وزنت عنك لكيوان كذا وكذا . فما يسع الرجل إلا أن يدفع اليه المال ، ويتحمل منّته . ولم يزل كيوان على تجرّيه ،

(١) قيادة الانكشارية في دمشق . والسردار لقب يعطى لآمر الانكشارية في الولاية ، وكذلك لآمر الفرسان فيها ، كما يعطى لقائد الحملة العسكرية .

حتى وقع بينه وبين الجند فتنة عظيمة ، وصمموا على قتله ، و قتل كتخداه ابن البيطار . فاختفيا ، ثم هرب ابن البيطار ، فلحق بالدروز ، ثم نزل في البحر . وسافر إلى مصر ، وضبطت أمواله . واصطلح كيوان مع الجند ، بعد أمور جرت ، وبقيت الضغينة في قلبه لهم . ولما كانت فتنة الامير علي بن جانبولاذ ، تعين لمحاربته الامير يوسف بن سيفا كما تقدّم ، ومعه أمراء الشام . فبعثوا كيوان إلى أحمد باشا أمير غزة ليأتي به ، فوافق وصوله موت أمير غزة . وكان ابن سيفا والعساكر تلاقوا مع ابن جانبولاذ ، وكسروا ، فوصل خبر الكسرة إلى غزة ، فرجع كيوان منها إلى ابن معن ، وحمله على معاونة ابن جانبولاذ . واغتنم الفرصة ، ومازال بابن معن حتى قوّى رأس ابن جانبولاذ على المسير إلى دمشق وانتهاك حرمتها ، وانتهبوا ماأمكنهم نهبه من خارجها . ثم ان السلطان عين الوزير مراد باشا لمقاتلة ابن جانبولاذ . فلما وصل إلى حلب ، قاتله وفتك فيه . وفي أعوانه من السكبانية ، حتى كاد يستأصلهم . فذهب أهل الشام اليه للشكاية على ابن معن ، فتوجه كيوان إلى جانب الوزير ، وخدعه بمال كثير كان معه من ابن معن . فترك

الوزير ابن معن على حاله . ثم رجع كيوان إلى دمشق بالاموال السلطانية من عند ابن معن ، واستقرّ قليلاً . ثم عاد إلى الفتن ، ورجع ابن معن إلى التمرد على حكام الشام ، حتى وليها الحافظ أحمد باشا الوزير . فكاتب في شأنه إلى عتبة السلطان ، فجهز اليه العساكر من أول ولاية أناطولي إلى أرض دمشق . ثم خرج إلى ابن معن . فحصل له ولكيوان رعب شديد ، واقتضى رأيهما آخراً إلى أن نزلا البحر ، ولحقا ببلاد الفرنج ، واستقرّا هناك إلى ان عزل الحافظ عن ولاية الشام . فخرج كيوان إلى صيدا وحده ، وترك ابن معن في بلاد الفرنج ، ليكشف له الحال . فرأى محمد باشا الوزير قد صار سرداراً على العجم ، ونزل حلب ، وأراد تصحيح أمر الشام . فخرج اليه الامير يونس بن الحرفوش أمير بعلبك وكيوان ، وتوافقا معه ، على أن يهدما قلعة الشقيف ، وقلعة بانياس ، ويسلما اليه مالاً ، وتعطى البلاد لابنه الامير علي ، وطلبا الامان للامير فخرالدين . فجاء من بلاد الفرنج ، وكان كيوان قد استقر بدمشق . فأظهر أنه انفرد عن ابن معن .

واستقل بأمره في الشام . ثم ذهب إلى مكة ، ورجع وقد أظهر كثيراً من عمل الخير ، وسمي نفسه الحاج كيوان ، وأمسك عن قبول هدية الناس . وبقي في انفراده وصدارته ، إلى أن تحرّك ابن معن على البقاع ، وخرج لمقاتلته الوزير مصطفى باشا الخناق نائب الشام . وكان كيوان ممن سارع إلى ابن معن لمعاونته . ولما انكسر عسكر الخناق ، وقبض ابن معن عليه ، وقعت الفتنة بين ابن معن وكيوان بسبب ذلك . وآل الامر بينهما إلى أن ضرب ابن معن كيوان بخنجره في رأسه فقتله . وكان قتله في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وألف ، ودفن عند باب دمشق من أبواب بعلبك . وقيل في تاريخ قتله :

قال لي صاحبي وقد ماتَ كيوا
ن هلاكاً ومن له الذكرُ يتلى
كيف راح الخبيث ناديتُ أرخْ
علمَ اللهُ راح كيوانُ قتلا

وأرّخه أبو بكر العمري شيخ الادب أيضاً بقوله :

ولماطغى كيوانُ في الشام واعتدى
وأرجف أهليها وللظلم فصّلا
فقلت لهم : قرّوا عيوناً وأرّخوا
ففي بعلبك قتلُ كيوانَ أصّلا

وذهب دمه هدراً والله تعالى أعلم .

* * *

(**محمد باشا**) . نائب حلب وأذنة ودمشق . ذكره النجم الغزي ، وقال في ترجمته : كان وزيراً ولي نيابة حلب في سنة احدى وثلاثين وألف ، وكان ظالماً . ثم عزل عنها وولي مدينة أذنة . وأساء الحكم فيها ، حتى حرّج على البضائع كلها ، فلا يبيعها جلابها الا لمن عينه من جماعته ، ثم تباع للسوقة بعد ذلك.ثم لما خلع السلطان مصطفى عن الملك ، وسلطن السلطان مراد ، ولي علي باشا المنفصل عن بغداد الوزارة العظمى . وكان أخو محمد باشا المذكور ، تلخيصاً عنده . والتلخيص عبارة عن مرسال بين السلطان والوزير ، يذهب بعروض التوجيهات وغيرها من المعروضات ،

ويأتي بالجواب . فسعى لاخيه في ولاية دمشق . فلما وليها أرسل متسلماً عنه ، يقال له كنعان ، فدخل دمشق في يوم الاثنين خامس صفر سنة ثلاث وثلاثين وألف . ووافق دخوله اشتعال الفتنة بسبب انكسار عسكر دمشق في سادس المحرم صحبة الوزير مصطفى باشا . وذلك أن العسكر الشامي كانوا قصدوا محاربة أولاد الحرفوش واخراجهم من بعلبك . وطلبوا من مصطفى باشا أن يخرج معهم . فأبى أولا وأمر بالتربص . فلم يرضوا الا بخروجه ، فخرج بهم ، بعد أن كتب عليهم حجة بذلك . ولما تقابل الفريقان ، انكسر العسكر الشامي ، ووقع الوزير المذكور في أيدي عشير ابن معن . ثم بقي عنده بالبقاع أياماً ، ثم ذهب معه إلى بعلبك ، في طلب أولاد الحرفوش . ووقع الرأي من قاضي القضاة بدمشق ، المولى عبدالله الشهير ببلبل زاده ، وعقلاء الناس، أن يذهب جماعة في طلب عوده إلى دمشق . فعين القاضي جماعة من الوجوه . فخرجوا من دمشق إلى بعلبك ، وأقاموا بها اثني عشر يوماً ، ثم عادوا في خدمة مصطفى باشا . فدخل دمشق يوم الخميس تاسع وعشري محرم ، والفتنة قائمة . فلما كان يوم السبت ثاني صفر ، عقد عند الوزير مجلس

عظيم ، كتب فيه حجة على العسكر أنهم لايرابون ، ولايتجاوزون الحدود في خدمهم ، مع أمور أخرى . فبينما الناس على ذلك ، وطائفة العسكر في أمر مريج بسبب ذالك ، اذ دخل كنعان متسلم محمد باشا صاحب الترجمة ، فسلمه مصطفى باشا البلد أياماً . ثم رفع يده عنها خوفاً من آثار الفتنة ثانياً ، بسبب أن محمد باشا انحاز اليه حمزة الكردي ، أحد رؤساء الجند ، وجماعته الفارون . فاذا دخل ، دخلوا إلى دمشق ، واذا دخلوها طلبهم ابن معن ، ولا يسلمون اليه ، فيدخل الشام في طلبهم . وكانت أهالي دمشق قد تقدّم لهم منه مخافات وأراجيف ، حتى نقلوا أمتعتهم وأثقالهم من خارج المدينة إلى داخلها مراراً . فرفع مصطفى باشا يد كنعان عن البلد بسبب ذلك . ثم عقد عنده مجلساً في دار الامارة يوم السبت سابع أوثامن ربيع الاول ، جمع فيه العلماء ، ووجوه العسكر . ثم اجتمعوا بقاضي القضاة بلبل زاده ، وطلبوا منه الحضور إلى الجامع الاموي ، فحضروا ومعهم أهل البلد ، وكتب محضر في الواقعة ليجهز إلى طرف السلطنة . ثم خرج الجند إلى القطيفة ، فرأوا بها محمد باشا وقد نزلها ، فأشاروا عليه بالرجوع

إلى حماة ، ليعرض ذلك إلى السلطان . ثم عقد بعد ذلك مجلس آخر . عند القاضي ، وكتب عرض آخر إلى الباب العالي . وخرج كنعان إلى أستاذه ، وبقي الوزير مصطفى باشا بدمشق . فلما كان عشية الاثنين ثاني جمادى الآخرة ورد من بعلبك حسن بن الطريفي ، بحكم سلطاني بتقرير محمد باشا . وكتاب منه في ذلك . بعد أن كاتب محمد باشا الامير فخر الدين بن معن ورضي بذلك . فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة في وقت الضحى ، سافر مصطفى باشا من دمشق ، وفي صحبته قاضي القضاة بلبل زاده ، والرئيس سهراب الدفتري معزولين . وفي يوم الثلاثاء وصل وطاق محمد باشا إلى المزة ، ونزل بها آخر النهار ، وأقام بها ليلة الاربعاء ويومها . وتردّد اليه بعض اهل البلد ، ونافقه بعضهم . ثم دخل دمشق في يوم الخميس من جهة القابون ، معرضاً عن السلام على الناس ، حتى دخل دار السعادة . فتردّد اليه بعض الناس ، فلم يقم لأحد منهم . ثم انقطع يوم السبت عن الخروج ، وعاثت جماعته في البلد وضواحيها يمنة ويسرة : كان كل واحد يريد أن ينتقم من دمشق وأهلها . وظنّ الناس عدم خروجه

عن تكبر ، فاذا هو محموم. ثم مات يوم الجمعة ختام جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وألف . وظهر بعد موته أنه كان لعلماء البلدة في نية شنيعة ، وكان موته لطفاً من الله تعالى بهم . وقام مقامه ابراهيم باشا الدفتري . ثم عند الغروب من يوم موته ورد إلى دمشق راكبان ، أخبرا أن مصطفى باشا قرر على ولاية دمشق ، وضبط تاريخ تقريره ، (مصطفى باشا قرر) ، وهو لطيف .

(قلت) : وصاحب الترجمة قد تقدم معرض في ذكر موته في حرف الهمزة في ترجمة أبي البقاء الصالحي ، وهو كالتتمة لما ذكرناه هنا .

* * *

(**محمد باشا**) الكوبري الوزير الاعظم في عهد السلطان محمد ، بن السلطان ابراهيم ، أشهر من نار على علم . كان من أمره انه ولي حكومة الشام في سنة ست وخمسين وألف ، ثم ولي حكومة القدس ، ثم طرابلس الشام . ولم يزل خامل الذكر ، مهضوم الجناب ، إلا أن له حسن تدبير ، وحزماً في الامور . وكان أمر الملك من عهد أن ولي السلطان محمد المذكور السلطنة ، قد اختل . وتهاون رؤساء الدولة ، لصغر السلطان ، في نظم الامور على نسق يرضي الجمهور . فكثرت الاغراض ، وبدّلت الجواهر

بالاعراض ، وتغيرت الدول ، وذهبت الناس الاول ، وقامت الفتن على ساق ، وانتصب الخلاف ، وارتفع الوفاق ، وتقوّت ضعاف الدولة ، واظهروا العتو والصولة . فكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم ، وبهذا السبب كان يولى الوزير أياماً ، فلا يرى هدوّاً ولا راحة ، ولا إن كان مناماً ، ثم يقتل أو يعزل وينهب او يسلب ؛ إلى ان بغت طائفة من العبيد اللئام ، الذين هم داخل حرم السلطان من الخدام ، وهجموا على جدّة السلطان صاحبة الخيرات ، فقتلوها ليلاً ، ولم يخشوا إثماً ولا ويلاً . ولمّ تزل نار تلك الفتن تتقد ، والجمعيات السوء في كل حين تنعقد ، إلى ان وقع الاختيار على صاحب الترجمة ، أن يكون وزيراً ، ومدبراً للملك ومشيراً . هنالك انقلب العيان ، وأخذ حده السيف والسنان . ومن هنا أشرع في الترجمة فأقول : أخبرني من أثق به ، انه لما استصعب الامر في لم شعث الدولة ، جمع اليه السلطان المقربين من أهل الحرم السلطاني ، وفيهم علي آغا الطويل المشهور ، وتفاوضوا فيمن يصلح للوزارة العظمى ، ويحسم مادّة التفرّق . فكل منهم أشار إلى واحد ، حتى انتهت النوبة إلى علي آغا المذكور . فأشار إلى أنه

لايليق بالوزارة إلا صاحب الترجمة . فسخروا منه ، على مايعرفون من انحطاط قدره . فقال : أنا أقول هذا عن اختبار وممارسة . والامر مأخوذ على التراخي، فيمكن أن يكون وزيراً اياماً ، ثم اذا لم يحكم الامر ، عزل . وليس عزله بالصعب على الدولة . فاتفق الرأي عليه . ثم في ثاني يوم ، ناداه السلطان وسلم اليه الختم . وأوصاه بما يلزم التبصر فيه . فكان أوّل ماابتدأ فيه من الامور ، نفي علي آغا الذي كان سبباً لتوليته لجزيرة قبرس ، وابعاده عن الدولة . وقال من قدر على التولية ، قدر على العزل . ثم أطلق القتل في أركان الدولة ، واحداً بعد واحد . وقام بأعباء السلطنة ، وأخمد بحسن تدبيره ثائرة الفتن ، وأضعف العسكر بالاسفار ، وأكثر من محو أصحاب الكلمة ، وفرّق شملهم . وأبلغ مايحكى عنه في خصوص القتل . أنه كان يؤاخي وزيراً أحسب أنّ اسمه خسرو باشا ، وكان بينهما مواثيق ومودة زائدة يعرفها الناس . فاستحضره يوماً اليه ، وقال أريد قتلك اليوم . فقال له : لِمَ تقتلني ولم يصدر مني ما يوجب القتل ، وأنا على عهدك وميثاقك ، فماذا يحصل من قتلي ؟ فقال له : ان في قتلك ارهاباً عظيماً للقوم ، فانهم يقولون

الوزير قتل أقرب الناس اليه ، فهو لايتوقف في أمر القتل فيلقي الرعب في قلوبهم . فأبرم عليه في ترك ذلك ، فلم يفعل ، وقتله في الحال . (قلت) وقد وقع مثل هذا كثيراً ، وأعجبه ، ماوقع في زماننا القريب للامام محمد بن أحمد ابن الحسن سلطان اليمن ، أنه قتل ابنه ارهاباً لعسكره ، وقال لهم : مافرطت في ابني الا ليعلم الناس اني لاأعرف إلا القتل ، ولا أتوقف فيه بحال . فملك البلاد ، وقهر رعيته بهذا الصنيع الفظيع . وكذلك أخاف صاحب الترجمة الناس بفعله هذا ولزم كل أحد منهم في زمانه طوره . وسالمه الزمان ، وانقاد له فيما أبرمه ، وعظمت دولته ، وجبيت اليه ذخائر الدنيا . ثم ان السلطان محمداً سافر إلى أدرنة سنة سبع وستين ، وجهز صاحب الترجمة إلى قتال الكفار ، فسافر وافتتح قلعة ينوه (١) وبعض قلاع أخر . وخرج في ذلك الاثناء على الدولة ، حسن باشا محافظ حلب ، وتبعه ابن الطيار كافل الشام ، والوزير كنعان ، وانضاف اليهم من العسكر جمع عظيم . وكان خروجهم خوفاً من صاحب الترجمة ، وحسداً له . فصرف وجه همته

(١) مدينة جنوبي بولونيا .

إلى الانتقام منهم ، فقتلوا على يد مرتضى باشا كما أسلفته في ترجمة حسن باشا . وأوقع القتل فيمن كان تبعهم من السكبان وغيرهم ، على يد نوّاب البلاد ، فقتل منهم خلق كثير ، وتفرقوا أيدي سبأ . وكان فرط من العسكر الشامي الامر في انحيازتهم إلى محافظة دمشق ، فجهز شرذمة نحو الثلاثمئة من جند السلطان المعروفين بالقبوقولية ، وبعث بهم ، فوصلوا دمشق واستقرّوا بقلعتها ، وأخذوا غالب دورها ، وتسلموا أبواب المدينة ، وباب المحكمة ، والحسبة ، وسوق الخيل ، وميزان الحرير ، وبقية الخدم ، التي كانت مخصوصة بعسكر الشام. وبذلك انحط عسكر الشام بعض الانحطاط ، بماتوارد عليهم من الوهم. ثم أخذ كبراءهم بغتة ، فأرسل أمراً بقتلهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة . وقد قدّمنا قصة قتلهم في ترجمة عبد السلام بن عبد النبي فلا نطيل باعادتها . ثم توجه السلطان إلى بروسة ، وصاحب الترجمة معه ، وأقاما بها أياماً . ثم رجعا إلى مقر السلطنة ، وقد تمهدت البلاد ، وتأطدت أحوال الملك وأمنت الغوائل ، واطمأنت الناس . وتفرّغ الوزير صاحب الترجمة لاجراء الخيرات . فعمر الخان المعروف به في طريق قسطنطينية ، بين اسكي

شهر وازنيق ، والخان ، والعمارة العظيمة بقصبة الثغور ، والعمارات الكثيرة في ادلب ، وفي بلاد روم ايلي ، مما صار تعلقاً عظيماً ، وجواراً جسيماً . ثم وقف على جهات . وقد وقفت على صورة الوقفية بانشاء المولى أنسي ،وذكرت ديباجتها في ترجمته فارجع اليها . وكانت وفاة صاحب الترجمة في سنة اثنتين وسبعين وألف ، ودفن بالتربة التي عمرها .

* * *

(**السلطان محمود**) بن ابراهيم ، عادل شاه ، سلطان الدكن ، الملك الموفق ، الناصر للشريعة . كان ملكاً كثير الفضل ، حسن التدبير ، سار في ولايته أحسن سيرة ، تولى الملك بعد وفاة والده ، وتوفي هو في سنة سبع وستين وألف . وفي هذه السنة أصيب خرم شاه جهان ، ابن جهانكير شاه ، أكبر ملوك الهند ، بفالج عطله عن الحركة ، وحصل بين أولاده حروب كثيرة . ولما أراد الله تعالى بالهند خيراً واحساناً ، وقدّر ظهور العدل فيهم كرماً وامتناناً ، أظهر في خافقها شموس السلطنة بلا ريب ، وأنار في سماء سلطنتها أنوار بدور الملك السلطان أورنك زيب . وطوى بساط

اخوته ، ونتف حللهم ، ومزق وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق . وقتل أخاه ، داراشكوه ، واقتلعه هو وأصحابه . وكان داراشكوه ذا ذوق وفطنة بهية ، وصفات مستحسنة ، الا أنه في آخر عمره صارت سيرته مذمومة ، وأحدث مظالم كثيرة . وقتل أخاه الثاني مراد بخش ، وفر محمد شجاع أخوه الثالث ، ولم يعرف أين ذهب. وأورنك زيب ممن يوصف بالملك العادل الزاهد ، وبلغ من الزهد مبلغاً أناف فيه على ابن أدهم . فانه مع سعة سلطانه ، يأكل في شهر رمضان رغيفاً من خبز الشعير ، من كسب يمينه ، ويصلي بالناس التراويح . وله نعم بارّة ، وخيرات دارّة جداً . وأمر من حين ولي السلطنة برفع المكوس والمظالم عن المسلمين ، ونصب الجزية ، بعد أن لم تكن على الكفار . وتم له ذلك مع انه لم يتم لاحد من اسلافه ، أخذ الجزية منهم لكثرتهم ، وتغلبهم على اقليم الهند . وأقام فيها دولة العلم ، وبالغ في تعظيم أهله . وعظمت شوكته ، وفتح الفتوحات العظيمة . وهو مع كثرة أعدائه ، وقوتهم ، غير مبال بهم ، مشتغل بالعبادات ، وليس له في عصره من الملوك نظير ، في حسن السيرة ، والخوف من الله تعالى ، والقيام بنصرة الدين.رحمه الله تعالى .

* * *

(**الامير منصور**) المعروف بابن الفريخ ، تصغير فرخ ، البدوي ، أمير البقاع العزيزي ، بعد اولاد الحنش . كان في أوّل أمره بدوياً من عرب تلك البلاد ، وكان يتكسب بالرجادة (١) . ثم انتهى أمره إلى أن حاز الامارة وتظاهر بتتل المناحيس ، وأهل الزعارة والشطارة . وكان يبغض اللصوص والقطاع . ويعاملهم اذا قبض عليهم بالقتل والتمثيل . وكان يحب أهل الشجاعة ، حتى عظم أمره . فولي حكومة البقاع ، ثم أعطي حكومة نابلس . وانحاز اليه جماعة من جند دمشق ، واشتهر ، وأخاف الدروز . ثم شنّ الغارات عليهم ، وكان هو السبب في أخذ ابراهيم باشا ، أحد الوزراء في عهد السلطان مراد بن سليم اليهم ، وقد جاء من نيابة مصر . ثم كان قيدومه (٢) ، حتى أثر فيهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واختفى منهم الامير قرقماس بن معن ، حتى مات في اختفائه . ثم جمع له بين حكومة نابلس ، وصفد ، وعجلون ، والبقاع ، وأضيف اليها امارة الحاج . والتزم مالاً عظيماً على صفد .

---

(١) نقل سنابل القمح إلى البيدر .

(٢) رجله المقدم ، وأداته .

ونابلس ، وجعل نابلس باسم ولده ، وعجلون باسم واحد من جماعته ، يقال له دالي علي ، وصفد باسمه ، والبقاع بحاكم من قبله . وسافر بالحج مرتين ، في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وفي التي بعدها . ثم زاد عتوّه وتمرّده، وخرب بلاداً كثيرة، وقتل خلقاً كثيراً . وعمر عمارات عظيمة بالبقاع ، بقرية قبر الياس . وشرع في عمارة دار عظيمة خارج دمشق ، قبلي دار السعادة ، لم يرسم مثلها : جعل بابها بالرخام الابيض ، والحجر الاحمر المعدني ، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل ، والحجارة من البقاع ، واستعمل فيها العملة بالسخرة . وسيرته طويلة ، وكان مع ماهو فيه من التعدّي ، ملازماً للصلوات ، محباً للسنة وأهلها، مبغضاً للرافضة ، والدروز ، والتيامنة (١) ، شديداً على المفسدين . وكانت الطرقات آمنة في أيامه . ثم لما ولي مراد باشا نيابة الشام ، وهو الذي صار آخراً وزيراً أعظم ، طلع من صيدا في سنة احدى بعد الالف . فخدمه الامير فخرالدين بن معن، بخدمة سنية ، وأطعمه بكل جزئية وكلية . فعمل مراد باشا على قبض الامير منصور صاحب الترجمة ، وهو آمن منه ،

(١) سكان وادي التيم .

بعد أن أمره بعمل ضيافة له في بيته الذي ابتناه عند الدرويشية ، ثم اعتذر عن الذهاب اليه ، وأمره أن تكون الضيافة عنده في دار السعادة . فلم يشعر الامير منصور الا وقد أحيط به ، ثم أودعه قلعة دمشق . وعرض فيه إلى السلطان مراد ، فجاء الامر بقتله . فقتل في نهار الثلاثاءثالث عشر شهر ربيع الاوّل سنة اثنتين وألف . وأخرج من القلعة في بلنسة عتيقة ، محمولاً فيها من غير نعش ، وغسل في بيت زوجته بنت مراد باشا ، ودفن بتربتهم قبلي ميدان العبيد ، خارج باب الصغير . وفيه يقول الاديب يوسف العلمي مؤرخاً :

في السجن شخصٌ اشتبكْ
مقيَّداً من غير شكْ
مِنْ ظلمه وجَوْره
عليه قد دار الفَلَكْ
فكم طغى وكم بغى
وكم سبى وكم فَتكْ
لم يُرَ في خيرٍ سعى
ولا مشى ولا سلكْ

فلا نجا لما اعتدى
ولا افتُدي بما تَملك
وقد أتى تاريخهُ
ابن فريخ جاهَلَكَ

وخلف عشرة أولاد أكبرهم قرقماس ، الظالم العسوف . وكان عند قتل والده مقيماً ببوارش من أرض البقاع ، فأرسل مراد باشا إلى الامير فخر الدين بن معن يأمره بالكبس عليه . فتوجه اليه في جمع عظيم من الدروز والتيامنة . فقبل وصوله إلى بوارش التي كان نازلاً فيها ، جاءه النذير ، ففر ، ومعه نحو مائة بندقاني . فعمدوا إلى بيوته فنهبوها وحرقوها ، ونقلوا محاسنها إلى بلادهم ، ثم نزلوا إلى قبر الياس . وبعثوا إلى مراد باشا يخبرونه أن قرقماس هرب إلى ابن سيفا ، ببلاد كسروان . فأرسل مراد باشا يأمرهم بالرحيل عن قبر الياس اليه . ثم جاءت الاخبار بأن قرقماس لما توجه من بوارش ، هارباً إلى ابن سيفا ، لم يمكنه ابن سيفا من النزول عليه في بلاده . فتفرق عنه من كان معه ولم يدر أين ذهب والله أعلم . (قلت): ثم كانت عاقبته أنه قتل على يد الامير موسى بن الحرفوش بمواطأة الامير فخر الدين بن معن ، وكان قتله في حدود سنة ثلاث بعد الالف .

* * *

(**الأمير منصور**) المعروف بابن الشهاب التيماني أمير وادي التيم ، وابن أميرها . ولآبائه وعمومته قدم في امارة الوادي المذكور . وجورهم بالنسبة إلى أمراء بلاد الشام كالدروز بني معن ، والرفضة بني الحرفوش ، وبني سرحان ، مقصور على أنفسهم من حيث المعتقد فحسب ، ومالهم في القديم والحديث كثرة أذية للمسلمين . وبلادهم المذكورة من أصح بلاد الشام هواء ، وأطيبها بقعة ، والامراء المذكورون يسكنون منها حاصبيا وريشيا قريتين . ولهم فيهما أبنية نفيسة ، وعمارات فائقة . وكان الامير منصور المذكور صاحب بسطة في المال ، لطيف الشكل والمصاحبة ، مائلاً إلى المعاشرة والمباسطة ، عاقلاً ذا فكرة جيدة . الا أنه لعبت به وساوس الحشمة ، فأدته إلى موافقة عبد السلام ، وبقية رؤساء جند الشام ، في مصادمة مرتضى باشا لما ولي نيابة الشام ، وقارب أن يدخلها . وكان عبد السلام كاتب الامير منصور ، وابن عمه الامير علياً في هذا الامر ، وطلب اسعافه بالرجال . فجمعوا من بلادهم جمعاً عظيماً ، وجاؤوا بهم إلى دمشق . ثم تجمع العسكر ، وخرج الفتيان ، ومعهما من الرعاع والاوباش ماضبط ، فكان أربعة عشر ألفاً . وكان مرتضى باشا وصل إلى القطيفة . فخرجوا إلى محاربته .

فلما سمع بخبرهم رجع ، ولم يدخل إلى دمشق . ورجعوا هم إلى دمشق. وأقام الاميران المذكوران بها أياماً،وأقبل العسكر عليهما ، وتغالوا في تعظيمهما ومواساتهما . فأعجبهما ذلك الاقبال ، وظنا أن الدهر سالمهما في الحال والمآل . وحسن لهما كثير أن يسكنا دمشق ، ويدخلا في زمرة جندها،فانساغا، ولم يعهد فيما أحسب لاحد من أهل بيتهما ذلك الانسياغ . وتملكا دارين بمحلة القنوات ، احداهما اشتراها الامير منصور من بني فرهاد ، والاخرى اشتراها الامير علي من مخلفات الصنجقدار (١) . وصارا كلاهما من كبار الجند المعبر عنهم بالبلوكباشية (٢) . وشرعا في عمارة هذين الدارين على أسلوب متقن محكم،وزخرفاهما بأنواع الزخارف ، وجلبا اليهما الرخام من بلادهما . واستمرا مدة يصرفان جهدهما في اتقان بنائهما حتى تمت عمارتهما . ولعمري انهما ابدعا ، ونوّعا ، وأجادا فيما صنعا . وهاتان الداران بعد تناقل الايدي لهما من محاسن

---

(١) حامل الصنجق أي حامل اللواء .

(٢) كلمة تركية مؤلفة من مقطعين : بلوك وتعني القسم ، و « باش » الرأس . أي رئيس قسم . وكانت كلمة « بلوك » تطلق على بعض فرق الا نكشارية .

دمشق الآن . واتفق قريب التمام قصة قتل عبد السلام كما ذكرنا في ترجمته فتنغص عيشهما ، وأقلعا إلى بلادهما متخوّفين ؛ وعلما أن ماارتكباه كان غلطاً . وتواردت عليهما بعد ذلك أخبار زعزعتهما عن مستقرّهما ، وطنقا يلتجئان إلى من يحسن التدبير في أمرهما . فلما أعياهما الظفر بمخلص لهما ، عند أرباب العقد والحل ، وعظم الكرب عندهما من كثرة الاوهام وجلّ ، لم يقرّ للامير منصور قرار ، دون أن ترك الديار والدار ، وصمم على السفر إلى جهة السلطنة العلية ، ولم يبال اذا قدم عليهم أتدركه منية أو أمنية . فوقع أنه وصل ، وقابل الوزير ، فعوجل بالقتل من غير تأخير . وكان قتله في سنة ثلاث وسبعين وألف ، بقسطنطينية . ووقع في أطراف دمشق التفتيش على ابن عمه علي ، فظفروا به تلك السنة وقتل أيضاً .

* * *

(**الأمير موسى**) بن علي ، بن موسى ، المعروف بابن الحرفوش. الامير ، ابن الامير ، أمير بعلبك . ولي إمارتها بعد قتل أبيه . وذلك بعد أن كان قبض على أبيه ، وأرسل هو والامير منصور ابن الفريخ ، والامير قانصوه ، إلى الروم .

ثم خلص هو وابن الفريخ ، ثم قبض عليه مراد باشا ، كما قبض على الفريخ ، وخنقه في قلعة دمشق في سنة احدى أو اثنتين بعد الالف . وهؤلاء القوم من الغلاة في الرفض ، خذلهم الله تعالى ، إلا أن صاحب الترجمة كان أقرب إلى التسنن ، كما قال النجم في ترجمته . وكان بطلاً ، شجاعاً ، جواداً . وكان ركب على الامير علي بن سيفا صاحب طرابلس الشام ، بأمر من الوزير محمد باشا السيد الشريف ، المنفصل عن نيابة مصر ، حين كان نائباً بالشام في سنة سبع أو ثمان بعد الالف . وقتل ابن سيفا في ناحية غزير ، وقد ذكرنا خبر هذه الوقعة في ترجمة الامير حسن بن الاعوج ، وذكرنا بيتين تمثل بهما ابن الاعوج المذكور في صدر رسالة أرسلها إلى الامير موسى ، صاحب الترجمة يحثه فيها على قتال ابن سيفا . والبيتان هما :

غزير طورٌ ونار الحرب موقدة

وأنت موسى، وهذا اليوم ميقات

إلى آخرهما ، فارجع اليهما ثمة . وبقي الامير موسى في امارة بعلبك حتى دخل الاميرعلي بن جانبولاذ بعلبك قاصداً دمشق ، فنهض الامير موسى إلى نواحي حمص لاستقباله ، مداراة ومحاماة عن أرضه ، فتحادثا ، وتقاولا ، وتشاورا فيما

صدر ، وتجاولا . فقال الامير موسى : هل تعطيني عهداً على الصلح ، وأنا أذهب إلى الشام ، وآخذ لك العهد الوثيق من الانام ؟ فقال : اذهب سليماً ، وكن ياموسى كليماً . فحضر إلى الشام ، ورُمي من عسكرها بغاية الملام ، وأرجعوه بغليظ الكلام ، ظناً من جهلائهم انه عليهم ، وما كان ناوياً الا سوق الخير اليهم . فلما حضر إلى أمير الامراء بدمشق ، قال له: قد جئت على قَدَرٍ ياموسى ، فجرد سيف عزمك يُذهب البوسى (١).
فقال: ان ابن جانبولاذ يطلب أن تعطي حوران لعمرو البدوي، من عرب المفارجة ، والبقاع العزيزي لمنصور بن الفريخ ، وأن يؤذن لكيوان بالدخول إلى الشام والعود كما كان ، ويُكتب عرض بأن ابن جانبولاذ لم يدخل إلى أرض الشام ، وان فخرالدين ابن معن يؤدّي ما عليه من مال السلطان ، وبلاده موصوفة بالامان . فعقد أمير الامراء ديواناً لهذه المطالب . فاتفقوا على أن حوران لعمرو ، ولكن في السنة القابلة . وأما البقاع فان إعطاءه لمنصور غير معقول ، لكونه عند الرعايا غير مقبول . وأما كيوان فانه يرجع وعليه الأمان . وانه يكتب عرض بما أراد من عدم دخوله ، وبتعديل ابن معن . ثم وقع في ثاني يوم اباء من الشيخ محمد بن سعد الدين لما صمم عليه أوّلاً . فرجع

(١) البؤسى : الشدة والفقر .

الامير موسى إلى ابن جانبولاذ بغير المراد . فعزم ابن جانبولاذ على قصد دمشق . وهرب الامير موسى اليها ، وأخبر انه ترك ابن جانبولاذ على قصد دمشق . ثم ان ابن جانبولاذ جاء إلى البقاع ، وخيم بها ، وانحاز اليه الامير يونس بن حسين ابن الحرفوش ابن عم الامير موسى ، ومن معه من أولاد عمه . وقصدوا بعلبك فنهبوها ، وفرقوا أهلها . ووقع من ابن جانبولاذ بعد ذلك ماوقع من قصته التي ذكرتها في ترجمته . وحوصرت الشام ، وصولح ابن جانبولاذ على المال ، وصولح ابن معن على أن تكون بعلبك والبقاع للامير يونس. فلمارجع ابن جانبولاذ وعشيره ، خرج الامير موسى إلى القيروانية ، وجمع عشيراً كبيراً لقتال ابن عمه ، واخراجه من بعلبك . ثم صرف العشير ورجع إلى دمشق مريضاً ، فمات يوم الجمعة سابع وعشري صفر سنة ست عشرة بعد الألف ، ودفن في مقبرة الفراديس بالقبة المعروفة ببني الحرفوش .

* * *

(**نصوح باشا**) . وشهرته بناصف باشا ، وهذه عادة الاتراك في تلاعبهم بالحروف ، فيقولون في نصوح ناصف . وتبديلاتهم ليس لها حدّ يحصرها ، ولا قاعدة تضبطها . ونصوح

باشا هذا أصله من نواحي درامة (١) من بلاد روم ايلي . خدم أوّلاً في حرم السلطنة الخاص ، ثم صار من المتفرقة ،وحكم ببلدة زلة (٢) ، ثم صار أمير أخور (٣) صغيراً في سنة سبع بعد الالف . ثم ولي كفالة حلب . وكان متغلباً في حكمه ، عسوفاً ، قوي النفس ، شديد البأس . ولما وليها ، كان لجند الشام حينئذ الغلبة والعتو . وكان في ذلك العهد يذهب منهم في كل سنة طائفة إلى حلب ، وينصب عليهم سردار من كبرائهم ، يستخدمون بمدينة حلب . وكان بعض كبار الجند قد تقووا في حلب ، وفتكوا وجاروا ، خصوصاً طواغيهم ، خدا وردي ، وكنعان الكبير ، وحمزة الكردي ، وأمثالهم ،حتى رهبهم أهلها ، وصاهرتهم كبراؤها ، واستولوا على أكثر قراها . فلما رأى نصوح باشا مافعلوه ، وما استولوا عليه منها ومن قراها ،

(١) درامة : مدينة إلى الشمال الشرقي من سالونيك .

(٢) مدينة في شمال شرقي تركيا ، جنوبي أمازيا .

(٣) أمير اخور : هو المشرف على اصطبل السلطان وخيوله . وكان هناك (أمير أخور كبير) يرأس جميع موظفي الاصطبلات و (أمير خور صغير) وعمله تقديم الخيول إلى غلمان « الداخل » والعناية بمركبات السلطان .

بحيث قلت أموال السلطنة . وصارت أهالي القرى كالارقاء لهم . رفع أيديهم عن قراها ، وجلاهم عن تلك البلاد . ووقع بينه وبينهم وقعة ، وكان معه حسين باشا ابن جانبولاذ عند المعرة. وفروا بين يديه هاربين إلى حماة ، وأخذ ماوجد من أموالهم وخيولهم وخيامهم . ثم جمعوا عليه عشيراً بحماة ، وأرادوا قتاله . فأدركهم مرور علي باشا الوزير منفصلاً عن نيابة مصر ، ومعه خزينتها عن سنتين . وقد تحفظ عليها بخمسة عشر مدفعاً ، وعساكر نحو الاربعة آلاف . فجاؤوا إلى دمشق للقائه واتقائه . فلما خرج علي باشا من دمشق بالخزينة قاصداً جانب السلطنة ، لم يصل إلى حماة حتى هموا بالخروج . وخرج أوائلهم . ثم ذهب في اثناء ذلك طاغيتهم خداوردي ، وفي صحبته نحو عشرين رجلاً من أعيانهم إلى الامير علي بن الشهاب ، ثم إلى الامير فخر الدين بن معن ، ووقعوا عليهما في السفر معهم لقتال ابن جانبولاذ ، وأخذوا ثأرهم منه . فسافر قبلهم أمير بعلبك الامير موسى بن الحرفوش : وجمعوا عشيراً كثيراً بحمص وحماة . وورد أمر سلطاني ، وعليه خط شريف ، بأن طائفة الجند بالشام لايخرجون إلى حلب ، لقتال كافلها ناصف باشا وحاكم كلز حسين باشا ابن جانبولاذ . لانهم

كانوا اجتمعوا وعرضوا بذلك إلى أبواب الدولة . وكان ذلك جواب عرضهم . وكان وصوله إلى دمشق يوم السبت عاشر رجب سنة اثنتي عشرة بعد الألف . ومن جملة ماذكر في الخط المذكور ، أنهم ان خرجوا يكونوا مغضوباً عليهم ، مستحقين للعقوبة والنكال من السلطان . فرأى نائب الشام اذ ذاك فرهاد باشا ، وقاضيها المولى مصطفى بن عزمي ، ودفتريها حسن باشا شوربزه ، انهم لايرجعون إلا بحيلة . فرأوا ان يرسلوا الشيخ محمد بن سعد الدين ، لكسر هذه الفتنة الموجبة للعقوبة إلى حماة ، ويقرأ عليهم الخط السلطاني ، ويرجعهم إلى دمشق ، ليقال : لولا خاطر الشيخ محمد مارجعنا . فخرج الشيخ محمد اليهم في ثاني عشر رجب ، ثم عاد يوم الاحد ثاني شعبان ، ولم يسمعوا قوله ، وخرجوا بعد قراءة الحكم عليهم ، والكلام معهم إلى الطيبة ، ثم توجهوا إلى ناحية حلب ، وانضم اليهم غجر محمد الجلالي وعشيره . ثم رجعوا في أواخر شعبان إلى دمشق ، بعد أن صار بينهم وبين ناصف باشا وابن جانبولاذ ، مناوشة عند كلز يوماً واحداً ، ثم ولوا هاربين ، وتفرق عشيرهم ، وذلك بعد أن حاصروا كلز أياماً ، وخربوا ماحولها من قرية الباب ، وعزاز ، وغيرهما من قرى حلب . وهتكوا النساء .

وافتضوا جملة من أبكارهن ، ودخلت أشقياؤهم حماماً بكلز على النسوة وفعلوا أفاعيل جاهلية . ثم تلاقوا مع نصوح باشا ، وابن جانبولاذ ، خارج كلز يوماً واحداً ثم انهزموا من ليلتهم وعادوا إلى دمشق ، وفر غجر محمد إلى البيرة (١) ، وكانت الوقعة في أواسط شعبان . ثم تتبع نصوح باشا غجر محمد الجلالي ومعه عشيره ، ومنهم طائفة من جند الشام ، فأغار عليهم في شوال ، وهو في الربيع بالقرب من حماة ، وانتهبهم ، وأخذ خيولهم ، وكرر الغارة عليهم . فلما كان أوائل ذي الحجة ، مر مصطفى باشا الشهير بابن راضية ، متولياً نيابة الشام ، بغجر محمد ، وقد جمع عشيراً نحو ثلاثة آلاف مقاتل . فقالوا له : لا نمكنك من الذهاب إلى دمشق ، حتى تنتصف لنا من ناصف باشا . فسار معهم مكرهاً ، وكانوا قد تظاهروا بقطع الطريق ، وضربوا على أهل حمص وحماة ضرائب من المال ، واعترضوا القوافل ، وجرّموهم . فخرجوا بمصطفى باشا من حماة إلى ناحية حلب. فلم يلبثوا الا وناصف باشا قد انقض عليهم ، فلم يثبتوا له ساعة ، وأفلت عليهم المكاحل فقتل منهم

---

(١) بلدة إلى شمال شرقي حلب ، وعلى بعد ٢١٠ كم منها ، وتدعى اليوم « بيره جك » .

جماعة كثيرون ، وفر الغجر ومن معه من الجند الشامي ، وانحاز مصطفى باشا إلى ناصف باشا . ثم بعث خلف الغجر ، طليعة من العرب فيهم الامير دندن بن أبي ريشة الحياري . فسار خلفه إلى تدمر ، وشتت شمله . ثم شاع الخبر في دمشق في رابع ، أو خامس الحجة ان ناصف باشا وصل إلى دمشق للانتقام من الجند . ثم عقب يومين ، وصل من طرفه رسول ، ومعه كتاب منه يطلب منهم نحو ثلاثين رجلاً ، ليأخذ ما في عهدتهم من الاموال السلطانية التي تناولوها من أموال حلب. ومنهم خدا وردي ، وآق يناق ، وقرا يناق ، وحمزة الكردي ، وآخرون . وان لم يسلموا هذه الطائفة اليه ، والا أتى إلى دمشق وقاتلهم واستأصلهم . فامتنعوا ، وأظهروا له العناد والتمرد ، والقوة والاشتداد . ثم دخلت طائفة منهم إلى القلعة ، واستولوا عليها ، وتحصنوا . ثم بعثوا منهم جماعة إلى الاميرفخرالدين ابن معن ، والأمير موسى بن الحرفوش ، والاميرأحمد بن الشهاب ، والشيخ عمر شيخ المفارجة . ثم خرجوا إلى القابون ، واجتمع العشير عليهم ثمة ، ولم يتأخر إلا الامير فخرالدين بن معن وبقيت خيامهم بالقابون نحو عشرة أيام ، وأخذوا في نهب زروع الناس وبعض مواشيهم . ودخل أهل الغوطة إلى دمشق ،

ونقلوا أسبابهم ، وأمتعتهم ، ونساءهم اليها ، وارتعبت أهل دمشق . ثم شاع في ثامن ذي الحجة بدمشق ، أن ناصف باشا رجع إلى حلب بعد أن كان وصل إلى الرستن . وكان مصطفى باشا نائب دمشق قد فارقه قبل ذلك بأيام ، ونزل بالقابون ، فلم يمكّنوه من دخول دمشق ، بل قالوا له : ارجع وقاتل معنا ناصف باشا . وبقوا ثمة ، حتى استهلت سنة ثلاث عشرة يوم الاثنين . فهموا بالرحيل ، وافترقوا فرقتين : فرقة تقول نذهب إلى حلب ، وهم الذين كانوا في استخدام حلب ، والآخرون يقولون نرجع إلى دمشق ، وقد رجع عنا ناصف باشا ونحن لا نعصي السلطنة . ثم فكوا خيامهم ، وتوجه الحلبيون إلى أرض القصير . وعذرا . ثم يوم الثلاثاء رحل مصطفى باشا إلى دمشق بعد العصر ، ومعه ابن الشهاب ، وابن الحرفوش ، وأكثر الجند . وانقطع أمرهم عن حلب ، وعن سرداريتهم فيها . وليته انقطع عن دمشق أيضاً ، فلعمري ان بلدة تأمن غوائلهم ، ولا ترى مصائبهم ونوازلهم ، لهي آمينة من جميع المصائب ، مدفوع عنها بلطف الله تعالى جملة النوائب . فانهم مدار كل ضرر آجل وعاجل ، وليس لهم تالله نفع ، ولا تحتهم طائل . عوداً إلى

تتمة ترجمة صاحب الترجمة : ثم صار بعد ذلك نائب السلطنة بديار اناطولي ، ثم ولي محافظة بغداد، ثم صار نائباً بديار بكر ، ثم وجه اليه الوزير الاعظم مراد باشا سردار العساكر حكومة مصر . فلم تمض أيام الا مرض مراد باشا مرض موته ، فبعث السلطان أحمد مراسيل إلى صاحب الترجمة بأن يكون قائم مقام الوزير . ثم توفي مراد باشا فوجهت اليه الوزارة العظمى ، والسردارية . وجاءه الختم ، في جمادى الآخرة سنة عشرين وألف . وعقد الصلح بين السلطان وشاه العجم ، ثم سافر راجعاً بالعساكر إلى حلب ، وأرهب جند الشام وغيرهم . وهرعت الناس اليه إلى حلب ، ثم سافر من حلب إلى قسطنطينية ، فدخلها في شعبان . فقابله السلطان أحمد بالقبول والاقبال ، وزوجه ابنته . ثم قتله ، يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر رمضان سنة ثلاث وعشرين وألف والله أعلم .

* * *

(**الأمير يوسف بن سيفا**) أمير طرابلس الشام . وأوحد المشاهير بالكرم والانعام . ولي حكومة طرابلس مدة طويلة ، واشتهر عنه عزة عظيمة . ونعمة جزيلة .

وقصده الشعراء بالمدائح ، وأهدوا اليه أنفس بدائه المدائح . وكان في نفس الامر ممن تفرد بالهبات الطائلة ، ورغب في ادخار الثناء الحسن بالعطايا الشاملة . واقتدى به أخوه الامير علي ، وابنه الأمير حسين ، وابن أخيه الامير محمد ، فكانت دولتهم السيفية اليوسفية ، كما سمعت عن الدولة البرمكية والمعتمدية ، جمعوا للمعالي شملاً ، وأصبحوا للمكارم أهلاً . وكانت لهم بلاد طرابلس صافية ، ووعود الزمان بالمراد لمن قصدها وافية . وكان الأمير يوسف أكبر القوم سناً ، وأحدّهم في النجدة والبأس سناً . وهو الذي أسس لهم الدولة فبنوا على أساسه ، واقتدوا به في أمر الحكومة مستضيئين بنبراسه . وله من الآثار مسجد بناه بطرابلس . فقيل في تاريخه :

بنى ابن سيفا يوسفٌ مسجداً
دام أميراً للعلى راقيا
ومن بنى للهِ بيتاً يكنْ
عليه في تاريخه راضيا

وقصة مقاتلته ابن جانبولاذ وانكساره قد قدمناها في ترجمة ابن جانبولاذ فلا حاجة إلى اعادتها . وكانت وفاته في عشر الثلاثين والله أعلم .

* * *

قائمة بالتراجم المختارة من رجال الدين والادارة :

اسم الشخصية	العمل	تاريخ الوفاة	الجزء	الصفحة
١ — ابراهيم بن محمدالعمادي	خطيب وشيخ القراء بدمشق	١٠٠٨ هـ	الأول	٣٥
٢ — ابراهيم الصمادي الواعظ	إمام وواعظ	١٠٠٥٤ هـ	»	٤٩
٣ — أبوالقاسم المغربي	مفتي المالكية بدمشق	١٠٣٨ أو ١٠٣٩ هـ	»	١٤٥
٤ — أحمد بن تاج الدين الدمشقي	قاضي الركب الشامي	١٠٦٠ هـ	»	١٥٨
٥ — أحمد بن اسكندر الرومي	كاتب القاضي ونائبه	بعـد الألف بقليـل	»	١٧٧
٦ — أحمد بن أكمل الدين	رئيس المؤذنين	١٠٦٩ هـ	»	١٧٨
٧ — المولى أحمد بن المنلا زين الدين	قاضي حلب فدمشق	١٠٤٥ هـ	»	١٩٧
٨ — المولى أحمد بن سليمان الأياشي	قاضي حلب فدمشق	١٠١٠ هـ	»	٢٠٨
٩ — السيد أحمد الصفوري	قاض شافعي بدمشق	١٠٤٣ هـ	»	٢٤٦
١٠ — المولى أحمد بن عوض	قاضي دمشق فمصر	١٠٤٨ هـ	»	٢٦٢
١١ — اسماعيل الهمذاني	متولي أوقاف الجامع الأموي	١٠٠٦ هـ	»	٤١٠
١٢ — برهان الدين البهنسي	قاضي صيدا	١٠٩٢ هـ	»	٤٥٥

تابع قائمة تراجم رجال الدين والادارة :

١٣ – السيد حسين البيمارستاني	نقيب أشراف حلب	١٠١٣ هـ	الثاني	١٠٨
١٤ – سعودي الغزي	مفتي الشافعية بدمشق	١٠٧١ هـ	«	٢٠٩
١٥ – سنان باشا	كتخدا الجند ومتولي الجامع الاموي	١٠٧٦ هـ	«	٢١٩
١٦ – صنع الله بن محب الله المحبي	نائب قاض وقاض	١٠٩٧ هـ	«	٢٥٩
١٧ – عبد القادر الطوري	المفتي الحنفي بمصر	بعد ١٠٢٦ هـ	«	٤٤٢
١٨ – عبد القادر قدري	قاضي عسكر ومفتي	١٠٨٣ هـ	«	٤٧٣
١٩ – عبد الواحد الأنصاري	قاضي قنفذة	١٠٨٩ هـ	الثالث	٩٦
٢٠ – عبد الوهاب الفرفوري	مفتي دمشق الحنفي	١٠١٢ هـ	«	١٠٠
٢١ – عيسى بن عبد الرحمن	مفتي مراكش	١٠٦٢ هـ	«	٢٣٥
٢٢ – فضل الله الأسطواني	رئيس الكتاب بالمحكمة	١١٠٠ هـ	«	٢٧٥
٢٣ – المنلا قاسم الكردي	ناظر وقف وإمام	١٠٦٨ هـ	«	٢٩٢
٢٤ – السيد محمد بن برهان الدين	نقيب الأشراف باستامبول	١٠٤٠ هـ	«	٤٠٥
٢٥ – محمد بن تاج الدين المحاسني	خطيب الجامع الأموي	١٠٧٢ هـ	«	٤٠٩
٢٦ – السيد محمد بن عجلان	نقيب الأشراف بدمشق	١٠٩٦ هـ	«	٤٣٦

تابع قائمة تراجم رجال الدين والادارة :

٢٧ – محمودبن عبدالله الموصلي	مفتي الموصل	١٠٨٢ هـ	الرابع	٣١٩
٢٨ – مصطفى العلمي	كاتب الصكوك في المحكمة	١٠٧٥ هـ	«	٣٨٥
٢٩ – مصطفى بن قاسم	متولي وقف	١٠٧٩ هـ	«	٣٨٥
٣٠ – يحيى بن زكريا	مفتي السلطنة	١٠٥٣ هـ	«	٤٦٧

* * *

(**الشيخ ابراهيم**) بن محمد العمادي ، الملقب برهان الدين ابن كسبائي . الفقيه ، الحنفي ، الدمشقي ، المقري ، المجيد ، المحدث ، **شيخ القراء** بدمشق في وقته . ولد بدمشق ، وأخذ القراءات العشر عن طريق النشر (١) وغيره ، عن شيخ الاسلام البدر الغزي . وأخذ عنه غير ذلك من العلوم . وقرأ على شيخ القراء بالشام ، أحمد بن بدر الطيبي ، للسبع ، والعشر (٢) . وعلى الامام الشهاب أحمد الفلوجي ختمة كاملة ، لعاصم والكسائي ؛ ومن اوّله إلى (المائدة) ، لأبي عمرو وابن عامر . وعلى العلامة السيد الشريف عماد الدين علي بن عماد الدين محمود ، بن نجم الدين ، بن علي ، القارىء البحرآبادي أصلاً ، الجرجاني منشأ ، ثم القزويني ، قرأ عليه بدمشق إلى **قوله تعالى** ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ للعشرة . وقرأ على المقرىء ، المسند المعمر ، بدر الدين حسن ، ابن محمد ، بن نصر الله الصلتي الشافعي ، للسبعة جمعاً ،

---

(١) المقصود به كتاب « النشر في القراءات العشر » للشيخ محمد ابن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م .

(٢) أي قراءات القران السبع ، والعشر . والقراء العشر الذين نسبت إليهم تلك القراءات هم : حفص ، وحمزة ، وعاصم ، وابن عامر ، ابن كثير ، ونافع ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف ، وأبو جعفر .

ثم للعشرة إلى قوله تعالى : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ . في البقرة ؛ وعلى الامام العلامة شرف الدين يحيى ، بن محمد ، ابن حامد الصفدي ، إلى قوله تعالى : ﴿ واذ قلتم ياموسى لن نصبر ﴾ ، من طريق الشاطبية (١) .وقرأ النشر ، والشاطبية ، والدرة (٢) ، والمقدمة (٣) ، وغير ذلك على الطيبي . ورحل إلى مصر ، وأخذ بها عن النجم الغيطي وغيره . وكان يعرف العربية ، وغيرها . وله شعر ، أكثره منحول من أشعار المتقدّمين ، مع تغيير يسير ٌبما أخل بالوزن . وكان له بقعة بالجامع الاموي . وولي تدريس الاتابكية(٤) ، عن المحدث الكبير محمد بن داود المقدسي ، نزيل دمشق ، الآتي ذكره ، في حياته ، ثم أعيدت إلى الداودي . ودرس

---

(١) كتاب « الشاطبية في القراءات السبع » للشيخ القاسم الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م .

(٢) كتاب « الدرة المضية في قراءات الائمة الثلاثة المرضية » لمحمد بن محمد الجزري .

(٣) منظومة « المقدمة الجزرية في علم التجويد والقراءات » لمحمد بن محمد الجزري .

(٤) من مدارس الشافعية بدمشق ، بسفح قاسيون ، وقد اندرست .

بالعادلية الكبرى (١) بطريق الفراغ ، من حسن البوريني ، لما درس بالمدرسة الناصرية الجوانية (٢) . وخطب مدّة طويلة بجامع سيبائي ، خارج دمشق بقرب باب الجابية . وكان يعسر عليه تأدية الخطبة ، ويطيل فيها . وكان فيه دعابة ومزاح ، ويغلب عليه التغفل . قال النجم في ذيله : قرأت بخطه نقلاً عن خط والده ، أن مولده ليلة السبت خامس عشر شهر ربيع الثاني ، سنة أربع وخمسين وتسعمائة ، وتوفي يوم الاثنين ختام ذي القعدة سنة ثمان بعد الالف ، ودفن بمقبرة باب الصغير قبالة المدرسة الصابونية .

* * *

(**ابراهيم**) ويعرف كما يعرف هو (٣) **بالصمادي** ، إلا أن اسم أبيه ، احمد ، بن داود ، بن مسلم ، بن محمد ، ويتميز عن هذا باطلاق لفظ « الواعظ » عليه ،

---

(١) هي مقر المجمع العلمي العربي اليوم ، مقابل الظاهرية .

(٢) من مدارس الشافعية بدمشق ، داخل باب الفراديس. وقد تحولت إلى دار للسكن .

(٣) لقد سبق هذه الترجمة ترجمة لشخصية صوفية تحمل الاسم نفسه (ابراهيم الصمادي) .

وانما ذكرته هنا دفعاً لهذا الاشتباه من أوّل وهلة ، ولان الشهرة للمذكور هنا دون ذاك . وكان **امام الجامع الأموي** بالمقصورة على مذهب الشافعي . وكان عالماً ، فقيهاً ، **واعظاً** ، ناصحاً . وكان وعظه مؤثراً في القلوب يخشع له السامع . وكان في ابتداء أمره قرأ على الشمس الميداني ، وكان يلازم دروسه . ولما مات الشمس لزم النجم الغزي ، وروى عنهما الحديث ، والفقه ، وأجازه النجم بالافتاء ، فكان يفتي ، وقام في النفع مدّة ، وأخذ عنه كثير ممن لحقه . وكان صالحاً جدّاً ، وله مناقب سامية . منها ماحكاه الشيخ محمد الميداني نزيل الخانقاه (١) السميساطية (٢) ، وهو قريب العهد، وكان من أصلح خلق الله : أنه كان يقرأ على الصمادي المذكور في(المنهاج) ، وكان غلام وسيم الوجه يقرأ عليه أيضاً في الفقه ، وعلى الميداني في التجويد . قال: فرأيت الصمادي يوماً في الجامع صادف الغلام فعبث بخدّه ، فأنكرت عليه ، وانقطعت عن درسه . فرأيته في المنام قد أحاطت به جماعة من العلماء كثيرون ، وهو راكب، فدنرت لأقبل يده ، فقال لي : عدِّعن اعتراضك على أوليا

(١) المكان الذي يقيم فيه المتصوفة .

(٢) تقع عند الباب الشمالي للجامع الأموي ، وقد تخربت .

الله تعالى . ففي ثاني يوم توجهت اليه ، فأوّل ماقابلني بشّ في وجهي ، وقال: لعلك تركت الاعتراض . وبالجملة فقد كان من عباد الله الاخيار، وكانت وفاته في سنة أربع وخمسين وألف ، ودفن بمقبرة باب الصغير .

والصُمادي ، بضم الصاد المهملة ثم ميم بعدها ألف ثم دال مهملة ، نسبة إلى صُماد قرية من قرى حوران ، بها أجدادهم ولهم نسبة سيادة من جهة الاب ، أظهروها في سنة خمس وثمانين وتسعمائة ، وذكروا أنها كانت عند بعض بنات عمهم بمدينة نابلس ، وانهم لم يطّلعوا عليها الا بعد وفاتها. وأثبتوا نسبهم بدمشق على بعض قضاتها ، ووضعوا العلامة الخضراء على رؤوسهم ، وبعضهم لبس العمائم الخضر . وكان قريباً منهم أثبت نسبهم بنو الدسوقي في سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، ذكر ذلك الشمس الداودي المقدسي نزيل دمشق ، وشيخ محدثيها، في أوراق ظفرت فيها بخطه ، ذكر فيها وقائع كثيرة وقعت بالشام . وأما نسبة الصماديين من جهة الام ، إلى سعيد بن جبير فمستفيضة . ومنهم مسلم الكبير مذكور في نسبهم ، وهو صاحب الطبل المستقرّ عندهم من نحاس أصفر ، كان معه في فتح عكة ، يضربون به عند سماعهم

ووجدهم . وقد سئل كثير من العلماء عنه فأفتى البدر الغزي، والشمس بن حامد ، والتقوي بن قاضي عجلون ، باباحته في المسجد وغيره ، قياساً على طبول الجهاد والحجيج ، لانها محركة للقلوب إلى الرغبة في سلوك الطريق . وهي بعيدة الاسلوب عن طريقة أهل الفسق ، والشرب . والصوفية معروفون، وكثيراً ما كان يختلج في صدري السؤال عن لفظ الصوفي لماذا ينسب ، حتى رأيت رسالة للسنباطي الخطيب الشافعي المسعودي ، ذكر فيها نقلاً عن ابن الجوزي في كتابه تفليس ابليس : ان أوّل من انفرد بخدمة الله تعالى عند البيت الحرام رجل يقال له صوفة ، واسمه الغوث بن مرّ ، فنسبوا اليه لمشابهتهم اياه في الانقطاع إلى الله تعالى . وروى بسنده إلى أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ . قال: سألت وليد بن قاسم إلى أي شيء ينسب الصوفية ؟ فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله تعالى ، وقطنوا عند الكعبة ، فمن تشبه بهم فهو الصوفي . وقيل على الاوّل انما سمي الغوث بن مرّ صوفة ، لأنه كان لايعيش لامه ولد ، فنذرت لئن عاش لتعلّقنه برأسه ، ولتجعلنه ربيطاً بالكعبة ، ففعلت ، فقيل له: صوفة ، ولولده من

بعده . ثم رأيت الشهاب الخفاجي قد تعرّض للصوفية ، فزاد وجوهاً في النسبة ، استطردتها فنقلتها حيث قال : والمتصوّفة والصوفية ، واحدهم صوفي ، ويقال تصوّف ، اذا انقطع لله تعالى ، كما يقال قيسي اذا انتسب إلى قيس . وهذا الفظ موّلد ، واصطلاح حدث بعد القرن الاول . فقال بعضهم الصوفي هو المنقطع بهمته إلى ربه ، وهم مقتدون بأصل الصفة ، وهي سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. وكان قبل الاسلام حيّ يقال لهم صوفة يخدمون الكعبة فقيل الصوفي ، نسبة لهم ، وقيل انهم تجمعوا كما يتجمع الصوف ، وقيل انهم لخشوعهم كصوفة مطروحة على الارض . أو هم منسوبون للصوفة للينهم ، وسهولة اخلاقهم ، أو للبسهم الصوف لاختيارهم الفقر ، وهذا أظهر الوجوه لفظاً ومعنى. وقيل : منسوبون للصفة ، وقيل : الاصل صفّي فأبدل احد حرفي التضعيف ليناً . وقيل انه من صفاء ، ففيه قلب ، وصحح هذا بعضهم لقول البستي :

تخالفَ الناسُ في الصوفيّ واختلفوا
جهلا فظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحلُ هذا الاسم غيرفتى
صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

ولا شاهد فيه ، لانه على مذهب الشعراء ، وقد بين المصنف معنى الصوفي . انتهى .

* * *

(**أبو القاسم**) بن محمد المغربي السوسي ، المالكي ، نزيل دمشق ، **ومفتي** (١) **المالكية** بها . كان **اماماً بزاوية المغاربة** ، خارج باب الشاغور ، ومحل مرقد ولي الله الشيخ مسعود . يقال ان الدعاء عند قبره مستجاب. كان يصلي بها الاوقات الخمسة . وكان حافظاً لقراءة السبع ، والعشر ، وشرح الشاطبية ، والنشر ، شرحاً لطيفاً . وكان له مكتب يعلم فيه الاطفال ، وما قرأ عليه أحد الا فتح عليه لشدة ماكان عليه من الفتح . وكان وحيد عصره في **الفتيا** ، بعد مشايخه العظام بدمشق كأبي الفتح المالكي وغيره .

---

(١) أوجد السلطان العثماني « سليمان القانوني » تنظيماً للمفتين موازياً لتنظيم القضاة . فالى جانب القاضي الحنفي العثماني في كل مدينة هناك مفت . والمفتي هو الفقيه الذي يطلب منه ايضاحات وتفسيرات للأمور الشرعية ، وحلولا لبعض القضايا . وقد عملت الدولة على أن يكون هناك مفتون محليون على المذاهب الأربعة حيث يكون السكان على تلك المذاهب . بل انها مع مرور الزمن كانت تختار المفتي الحنفي من أهل البلاد العرب .

وكان شهماً غيوراً على الدين ، تهابه القضاة والحكام .. وغالب أهل دمشق يرجعون اليه في المشاورة للامور .. وحدّث بالجامع الاموي ، فحضره خلق كثير . وأخذ عليه جماعة ، وانتفعوا به ، منهم الشيخ علي المكتبي وولده محمد الآتي ذكرهما . وكانت وفاته في سنة ثمان أو تسع وثلاثين وألف . ودفن بمقبرة باب الصغير بالقرب من ضريح سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه .

* * *

(**أحمد**) بن ابراهيم المعروف **بابن تاج الدين** ، الحنفي ، الدمشقي ، التاجي . كان أحد صدور الشام ، ومن كملائها المشهورين بحسن المصاحبة ، ولطف البداهة . وكان وجيهاً صاحب اقدام في الامور ، وله معرفة باللغة التركية ، وكان بيده وقف أجداده بني تاج الدين ، وهذا الوقف من الاوقاف الكبيرة بدمشق . وكان شريكاً لخاله ، شيخ شيوخ الشام ، عبد القادر بن سليمان في خدمة مزار حضرة الشيخ ارسلان ، وكانت بينهما نصفين . وسافر إلى الروم ، ولازم على قاعدتهم ، ودرس ، ثم صار **قاضياً بالركب الشامي** في سنة تسع وثلاثين وألف . وعاد إلى الروم ..

وصار قاضياً بفوّه في اقليم مصر . وبعدما عزل منها **توجه** إلى الروم ثالث مرة ، في رجب سنة سبع وأربعين وألف ، وترك طريق القضاء ، وأبدله بالتدريس . وولي تدريس المدرسة الاحمدية بالمشهد الشرقي بجامع بني أمية المعروفة بدار الحديث ، التي كان جددها أحمد باشا الحافظ أيام حكومته بالشام . وكانت وجهت اليه برتبة الخارج (١) ، ثم أعطي رتبة الداخل . وأخذ المدرسة العذراوية (٢) ، عن عالم دمشق وخطيبها احمد بن يحيى البهنسي الآتي ذكره ان شاء الله تعالى ، ولم يتصرف بها وقررت على البهنسي لكون أخذها لم يصادف محلاً . **وناب في قضاء دمشق عن قاضي القضاة أبي السعود الشعراني** المقدم ذكره ، وأثرى في آخر عمره ، وتصدر ، وكثرت حواشيه ، وعلى كل حال فهو معدود من الصدور . وكانت ولادته في سنة سبع بعد الالف ، وتوفي في سابع شعبان سنة ستين وألف ودفن

---

(١) لقد رتب السلطان « سليمان القانوني » التعليم الذي يخرج المدرسين والقضاة في اثنتي عشرة درجة ، ومن تلك الدرجات : الخارج ، والداخل ، وهي من بدايات المراتب . ورتبة الداخل تتلو الخارج ، ولكل واحدة مرتب معين .

(٢) تقع بحارة الغرباء داخل باب النصر وقد تهدمت .

بالمدرسة القلجية (١) تحت قدمي بانيها الامير يوسف الدين قلج الاصفلار رحمه الله تعالى .

* * *

(**أحمد**) بن اسكندر الرومي **الكاتب**، نزيل دمشق ، وحيد وقته في صناعة الانشاء . وكانت له الشهرة التامة بالذكاء ، وسرعة الفطانة . وكان يكتب العروض المهمة من رأس القلم من غير تسويد ، ويكون مقبولاً إلى الغاية عند العارف بهذا الفن ، مع حسن الخط الفائق حلاوة وطلاوة . وسبب تفوّقه في هذه الصناعة ، انه أتقن الالسن الثلاثة العربي والفارسي والتركي اتقاناً كاملاً ، والمقبول من انشاء التركية ماكان مرصعاً من الالسن الثلاثة . ورد دمشق في سنة ثمان وثمانين وتسعمائة مع قاضي القضاة مصطفى ابن بستان ، وكان أحد جماعته الذين ينوبون عنه في القضاء ، ونال منه حظاً عظيماً بحيث انه يمضي غالب الامور باشارته . وكان يكتب له العروض . ثم قطن دمشق ، وبقي بعد عزل استاذه ، وابتنى بيتاً كان تربة في مقابلة دار الحديث الاشرفية بالقرب من قلعة دمشق . ودرس

(١) شمالي العادرية ، بسوق التبن .

بالمدرسة الجوهرية (١) . ودأب في تحصيل العلوم والمعارف ، فقرأ على العلامة محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي علم الكلام والهيئة وغيرهما ، وقرأ على الحسن البوريني من الشرح المختصر على التلخيص ومقامات الحريري، ومهر في جميع الفنون حتى صار من أعلام وقته ومفردات عصره في التنقيب عن كلمات القوم الدقيقة . وكان ينكر على ابن عربي ، وابن الفارض ، وأضرابهما . ويحط عليهما . وانفلج في آخر عمره ، فكان يقال ان ذلك بسبب انكاره . وكانت وفاته بعد الالف بقليل . هكذا ذكره النجم في (لطف السمر) ولم يزد على ذلك والله أعلم .

* * *

(**أحمد**) بن أكمل الدين ، الدمشقي ، الحنفي . **رئيس المؤذنين بجامع بني أمية** ، المعروف بالشراباتي . كان أعجوبة وقته . ونادرة عصره ، جمع إلى الصلاح حسن المعاشرة ، ولذة المخاطبة . وكان حسن الصوت ، عارفاً بالموسيقى . وله سخاء ، وإيثار . وكان في مبدأ أمره

---

(١) بحارة البلاطة شرقي المدرسة الصالحية (زقاق المحكمة الشرعية) .

مؤذناً بالجامع المذكور ، ولما توفي الشيخ محمد المحملجي ، أحد رؤساء المؤذنين الثلاثة به (١) ، وجه اليه مكانه . وسافر إلى آمد مع ابراهيم باشا الدفتري بالشام، وحج معه لما صار أمير الركب الشامي في سنة احدى وأربعين وألف . وكانت ولادته سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وتوفي عصر نهار الجمعة آخر يوم من ذي الحجة سنة تسع وستين وألف ، ودفن من غده في مقبرة باب الصغير . قال والدي رحمه الله : واتفق يوم وفاته ان كان يوم نوبته في الترقية بين يدي الخطيب ، فناوله ساقي الحمام في نوبته رحمه الله تعالى .

* * *

(**المولى أحمد**) بن المنلا زين الدين ، العجمي ، النحجواني الاصل ، الدمشقي المولد والوفاة . **قاضي القضاة** الملقب بالمنطقي . الفاضل ، الاديب ، الشاعر ، الناثر ، أحد أفراد الدهر ومحاسن العصر . كان فاضلاً ، سامياً هضبات الادب ، متفنناً بليغاً في انشائه ، عذب المنطق ، سريع الفهم . وبالجملة فقد كان روحاً كله من فرقه إلى قدمه . وكان ينظم

(١) كان عدد المؤذنين في جامع بني أمية كبيراً ، وكان هناك ثلاث نوب لهم منذ عهد الوليد بن عبد الملك وعلى رأس كل نوبة «رئيس للمؤذنين» .

وينثر في الالسن الثلاثة . وهو فيما عدا العربي ، نسيجُ وحدِه ، ومفرد وقته . وشعره فيما بين أهل الروم أغلى قيمة من الدر . وذكر لي بعض الثقات منهم أن الاديب شاعر الروم في وقته سليمان البوسنوي ، المنعوت بمذاقي ، وهو ممن أدركته بالروم وسأذكره في كتابي هذا ، كان يقول في شعر المنطقي : ان كل غزل من شعره يعادل ديواناً من شعر غيره . وكنت وأنا بالروم جمعت من أشعاره حصة وافرة ، فأردت ذكر شيء منها هاهنا ، ثم منعني من ذلك ان أهل بلادنا ليس لهم اعتناء بهذا النوع ، وغالب النساخ عندنا لا يعرفون التركية ، فكثيراً مايحرّفون الكلم عن مواضعه ، فيقع التخبيط ، والحاجة ليست بماسة لذلك جداً . نعم ، هي ماسة لدفع مايقع بين أدباء العرب من السؤال عن قوافي أشعار الروم ، بسبب اتحادها في الصورة ولو كثرت ، ويقولون ان هذا ايطاء(١) تبعاً للعربية ، فهذا يحتاج إلى بيان ، ولم أر من تعرض له الا العماد الكاتب في خريدته . فانه قال: وللعجم ، قلت: والروم تبع لهم ، مذهب في الشعر مخالف لاسلوب العرب ، وهو انهم يجعلون الكلمة الواحدة رديفاً يردّدونه في كل بيت . مثال ذلك مانظمه الشاعر :

---

(١) وطأ الشعر وفيه : كرر القافية فيه لفظاً ومعنى .

سل الصَبا هلْ وردُ الوردُ

يامن عليه حسد الورد

ثم قال: فالدال هي الروي عندهم. والورد هوالرديف، مثل هاء الضمير في أسودها وأغيدها. قال: وتذكرت هنا رباعيات لي وهي:

اسمعْ ماقال عندليب الورد

فالبلبل في الروض خطيب الوردِ

الشرب على الورد نصيبُ الوردِ

مايحسن أن يضيع طيب الورد

وأيضاً:

كم حضر الراح وغاب الوردُ

حتى عدم الراح فناب الورد

لما عبق الراح وطاب الورد

قُلنا جمد الراح وذاب الورد

وهذا كلام وقع في البين ولكن ماخلا من فائدة. فلنعد إلى تتمة ترجمة المنطقي فنقول: وأما شعره العربي فقليل، وقد أورد له والدي رحمه الله تعالى في ترجمته قطعتين، استحسنت احداهما فأوردتها وهي هذه:

سقت الرياض دموع عيني الجارية

فبدت تراجعها عيون باكيه

وسرت لأغصان الورود فأصبحت

أكمامها منها قلوباً داميه

دمعي تبادل بالشرار وكيف لا

وجحيم قلبي فيه نار حاميه

ماذا عليّ من الجحيم ولم تزل

نار المحبة في وجودي باقيه

ياسادة لما بدا سلطانهم

مَلَكَ القلوبَ من الانام كما هيه

تلوي غصون قدودهم أيدي الصبا

وقلوبهم مثل الحجارة قاسيه

لم يبق لي ثمن يقاوم وصلكم

الا المحبة والمحبة غاليه

الجسم ذاب من الجفا والقلب ره

نٌ عندكم والروح مني عاريه

منوا علي بنظرة فَوَحقّها

قسماً بمن يحيي النفوس الفانيه

لو مرّ بي ميتاً نسيمُ دياركم
سرت الحياة إلى عظامي الباليه

وذكر مبدأ أمره ، أنه ولد بدمشق . وقرأ وبرع ، واشتهر . وأشهر من أخذ عنه الشرف الدمشقي ، وبرز بروزاً غريباً ، فجلس لالقاء الدروس وهو حدث السن ، جديد العذار ، فاجتمع في حلقة درسه جماعة من الاكراد ، والاعاجم . ونبل قدره ، وعلا صيته ، وولي تدريس المدرسة السليمية بصالحية دمشق ، وكانت بيد العلامة عبد الرحمن ابن عماد الدين العمادي . وبعد مدة أعيدت إلى العمادي . فسافر المنطقي إلى حلب ،وذلك في سنة خمس وعشرين وألف . واجتمع ثمة بالوزير محمد باشا السردار ، المعين من جانب السلطان أحمد إلى مقاتلة شاه العجم عباس خان . فحظي عنده باقبال كثير ، وقرر له المدرسة ، وعاد إلى دمشق بمهابة عظيمة ، وأقام بها مدة . ثم سافر ثانياً إلى حلب صحبة محمود الرومي الدفتري بدمشق ، فاجتمع بقاضيها الاديب المنشيء المشهور عبد الكريم بن سنان ، فأحسن اليه كل الاحسان . ولما عزل من قضاء حلب ، صحبه إلى الروم ،وكان ذلك في حدود سنة ثمان وعشرين وألف ،

فدخل إلى دار السلطنة وأقام بها . فرغب كثير من كبرائها في معاشرته لحسن محاضرته وأدبه ، وحظي عندهم . ولازم ودرس بعد مدة بعدة مدارس ، وجمع مالاً كثيراً ، وجاهاً عريضاً . وترقى في الشهرة حتّى وصل خبره للسلطان مراد ، فاتخذه نديم مجلسه . وكان يجتمع هو ونفعي ، الشاعر المشهور أحد الندماء في المجلس السلطاني ، ويجري بينهما مكالمات ومخاطبات تأخذ العقول . وكان كل منهما شديد الحط على الآخر في غيبته . ومن أبلغ ماوقع بينهما أن السلطان أمر صاحب الترجمة أن يهجو نفعي ، فهجاه بقصيدة أفحش فيها . فلما سمعها نفعي استشاط غيظاً ، وجزم على مكيدته . وعرض في المجلس السلطاني بأن المنطقي يحسن محاكاة كل جيل من الناس ، وان أحسن مارآه منه محاكاة الفرنج في الملبس والمكالمة . فنادى السلطان صاحب الترجمة وذكر له ماقاله نفعي عنه . فحلف الأيمان الاكيدة انه لم يصدر منه مثل ذلك قط ، ومازال يتخضع ، ويبكي حتّى خلص نفسه من هذه الورطة ، التي كان أدنى عاقبتها القتل . ولما تحرّك الجند على السلطان ، وقتلوا الوزير الاعظم

أحمد باشا الحافظ ، انقطع صاحب الترجمة عن صحبة السلطان ، خوفاً من الجند . ولزم زاوية العزلة . وظهر السلطان بعد ذلك على الجند ، وقتل منهم من قتل ، وفرّق شملهم ، فظهر المنطقي إلى الوجود ، الا أنه ضرب الحجاب بينه وبين صحبة السلطان كغيره من الندماء . ولكنه بقي على التردد إلى مجالس الصدور ، كالمفتي الاعظم المولى يحيى بن زكرياء وغيره . وكان كثير الحطّ على من يعاديه ، مغالياً في اظهار زيف أبناء عصره ، خصوصاً أهالي بلدته دمشق . وذكر والدي في ترجمته بأنه كان يوماً في مجلس المفتي المذكور ، فوصلت اليه قصيدة أرسلها اليه أديب دمشق أحمد بن شاهين ومطلعها :

لايسلني عن الزمان سؤول

إنّ عتبي على الزمان يطولُ

فناوله المفتي قرطاسها ، وأمره بقراءتها ، فابتدر يقرؤها ويحاكي ناظمها في حركاته وانشاده الشعر . وكان على طريقة أبي عبادة البحتري في انشاده الشعر ، يتشدّق ويهز رأسه ، ومنكبيه ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول أحسنت أو أجدت أو ماشاكلها ، إلى أن أتم قراءتها

على هذا الاسلوب . فبلغ ابن شاهين مافعله فجهز قصيدة ثانية إلى المفتي المذكور ومطلعها قوله :

غبّ لثم الاعتاب بعد الدعاء
بشفاه لم تنو غير الشفاء

وذكر فيها فصلاً يعرض بالمنطقي وهو في بابه مستعذب جداً وذلك قوله فيها :

وأناسٍ من الشآم نعتْهم
شامُنا في جوانب الغبراءِ
تركتْهم لا يألفون خليلا
من جميع الورى لفقد الوفاء
خرجوا يطلبون فضل ثواءٍ
ليتهم قد رضوا بفضل الثراء
ألفوا الكسب من وجوه البرايا
ما دروا قدر مكسب الآباء
برح العجز فيهم فتراهم
يبتغون الغداء وقت العشاء
قد أراقوا ماء الحيا والمحيّا
ثم حدّوا في الكذب والافتراء

ربما هجّنوا لديك ثنائي
ربما حسّنوا لديك ازدرائي

ربما حاولوا حكاية صوتي
فأخلّوا بحسن ذاك الاداء

ليس عندي وأنت ذُخْرِيَ منهم
غير ما بالجوزا من العوّاء

أنا ياسيدي سُهَيْلٌ(١) عليهم
وطلوعي يضرّ نسل الزناء

هذا البيت مأخوذ من قول المتنبي :

وتُنكِرُ موتهم وأنا سهيلٌ
طلعتُ بموت أولاد الزناء

والعرب تزعم أن سهيلاً اذا طلع وقع الوباء في الارض ، وكثر الموت . يقول: فأنا سهيل على أولاد الزناء خاصة أي أنهم يموتون حسداً لي. وبعض الناس يقول: ان ولد الزنا اسم لدويبة ترصف اذا طارت بالليل ، وانها تموت اذا طلع سهيل ، ولاأدري صحته والله تعالى أعلم . ولم يزل المنطقي على حالته المذكورة حتى صار **قاضي قضاة حلب**

(١) نجم من النجوم .

ونقل منها إلى قضاء الشام فوردها، وكان سيره بها حسناً .
ومدحه شعراء ذلك العصر بالقصائد الطنانة ، وأجود مامدح
به قصيدة الامير المنجكي التي مطلعها قوله :

ورد الربيع فقمْ لِحثْي الكاس
ودع المقام بأربعٍ أدراسِ

يقول منها في مديحه :

قاض تودّ لو أنها فرشت له
عند القدوم كواكبَ الأغلاس
بيديه حلُّ المعضلات وكشفها
وجلايةُ الجلى ورفع الباس
وله سهام عدالةٍ لو فوّقت
تركت متون الجور كالاقواس
لما سهرتُ على مدائحه التي
جعلت عداي من الردى حراسي
ودّ الهلال لو استقام وانــه
أمسى لديّ مكانة النبراس

ووجهت حكومة الشام في أيام قضائه ، إلى مصاحب
السلطان مراد الوزير مصطفى باشا السلاحدار، فأرسل من قبله

لضبطها رجلاً يقال له عثمان الجفتلري ، وهو الذي صار حاكماً مستقلاً بالشام في سنة ثمان وأربعين وألف . ووقف الوقف الذي له على أجزاء تقرأ في الجامع الاموي، بعد صلاة الظهر ، في العزية الصغيرة الوسطى قبالة محراب الحنابلة . فاتفق انه وقع بينه وبين صاحب الترجمة لمنعه اياه عن بعض المظالم ، فعرض فيه بما لايليق عرضه ، وأسند اليه أموراً منها هدم قبة المزار المنسوب لسيدي عبد الرحمن حفيد سيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، بمقبرة الفراديس . وكان هدمه بسبب انه كان يصير فيه بعض مناكر من الفساق . ومنها انه ورد أمر فتح قلعة روان حين أخذت من يد شاه العجم عباس شاه ، واتفق يومئذ وجود القاضي في الصالحية . فأرسل اليه الخبر فتباطى في النزول وحضور الديوان . ومنها انه ربما أطلق لسانه في أركان الدولة ، ومنهم الوزير المذكور . فبعد مدّة قليلة من ارسال العرض ورد خبر عزله عن قضاء الشام ، ثم ورد أمر شريف بقتله . فأخذ إلى قلعة دمشق وخنق بها . واتفق يوم وصول خبر قتله ، دخول المولى عبدالله بن عمر معلم السلطان عثمان ، قاضي مصر إلى الشام . وجرى ذكر المنطقي في مجلسه وما وقع له من

الخنق ، فقال متمثلاً : ان البلاء موكّل بالمنطق . وكأنه أحال ذلك على سببية اطلاق لسانه في حق بعض الصدور . وقيل في تاريخ قتله (قل مسقط الرأس دمشق) . وحكى انه لما ولي قضاء الشام ، ذهب إلى المفتي الذي ولاه ، المولى يحيى المذكور آنفاً بالتشكر منه ، ففاءله بالتبريك بأن قال له : أوّل شام وآخر شام . وكان ذلك جرى على لسانه بالهام ، فوقع ماقاله . وهذه اللفظة يستعملها أهل الروم من قبيل المثال ، ولم أقف على أصلها ، وان كان معنى شقها الثاني صحيحاً باعتبار أن الشام أرض المحشر والمنشر . وأما باعتبار شقها الاوّل فما أدري وجه الاوّلية والله تعالى أعلم . وبالجملة فقد عاش المنطقي حميداً ، ومات شهيداً ، فرحم الله تعالى فضائله ومعارفه . وكانت ولادته في سنة ثلاث بعد الالف ، ومات صبيحة الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وألف . وضبطت أمواله لجهة بيت المال ، وصلي عليه بعد أداء صلاة الجمعة في الجامع الاموي ، ودفن بمقبرة الفراديس بالقرب من قبر أبي شامة .

والنّخجواني بفتح النون وسكون الخاء المنقوطة وضم الجيم ثم واو بعدها ألف ونون: بلدة بالعجم معروفة .

* * *

(المولى أحمد) بن سليمان الرومي . المعروف بالاياشي ، قاضي القضاة بحلب ثم بالشام . ولي الشام في سنة سبع بعد الالف . وكان في ابتداء قضائه معتدلاً ، وسالك مسلك الانصاف ، ومدحه شعراء دمشق بالقصائد البديعة ، ومنهم أبو المعالي درويش محمد الطالوي . فانه كتب اليه قصيدة شينية استحسنها أدباء وقته مع صعوبة رويها ، ومطلعها :

كيف أخشى في الشام أمرَ معاشي
وملاذي بها جناب الأياشي
أفضل القوم من سما للمعالي
فاعتلاها طفلاً وكهلاً وناشي
فهو بدر العلوم صدر الموالي
من سماهم فضلاً ولست أحاشي
ساق عدلاً بالشام حتى شهدنا
مشي ذئب الفلاة بين المواشي

ثم تغيرت أحواله ، وفسدت أطواره ، واشتهرت في أيامه الرشوة ، وأبطل كثيراً من الحقوق ، حتى ضجر منه أهل دمشق وأعياهم الجهد ، وقامت عوامُّها على ساق ،

فرجموه عند خندق القلعة بين سوق الاروام والعمارة الاحمدية ، وأفحشوا في رجمه . وكان رجمه يوم دخول السيد محمد باشا الوزير إلى دمشق حاكماً بها ، وقد كان طلع لاستقباله ، فكان الناس يشيرون إلى الوزير بالشكاية عليه في وجهه ، ويتظلمون وهو ساكت . ولم يزل الناس ممسكين أيديهم عن الرجم ، إلى أن دخل الوزير المذكور إلى دار الامارة ، ففارقه القاضي ، فاستقبله الناس عند انصرافه يصيحون في وجهه ، ويقابلونه بكلمات لاتليق ، وأعقبوا ذلك بالرجم ، حتى فرّ منهم هارباً ، وأدركه مع ذلك ماأدركه من الاحجار . وهجاه بعد ذلك أبو المعالي المذكور بقصيدة طويلة سماها« رفع الغواشي عن ظلم الاياشي» ، وقسمها فصولاً ، وجعل كل فصل في حال من أحواله . وابتدأها ببيتين من شعر شيخه أبي الفتح المالكي مفتي المالكية بالشام ، وهما قوله :

الشام تبكي . بدموع غزار
بكاء ثكلى مالها من قرار

بكاء مظلوم له ناصر

لكن بعيد الدار والخصم جار

ثم ذكر فصولها ، فمن ذلك قوله ، مشيراً إلى ظلمه مع وكيله ، لرجل بدمشق يقال له عقيص ، مات وخلف ثلاثة آلاف قرش ، أخذ منها ألفاً فقال :

كيف استحلَّ ألفَ قرش لنا

وجملة المال ثلاثٌ كبار

وجملة الاوقاف في عهده

تباع في الدلاّل بيع الخيار

ويدعي الرقة في طبعه

مثل المخاديم الموالي الكبار

ثم عزل عن قضاء الشام بعيد رجمه بقليل ، واتفق عزله يوم عيد النحر من سنة ثمان بعد الالف فقيل في تاريخ عزله :

رجم الأياشي في دمشق وجاءه

عزل وكان العيد عيداً أكبرا

وسئلت عن تاريخه فأجبتهم

بالعزلِ شيطانٌ رجيم دُمِّرا

وكانت وفاته في سنة عشر بعد الالف .

والاياشي بفتح الهمزة بعدها ياء مثناة ثم ألف فشين معجمة نسبة إلى أياش ، بليدة يصنع بها الصوف من نواحي أنقرة ، ببلاد قرمان . والله أعلم .

* * *

(**السيد أحمد**) بن علي ، بن علاء الدين ، السيد الشريف ، المعروف بالصفوري ، الحسني الشافعي ، الدمشقي . كانت له معرفة تامّة بالفقه ، والشعر ، وأنواع الادب . وكان حسن الخلق ، جيد الفهم ، له همة عالية ، وطبيعة مطيعة . قرأ بدمشق على عبد الحق الحجازي ، والحسن البوريني ، والشرف الدمشقي . وسمع الحديث من الشمس الميداني ، والنجم الغزي ، وكان معيداً لدرسيهما في صحيح البخاري تحت قبة النسر ، بجامع دمشق . وسافر إلى حلب في سنة ست عشرة وألف ، وجرى له مع أدبائها مطارحات ، وقفت عليها بخطه في بعض مجاميعه . ودرّس بدار الحديث الاشرفية ، وتولى **قضاء الشافعية بمحكمة الباب بدمشق** . وكان حسن النزاهة في قضائه ، مشهور السمعة . وله شعر مستعذب ، عليه طلاوة ، وفيه رقة وعذوبة . فمن ذلك قوله :

أيا رَب قد مكنتَ في القلب حبّه

وحكمته في الصب بالقول والفعل

وألهمته الإعراض َعني ولم تَدَع

لقلبي صبراً عنه في الهجر والوصل

فألهمه احساناً إليّ فليس لي

سوى لطفك المعهود إن لم يكن من لي

والا فسوّ الحب بيني وبينه

فانك يامولاي توصف بالعدل

هذا أسلوب لطيف يعرفه من له خبرة بقريض الشعر ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر تظرّفاً ، كاستعماله في الغزل ماعهد استعماله في الدعاء ، كقول ابن الوكيل :

يارب جفني قد جفاه هجوعه

والوجد يعصي مهجتي وتطيعه

يارب قلبي قد تصدّع بالنوى

فإلى متى هذا البعاد يروعه

يارب بدرُ الحيّ غاب عن الحمى

فمتى أراه في القباب طلوعه

يارب في الاظعان سار فؤاده

ياليته لو كان سار جميعه

يارب لا أدعُ البكا في حبِّهم

من بعدهم جَهْدُ المُقِلِّ دموعهُ

يارب عذِّبْ في الهوى من ساءني

بمقالة أحلى الهوى ممنوعهُ

يارب هذا بينه وبعاده

فمتى يكون ايابه ورجوعه

ومثله استعمال الغزل على طريق الاوامر السلطانية كقول الظريف :

أعزَّ الله أنصارَ العيون

وخلد ملك هاتيك الجفون

وأسبغ ظل ذاك الشعر منه

على قدٍّ به هيف الغصون

ومن شعر صاحب الترجمة قوله مضمناً :

إن جئتْ حيَّ أميري صف له شجني

وطول سقمي وماألقىفان سمعا

فاشرح له حال صبٍ مغرم دنف
قد قطّع البعد عنه قلبه قطعا
لايستقرُّ به في منزل جسدٌ
وطرفه بعده والله ماهجعا
واذكر له أن حبي زاد فيه وهل
يخشى تغير مافي الطبع قد طبعا
وانشده عهداً مضى في الرقمتين لنا
والبدر شاهدنا لما اليه سعى
عساه تعطفه تلك العهود وكم
خلٌ إلىالعهد والميثاق قد رجعا
وأسرع بلطف وقل مستعطفاً ملكا
بيتاً إلى ذكره حال المشوق دعا
يا بنَ الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدّثوك فما راء كمن سمعا

هذا البيت مما كثر تضمينه قديماً وحديثاً ، ولا أدري لمن هو . وفيه عكس التشبيه ، اذ ليس المراد جعل السامع أوفى درجة من الرائي . وقوله مضمناً أيضاً :

يا مَنْ به بدء الجمال ومن غدا
للحسن دون ذوي الكمال ختاما
قد تمَّ حسنك بالعِذار فمن رأى
بدراً يكون له الكسوف تماما

وهذا البيت للاستاذ أبي الفرج بن هندو قبله :

خلع العذار على جمالك خلعة
خلعت قلوب العاشقين غراما

وللباخرزي فيما يقاربه وهو قوله :

وجه حكى الوصل طيباً زانه صُدْغٌ
كأنه الهجر فوق الوصل علقه
وقد رأيت أعاجيب الزمان وما
رأيت وصلاً يكون الهجر رونقه

وللصفوري في الاعتذار قوله :

أيا مَنْ فضله والجود سارا
مسير النيِّرين بلا معارض
وعدتك سيدي والوعد دين
ولكن ماسلمت من العوارض

(قلت) : العوارض مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ، ويقال : إنها من محُدثات الملك الظاهر بيبرس ، وبهذا تمت له التورية . ومما يعجبني في التعرض لها ، قول الاكرمي المقدم ذكره :

لحى الله أيامَ العوارض إنها
هدومٌ لرؤياها تشيب العوارضُ
يضيق لها صدري وإني لشاعر
خليع وبيتي ماعليه عوارضُ

وقال ملمحاً بحكمة ، تروى عن الامام محمد بن الحنفية ، وهي : ليس بحكيم من لايعاشر بالمعروف من لايجد بداً من معاشرته حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

إذا أنت لم تقدرْ على ترك عشرة
لذي شوكةٍ فانصحْ وعاشره بالصدقِ
ولا تضجرنْ من ضيق ماقد لقيته
عسى فرجٌ يأتيك من خالق الخلقِ

وله :

إذا أنت لم تقرب يناجيك خاطري
وان تدنُ مني فالجوارح أعين

لأنك مطلوبي على كل حالة

وإنك مختاري فرؤياك أحسن

وفي معناه قول القاضي اسماعيل الحجازي الآتي ذكره :

اذا لحتَ لي ناجتك كل جوارحي

وان غبت عن عيني أناجيك بالقلب

فأنت مني قلبي حضوراً وغيبة

وأنت ضيا عينيَّ في حالة القرب

ومن شعره قوله يمدح الوادي التحتاني أحد متنزهات دمشق :

والله ما رأت العينان مثلك يا

وادي دمشق ولم تسمع به أذن

لأنت كالجنة الفردوس اذ هبطت

فيك الجواري والولدان قد سكنوا

وبالجملة فمحاسن السيد أحمد في الشعر كثيرة فنكتفي منها بهذا القدر. وكانت ولادته في سنة سبع وسبعين وتسعمائة وتوفي خامس شعبان سنة ثلاث وأربعين وألف، ودفن بمقبرة باب الصغير رحمه الله تعالى .

* * *

(**المولى أحمد**) **بن عوض** العينتابي الأصل ، الحلبي . **قاضي قضاة الشام ومصر وغيرها**. كان من أهل الفضل والكمال وفيه تواضع ، وله أخلاق حسنة . ولد بحلب . وكان أبوه صالحاً تقياً ، نشأ في حجره ، وقرأ في مبادىء عمره بحلب ، ثم سافر إلى الروم ، وأقام بها مدة طويلة ، ولازم بعض الموالي ، فسلك طريق الموالي ، فدرس . وقدم في غضون ذلك إلى حلب صحبة قاضيها عبد الرحيم بن اسكندر ، فولاه قسمة (١) حلب . وقدم إلى دمشق مرّات عديدة ثم خدم بعض قضاة العسكر في خدمة التذكرة(٢) ، وصارت له محنة كاد أن يقتل بسببها. وذلك انه نسب اليه انه قلّد السلطان في خطه ، فكتب السلطان خطاً شريفاً بقتله . ثم لم تزل أعيان الدولة يشفعون له ، حتى سكت عنه . واختفى مدّة حتى تنوسيت قصته . ثم أخذ في اصلاح احواله فتولى

---

(١) كان يعاون قاضي كل مدينة « قسام » ، يقوم بقسمة التركات بموجب الشريعة الاسلامية ، ويحفظ لكل وريث حقه ، وفي الوقت ذاته يحفظ حق الخزينة ، بالنسبة للمتوفين من الانكشارية (القابي كولا ري) .

(٢) أي « التذكرجي » وهو أحد المساعدين الثلاثة للقاضي عسكر فكان ينظر في توزيع الأجور .

قضاء آمد (١) ، فسلك فيها أحسن سلوك ، وكاد يلتحق بالقاضي شُرَيْح . ثم ولي قضاء القدس ، ثم قضاء أيوب (٢) ، ثم ولي قضاء الشام في سنة احدى وأربعين وألف . وقال فيه بعض الادباء مؤرخاً توليته :

لقد ولي الشام الشريفة حاكم
بخير لنا قد عدت والعود أحمد

وكان بالروم رجل من أهالي حلب يسمى تبجي ، ويعرف بستيتية حلب ، وكان علماء الروم يعتقدونه كثيراً ، خصوصاً شيخ الاسلام حسين ابن أخي ، فشفع لصاحب الترجمة في ابقائه بدمشق مدّة زائدة على مدّته ، فأبقي ، وأنفذت شفاعته : فقال في ذلك الامير منجك :

تقول لنا الشهباء والدهر نادم
وأم الليالي اشتدّ صوت نواحها
ستيتيّ أبقت لقاضي دمشقكم
جناحاً فها هو طائر بجناحها

(١) ديار بكر . مدينة في تركيا اليوم ، على الشاطىء الأيسر لدجلة .
(٢) احدى محلات استامبول .

وفي أيام قضائه ، ورد إلى دمشق ، من عسكر السلطان مراد بن أحمد طوائف ، وشهرتهم بالقشلق. وسبب ورودهم ، انهم كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول إلى خطة العجم ، فأمروا بأن يشتّوا في دمشق واطرافها من القرى . وضيّقوا على الناس أمر المعيشة ، وبالغوا في التعدّي والتجاوز ، ونهب أموال الناس . ونفع صاحب الترجمة الحلْق في قمع أولئك بعض القمع ، وفيهم يقول ابراهيم الاكرمي المقدّم ذكره :

انظر إلى القشلق في ذلّة
العكسُ من حالهم الحائل
كم رجل منهم بسمّوره
على جواد صائل صاهل
تحفّ بالجندي غلمانه
وقد أتى يسأل من سائل

ولابي بكر العمري قصيدة في وصفهم ، وفيما فعلوه ، ويشير فيها إلى معاونة صاحب الترجمة في دفع بعض شرهم ومطلعها :

أوّاه مما حل في جلّق
من العنا في زمن القشلق

رامي البلا مدّ على أهلها
قوساً له قال القضا فوقي
حتى تنادى الناس مما دهى
ياليتنا من قبل لم نخلق
قد مسنا الضرُّ وعمَّ الأذى
ومالنا من منجد مشفق
من مبلغٌ سلطاَننا أننا
من جنده في حرج ضيق
ويامرادَ الله في خلقه
من السلاطين غداً نلتقي
في موقف يحكم ربُّ السورى
فيه ولا ملجأ منه يقي
أدرك رعاياك فقد أصبحوا
على شفا من كل باغ شقي
كانت دمشق الشام محمودة
لكونها بالعين لم تطرق
آمنة من كل ما يختشى
مأمنة للخائف المشفق

مائسة . تزهو بسكانها
مائدة للبائس المملق

لايعرف الدَّخْلُ (١) لها مدخلاً
ولا إلى عليائها يرتقي

وهي على ماتم من نعمة
تتيه بالحسن وبالرونق

وأهلها في سَعةٍ كلهم
ألفاجر الفاتك والمتقي

يغبطهم في ذاك أهل الدنا
من مغرب الشمس إلى المشرق

فجاءها ويلاه في غفلة
أمرٌ اليها قطّ لم يسبق

أمرٌ مراديٌ لـه سطوة
أخرست المنطيق والمنطقي

قوم من الاتراك عاثوا بها
على خيول ضُمَّر سبقِ

من جهة المشرق قد أقبلوا
والشرّ قد يأتي من المشرق

---

(١) الدخل : العيب .

في رقعة الشام عدت خيلهم
وذلت الارخاخ للبيــدق
أواه من خمـــدة نـيرانهـا
يانار كيف اليوم لم تحـترق
أين العتاق الجـرد ما بالهـا
من أدهـم عال ومن أبلـق
ماللمواضــي سكنت غـلفها
كأنها بالامس لم تنبرق
ماللعوالي نكستْ للثرى
رؤوسها كالخائف المطرق
وأين فرســانك ياشامـنا
هل دخـلوا في نفق مـغلق
عهدي بهم كانوا ليوث الوغى
لم يعبأوا بالفيلق المـطبق
عهدي بهم كانوا غيوث الندى
اذا ظمئنا منهم نســتقي
عهدي بهم كانوا حماة الحمى
من الثنيـاتِ إلى المـفرق

قد أسلمونا للـــردى خـــيفة
منهم ولاذوا بحصـــون تقي.
وبيننا خـــلوا وبين العـدا
ووكلوا الباشق بالعقعقَ (١)
أقول للنفس وقد أوجفت
خوفاً عليكِ الأمنُ لاتفرقي
إن مسكِ الضرّ وزاد العنا
فلازمي الصبر ولا تقلقي.
أو نالك الجوع فلا تشتكي
فان باب الله لم يغلق.
ولا تضيقي إن عرى فادحٌ
ذرعاً ولو دام فلا تحنقي.
لكل كرب فرجٌ يُرتجى
فصدقي ما قلته واصدقي.
ياويح قوم دعسوا أرضنا
وأوقعونا في ردى موبق
وقد أغاروا وبنا أحدقوا
ياغيرة الله إلينا اسبقي.

---

(١) طائر على شكل الغراب .

أجلَوا أهالي الدور عن دورهم
بالسيف والدبّوس والبندق

واتخذوها سكناً دونهم
بالفرش من خز وإستبرق

واستوعبوا أكثر أموالهم
ظلماً بلا عهد ولا موثق

واقتنع الناس بأعراضهم
فانها بالثلب لم ترشق

هذا ولولا الله باري الورى
أغاثهم بالعالم المفلق

الأوحدي، المولى، خدين العلى
أحمد قاضيها التقي النقي

العالم الفرد رفيع الذرى
الناشر العدل على صنجق

والله لولاه يمين امرىء
لسانه بالمين (١) لم ينطق

---

(١) المين : الكذب .

خلت دمشق الشام من أهلها
طُرّاً ولم يبق بها من بقي
جاهد في الله وخاض الوغى
بهمة علياء لم تلحق
ولم يخف في الله من لائم
لام ولا من فاظر مذلق
وحوله الاعلام ساداتنا
كلٌ يُرى كالقمر المشرق.
فقاتلوهم بقلوب صفت
بالوعظ لا بالكفّ والمرفق
وخوّفوهم بطش سلطاننا
مرادِ مُردي كلّ باغ شقي
ثم ابتهلنا كلنا بالدعا
إن الدعا من كل شر يقي
وزال عنا بعض مانشتكي
ونسأل المنّان فيما بقي
وبعدها قالوا اشتروا شامكم
منا فباعوها على المخنق

لقد غزينا دون وعد بلا
لأمٍ .(١) فأرِّخ سنة القشلق
وصلِّ يارب على من ترى
أنواره جهراً مـن الابرق

وخبر القشلق مستفيض مشهور ، وكذا هذه القصيدة مشهورة .

عوداً إلى تتمة الترجمة : وعزل صاحب الترجمة عن قضاء دمشق ، وبعد مدّة طويلة ولي قضاء مصر وبها توفي . وكانت وفاته في أوائل سنة ثمان وأربعين وألف . ودفن بالقرافة الكبرى .

* * *

(**اسماعيل بن عبد الوهاب**) ، الهمداني ، نزيل دمشق ، ذكره الغزي في ذيله ، وقال : دخل دمشق في سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ، وسكن بالمجاهدية (٢) . وكان يبيع الحبر بباب البريد ، ويصبغ الورق . وكان يخدم القضاة وغيرهم . ونال شيئاً من الجوالي (٣) . ثم أعطي

(١) الأمم : الدرع .

(٢) مدرسة ، سميت بالحجازية ، لكثرة من يسكنها من المكيين والمدنيين .

(٣) ضريبة الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة ، وكانت تنفق عادة على العلماء .

تولية جامع سيباي خارج باب الجابية ، ثم أعطاه المولى علي بن أمر الله المعروف بابن الحنائي ، وكان قاضي القضاة بالشام ، تولية الجامع الاموي (١) عن منلا أسد بن معين الدين التبريزي . وضم اليه نظارة النظار (٢) عن الكمال بن الحمراوي.وبقي متولياً على الجامع أربعين سنة ، وتصرّف هو والقاضي أبو بكر بن الموقع ، تصرّفاً انتقد عليهما أكثره . وفيهما يقول شيخ الاسلام أبو الفتح المالكي مشيراً إلى مافعلاه بالوقف :

يقول على ماقيل جامع جلق
ألم يك قاضي الشام عني مسؤولاً
يُسلم للاعجام وقفي لأكله
ويروى لهم عني كتاب ابن ماكولا
أبعد الفتى السبكي أعطى لسيبك
وبعد الامام الزنكلوني ازنكولا

(١) كان للأوقاف عاملان أساسيان : المتولي ، والناظر . فتولية الجامع الأموي هي الاشراف على أوقافه .

(٢) أي ضبط جميع نظار الأوقاف . وناظر الوقف هو الذي يراقب أعمال المتولي .

أقاموه لي قرداً بشباك مشهد

وضموا له دباً على الرقص مجبولا

يؤمّل كلُّ أكلَ وقفي بأسره

فلا بلّغ الله الاعاجم مأمولاً

ولما آل أمر الوقف إلى الضياع ، ولزم توزيع نقص ماله على أرباب الوظائف ، وكان يقسم على طبقات ، اقتضى صرف اسماعيل عن نظارته . وأعطيت لبورنسوز على سنة ، فطغى في نظارته ، ثم عزل عنها . وولي مكانه حسن باشا الشهير بشوربزه حسن ، فسلك فيه أحسن السلوك ، من تنمية وقفه ، واعطاء علوفاته . ورفع يد اسماعيل ، وكان يوصله علوفته ، فاختل أمره ، وبقي في زوايا الخمول ، إلى أن مات في سادس عشر شوّال سنة ست بعد الالف .

* * *

(**برهان الدين**) بن محمد ، **البهنسي** ، الدمشقي ، المشهور بشَقْلبْها . من ذوي البيوت بدمشق ، الذين خرج منهم علماء ، وفضلاء . وتقدّم ابن عمه أحمد الخطيب ، وسيأتي أبو أحمد يحيى . وهذا برهان الدين ، نشأ في مبدأ

أمره ، يبيع الحرير بحانوت قرب باب العنبرانيين من أبواب جامع بني أمية . ثم نما حاله ، وأثرى ، فرحل إلى الروم ، وعاد مدرساً بالمدرسة السليمية ، وعدّ ذلك من العجائب . ولم يطل أمره بها ، وأخذها عنه المولى يوسف بن أبي الفتح امام السلطان . فتوجه إلى الروم ثانياً ، وولي **قضاء صيدا** . ولما عزل عنها ، استقر بدمشق . وبقي يعامل الفلاحين ، واشتهر **بالربا** ، وبلغ فيه مبلغاً ليس وراءه غاية . وكان اذا استحق ماله على الدائن يغلظ عليه في طلبه ، ويقول لاسبيل إلا أن تعطيني مالي ، أو تشقلبه . وهذه عبارة جارية على السن العوام : يقولون شقلب ماله ، أي رابح فيه مرّة ثانية . فكان منهم من يعطيه ماله ، ومنهم من يرابحه ، وبذلك عرف بشقلبها . وجمع كتباً نفيسة ، واملاكاً ، وعقارات . وامتحن مرات ، فكان قضاة دمشق يهينونه كثيراً ، وهو لايعبأ بذلك . وكان قرب داره قناة ماء فأخرجها إلى الشارع وعمّرها، وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وألف ، فقال العمادي المفتي ، مؤرخاً بناءها ، وهو من التواريخ العجيبة وهو قوله :

لبرهان قناة قد بناها
وشقلبها فتلك له سمات
فشقلب واحداً في العد واحسب
وأرخها مشقلبة قناة

(قلت) قد اعتبر التاء المربوطة في قناة هاء وهي مستعملة عند الادباء كذلك كما في المقامات الحريرية . وكانت وفاته سنة اثنتين وتسعين وألف ، ودفن بمقبرة الشيخ أرسلان قدّس الله سره العزيز .

* * *

(السيد حسين) بن محمد البيمارستاني ، **نقيب الاشراف بحلب** (١) ، وكان يكتب الحسيني . تولى نقابة حلب بعد موت والده ، ونازعه الشمس الراحمداني ، فانه كان نقيباً قبل والد السيد حسين . فتقرب السيد حسين إلى المولى يحيى بن سنان بالهدايا ، حتى قرّرها عليه ، وعرض

(١) نقابة الأشراف : احدى الوظائف الدينية ، وصاحبها من الأشراف ،أي من نسل علي بن أبي طالب ،ويلقبون أيضاً بالأسياد . وكان نقيب الأشراف يتأكد من انساب الأشراف ، ويشرف على شؤونهم .

له بها . وكان صاحب أموال جزيلة ، حصلها من التجارات، والمداينات . وأخذ أمراً بالتقاعد عن دفترداية حلب . وكان لايأخذ من الاشراف مالاً ، ولايصادرهم ، بل كان يبذل لهم القرى ، ويقضي مهمات مصالحهم بخلاف غيره من النقباء . ولما استولى خداوردي أحد جند الشام على حلب ونواحيها ، وامتدّت يده ، زوج ابنته لابن خداوردي ، كما زوّج الشيخ أبو الجود ابنته لخداوردي ، تقرّباً إلى جاهه . ولما تولى الوزير نصوح كفالة حلب ، وفهم الشيخ أبو الجود انه يريد الانتقام من خداوردي ، وبقية أجناد دمشق المستولين على حلب ، فرّ قبل وقوع الفتنة إلى دمشق ، والسيد حسين ثبت . وكان يداري الباشا ، وهو في الباطن يبغضه ، وينوي له السوء . والامير درويش ابن مطاف ، أحد متفرّقة حلب ، مقبول الباشا ، كثير البغض للسيد حسين ، بواسطة أخيه السيد لطفي . فانه كان عدّواً للسيد حسين ، مع كونه أخاه . فكان السيد لطفي يثلب أخاه بحضور الامير درويش ، والامير درويش ينقل ذلك للباشا ، حتّى وقع الحرب بين نصوح باشا وحسين ابن جانبولاذ كما ذكرناه سابقاً . وانكسر نصوح باشا

وعاد إلى حلب مقهوراً ، فوشي السيد لطفي انّ أخاه فرح بكسر عسكر الباشا وانه قرأ مولداً في هذه الليلة للفرح . فذهب الباشا إلى دار السيد حسين ، فسمع ضرب الدفوف ، وأصوات الغواني ، وأمارات السرور . وكان سببه ان بنت السيد حسين ولدت ولداً ذكراً في تلك الايام ، فاجتمعت النساء للفرح.ففي اليوم الثاني طلب الباشا السيد حسين،فأخذ معه شريفاً من بيت ضعاف الحبس ، ورجلاً يقال له منصور ابن حلاوة ، فدخل الثلاثة إلى دارالسعادة . فأمر الباشا بخنقهم وألقيت أجسادهم في الخندق بحيث لايشعر بهم أحد . وضبط الباشا أموال السيد حسين ، وهرب السيد لطفي لما قيل له الباشا يقتلك أيضاً ، وليوهم الناس أنني ماسعيت في قتل أخي . وقد كان السيد لطفي يحلف الايمانات العظيمة انّ اخاه يشرب الخمر ، ويلبس لبوس النصارى ، ويذكر ذلك الباشا . وكان قتله في سنة ثلاث عشرة بعد الالف وعمره نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى .

*

(**سعودي**) بن محمد . بن محمد . بن محمد الغزي ، العامري الدمشقي الشافعي . **مفتي الشافعية بدمشق** ، وابن

مفتيها ، وابن ابن مفتيها . رؤساء العلم بالشام ، وكبراؤه ، وشهرة بيتهم لاتحتاج إلى بيان . وكان سعودي هذا فاضلاً وجيهاً رقيق الطبع ، متساوي الاطراف . أخذ الفقه والحديث عن جدّه لأمه الشهاب أحمد العيثاوي ، المقدّم ذكره ، وعن والده النجم . وسافر في خدمته إلى الحج في سنة أربع عشرة بعد الالف ، وإلى الروم في سنة ثلاث وثلاثين . ولما حج والده في سنة سبع وأربعين ، أقامه مقامه في خدمة فتوى الشافعية ، فباشرها . وظهرت كفايته ، وحمدت سيرته . ثم مات أبوه في سنة ستين ، فاستقل بها . وأعطي عنه المدرسة الشامية البرانية ، ودرّس الحديث تحت قبة النسر من جامع بني أمية ، وابتدأ من محل انتهى اليه درس والده في صحيح البخاري ، وكان وقف في آخر درس قرأه على باب البكاء على الميت . واستمر مدّة يفتي ، ويدرس ، وله القبول التام ، والتقدّم بين أبناء نوعه . وكان حسن المطارحة والادب ، وينسب اليه من الشعر شيء قليل . فمن ذلك مارأيته منسوباً اليه في بعض المجاميع ولا أتحققه ، وذلك قوله في صاحب له :

لي صاحب في نقله ماحكى
للكذب عن آبائه وارث
فكل ماينقله مثل ما
قال الحريريّ حكى الحارث

وكانت ولادته في سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ، وتوفي في أواسط ذي القعدة سنة احدى وسبعين وألف . ودفن بمقبرة آبائه بتربة الشيخ أرسلان قدّس الله تعالى سره العزيز .

* * *

(**سنان باشا**) ابن محمود نزيل دمشق . **ومتولي الجامع الأموي** بها . أمير الامراء ، وصدر أعيان الشام في وقته أصله من قرية ِدوِرْلي ، بكسر الدال المهملة ،وبعدها واو مكسورة مهملة وراء ساكنة ،ولام مكسورة ، من ضواحي قرمان . ورد إلى دمشق في خدمة الوزير مصطفى باشا الخناق ، نائب الشام ، في سنة ثلاث وثلاثين وألف . وبعد ما عزل مخدومه ، أقام هو بدمشق وصار من جندها ، وصار زعيم دمشق مرات ، وسرداراً بخدمة المحكمة . وصار محتسباً (١)

(١) هو معاون للقاضي ، ويشرف على الأمور التي تتعلق بالتجار والحرفيين وطوائفهم ويراقب الأسواق .

مدّة طويلة ، وأحدث بها ثمان عشرة بدعة باقية إلى يومنا . ثم ترقى حتى صار باشجاويش (١) . وحج سنتين ، وعمر داراً قبالة البيمارستان النوري ، تعرف قديماً بدار الصابوني . والصابوني هذا هو صاحب جامع الصابونية . وبعد مدة صار كتخدا الجند ، وسلك سلوكاً غريباً حتى فاق من قبله واتعب من بعده . وكان سخياً إلى الغاية ، وله بذل وعطايا وقرى ، ثم صار **أمير الحاج** ، وأعطي حكومة نابلس ، فحج بالناس سنتين ، وذلك سنة تسع وخمسين وسنة ستين . ثم عزل ، ورقّ حاله ، ولم يتغير عن كرمه . ثم سعى له بعض الاعيان وصيره أمير الامراء بالقدس . وبعدما عزل عنها عاد مديوناً ، وتضعضع حاله وكثر عليه الدين حتى باع أملاكه . وسافر إلى الروم فلم يحصل له منصب ، بل صارت له علوفة في خزينة دمشق ، على سبيل التقاعد وذلك في سنة تسع وستين . ثم صار **متولي أوقاف الجامع الأموي** . ولما قدم الوزير أحمد باشا الفاضل ، جعله كتخدا الدفتر بدمشق ، وهذه الخدمة تتعلق بأرباب

(١) الجاويش ، هو جندي مراسل ، أو حارس . و (الباشجاويش) هو رئيس للجاويشية .

التيمار وأهل الزعامات ، ومن يتولاها يكون ضابطاً لهم . فانتظم حاله وتنبه من رقدة الخمول . قال والدي رحمه الله تعالى في ترجمته : وبعد ماناهز الثمانين ، ابتلي بمحبة غلام كان عنده من الخدّام ، ولم يكن عهد في طبعه الرقة ، ولاعرف للغرام حقه ، وبعدما تحكم عشقه فيه ، نفر عنه وقصد تجافيه ، وخدم عند الوزير قبلان نائب الشام . وعسر عليه خلاصه من يده ، واجتهد في تحصيله غاية الاجتهاد ، فلم يظفر منه بمراد . ولم يزل يعاني فيه الغصص ، ويتوقع مواقع الفرص ، إلى ان مات وما ماتت حسرته . وخلفت أمنيته منيته ، وكانت وفاته نهار الاثنين ثاني شهر رمضان سنة ست وسبعين وألف ، ودفن بمقبرة باب الصغير بالقرب من مزار بلال الحبشي رضي الله تعالى عنه .

* * *

(**صنع الله**) بن محب الله ، بن محمد محب الدين ، بن ابي بكر تقي الدين ، بن داود ، بن عبد الرحمن ، بن عبد الخالق ، ابن عبد الرحمن ، **المحبي** ، الدمشقي ، الحنفي ، عمي شقيق والدي . وكان لي مكان والدي ، فان أبي سافر إلى بلاد الروم وعمري احدى عشرة سنة ، فتقيد بي ،

ورباني وأقدمني على الطلب ، وجعل أهم أمره أمري .
وكان ، جزاه الله تعالى عني خيراً ، براً بي ، شفوقاً عليّ ،
مريداً لي كل خير عاجل وآجل. وما عاهدت منه لحظة ما
اساءة أو مقتاً ، بل كان رحمه الله تعالى يألم لما آلم منه ،
وينشرح لما أنشرح له ، بل يغضب لغضبي ويرضى لرضائي ؛
وعلى كثير من مناهجه في التودّد نهجت ، وعلى آدابه
وحسن طويته درجت . وكان ، بلّ اللهثراه بوابل الغفران ،
لطيف الطبع ، حمولاً ، فاضلاً ، كاملاً ، طارحاً للتكلف ، حسن
العشرة ، متودّداً . وكان أبوه في حياته يحبه كثيراً ، فربي
عزيزاً مكرماً . ولما مات أبوه كان عمره عشر سنين ،
فرباه وتقيد به ، وكان له إليه محبة لم أرها من احد ، ولم
أسمع بمثلها ، وكان هو كذلك . وكثيراً ما كنت أسمعه
يقول : أرجو الله تعالى ، أن لايريني يوم موت أخي ،
وأكون أنا السابق عليه بالموت ، حتى قدر الله انه مارأى
يوم موته ، لكن لالموته قبله ، بل لانه كان مسافراً في
بلاد الروم . وقد اشتغل بالعلم كثيراً في مباديه ، فقرأ
على الشيخ أحمد القلعي ، وعلى شيخنا النجم الفرضي ،
وعلى غيرهما . **وناب في القضاء بمحاكم دمشق : كالكبرى**

والقسمة والميدان والعونية . وصار نائباً بالقدس في سنة اثنتين وسبعين وألف . ثم انه سافر إلى الروم . وصار قاضياً بحمص ، ورجع إلى الشام . وكان بالشام اذ ذاك شيخ الاسلام محمد بن عبد الحليم البروسوي . وقد رجع من الحج ، فجاءه قضاء القدس فتوجه معه . وخدمه في نيابة غزة ، ثم قدم في خدمته إلى الشام بعد ان عزل . وكان أمر بالتوجه إلى وطنه بروسة ، فصحبه إلى الروم ، وسافرت أنا معهم . ودخلنا بروسة في خدمة المولى المذكور . ثم فارقناه ، وتوجهنا بحراً إلى ناحية أدرنة ، والدولة اذ ذاك بها ، فوصلناها وأقمنا بها مدّة . ثم لما توجه السلطان محمد إلى قسطنطينية ، جئت أنا وإياه اليها ، فولي بها قضاء معرة المصريين ، وتوجه اليها وضبطها . ورجع إلى الروم وأنا مقيم بها . ثم أعطى قضاء معرة المصريين ثانياً ، وسافر اليها ، فصحبته في الطريق إلى أن وصلنا إلى انطاكية ، ثم افترقنا . ولم يقدر الله تعالى بعد ذلك اجتماعاً : فاني قدمت إلى دمشق ، وألقيت بها عصا الترحال ، ووصل هو إلى قضائه وضبط المنصب . وعزل عنه ، ثم سافر إلى الروم . وولي قضاء سرمين ، ووصل إليها فتوفي بها وهو قاض . وكانت

وفاته في ثامن شهر رمضان سنة سبع وتسعين وألف عن ستين سنة رحمه الله .

* * *

(**عبد القادر**) بن عثمان ، القاهري ، الحنفي ، الشهير بالطوري **مفتي الحنفية بمصر** من بيت أئمة الحنفية ، ذوي حسب . وكان عالماً ، فاضلاً ، فقيهاً ، أديباً ، وله وجاهة ونباهة في أنواع العلوم . وكان ملازماً على الافتاء ، والتدريس بجامع الازهر.وله تصانيف،منها:شرح على(الكنز)في الفقه ، وتكملة (البحر الرائق).وله كتاب في الادب جمعه من نظمه ونثره سماه ، الفواكه الطورية . وفي هذه التسمية لطف ، لان بلدته الطور،أكثر تلك الدائرة فاكهة. ويعجبني ماكتبه إليه بعض الأدباء . في طلب كتابه هذا ، وكان وعده بارساله اليه وذلك :

يا إماماً لقد حوى دررا
بكل نظم وكل منثورِ
غرستَ بالفضل روضة بسقت
ثمارها من طلائع النور

يشتاق طَرْفي لأن يشاهدها
فتلك عندي أجلّ منظور
وفؤادي العليل من قدم
يتمنى فواكه الطور

وذكره الشهاب في (الخبايا)، فقال في ترجمته: «والطور وكتاب مسطور، هو صديق لي، تجر به المودّة حلل الحبور. روض مجد ناضر، وبحر أدب وافر. لكن طبعه أم الصقور، مقلات نزور. ولم يورق حتى احتضر، ومضى بأمر عزيز مقتدر.» ثم أنشد له قوله:

تنوَّر منيّتي بلطيف صنع
معاني حسنه أضحت غزيره
له قدّ رشيق ثم جسم
عليه حين لاح رأيت نوره

ثم تعقبه بما في (تحرير التحريف) للصفدي، يقولون: تنوَّر الرجل من النُوْرة. والصواب انْتوَر، وانتار، ولايقال تنوَّر، الا اذا أبصر المنار. ثم قال: ومامنعه صرح به غيره من أهل اللغة، لكن المشهور هذا. قلت: ويشهد للاوّل مافي حماسة الطائي: قال اعرابي لابنيه وقد دخلا الحمام فأحرقتهما النورة:

نهيتهما عن نُورة أحرقتهما
وحمام سوء ماؤه يتسعر
أجدّكما لم تعلما أن جارنا
أبا الحسل في الصحراء لايتنوّر

على أن (تَنَوَّر) ، في كلام الطوري، لايتعين حمله على تعاطي النورة . لاحتمال جعل له نوراً . وقول الشهاب في حقه : لكن طبعه أم الصقور إلى آخره ، اشارة إلى انه كان قليل الافادة والآثار ، وهو حل لقول السفيه الحماسي :

بغاث الطير أكثرها فراخاً
وأم الصقر مقلات نزور

والمقلات، بالفتح : ناقة تضع واحداً ثم لاتحمل . والنزور: الناقة مات ولدها وتروم ولداًلها. وقوله ويشهد للاوّل الى آخره هذه عبارة الطائي . وقال الشريشي في شرح المقامات : روي أن عبيد بن قرط الاسدي دخل مع صاحبين له بلداً فيه حمام ، فأحب صاحباه دخوله ، فنهاهما عبيد ، فأبيا الا دخوله . فلما رأيا فيه رجلاً يتنوّر أي يستعمل النورة . فسألا عنها فأخبرا باذهابها الشعر فاستعملاها فلم يحسنا ، فأحرقتهما وأضرت بهما . فقال عبيد :

لعمري لقد حذرت قرطاً وجاره
ولاينفع التحذير من ليس يحذر
نهيتهما عن نورة أحرقتهما
وحمام سوء ناره تتسعر
فما منهما الا اتاني موقعاً
به أثر من مسها يتقسر
أجدكما لم تعلما ان جارنا
ابا الحسل بالبيداء لايتنور
ولم تعلما حمامنا في بلادنا
اذا جعل الحرباء في الحذل يخضر

والنورة قيل انها ليست عربية في الاصل ، واشتقاقها يشابه اشتقاق العربي ، فزعم قوم انها سميت بذلك ، لان أوّل من عملها امرأة يقال لها نورة . وقد استعملتها العرب في الشعر القديم . قال الراجز :

يارب إن كان بنو عميره
رهط التلبّ هؤلا مقصوره
قد أجمعوا لخلعة مشهوره
واجتمعوا كأنهم قاروره

فابعث عليهم سنة قاشوره
تحتلق المال احتلاق النوره

انتهى . وقد تفحصت عن وفاة الطوري كثيراً فلم أظفر بها ، سوى اني رأيت في مجموع بخط بعض الافاضل الادباء ، وكان ممن قرأ على الطوري أنه كان موجوداً في سنة ست وعشرين وألف .

* * *

(**عبد القادر**) قاضي العسكر الشهير بقدري . وهو صاحب الفتاوى المشهورة بفتاوى قدري ، ويطلق عليها لفظ المجموعة . وهي الآن عمدة الحكام في أحكامهم والمفتين في فتاويهم . وبالجملة فانها مجموعة نفيسة ، أكثر مسائلها وقائع كانت تقع أيام المفتي يحيى بن زكريا ، وكان هو في خدمة المفتي المشار إليه موزع الفتوى . **وموزع الفتوى** عندهم ، عبارة عن رجل يجمع الفتاوى التي كتبت أجوبتها ، ويدعها إلى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فهذا يوم التوزيع . فيقف في مكان من دار المفتي المعين ، وينادي بأسماء أصحاب الفتاوى ، واسماؤهم مكتوبة على ظهر قرطاس الفتوى . فهذه خدمة الموزع **وأمين الفتوى** هو

الذي يراجع المسائل من محلها ، وينزل عليها الوقائع . واستمر عند ابن زكريا بهذه الخدمة زماناً طويلاً . وكان من ذلك العهد موصوفاً بالتقى والاقبال على أمر الآخرة ، وفيه صلاح وإنابة . ومن هنا يحكى أن المفتي المذكور كان أعرف أهل زمانه . واجتمع عنده من الحفدة أرباب المعرفة مالم يجتمع عند غيره . فكان اذا أراد المفاوضة مع أحد في أمر الدنيا ، والدولة ، وأحوال الناس ، قدم المولى محمد بن عبد الحليم البورسوي الذي صار آخراً مفتياً الآتي ذكره ، وكان عنده آمين الفتوى ، وأقرب المقربين ، فيتفاوض معه في هذه الامور لكمال فطانته ودربه ومعرفته بأحوال الناس . واذا أراد المذاكرة في مشكلات الفقه ، والمسائل ، اختار المولى أوزون حسن أي الطويل ، وكان من خواصه . واذا أراد المباحثة في أنواع الفنون العقلية ، رجح المولى مصطفى البولوي الذي صار آخراً مفتياً ، وكان من حواشيه . واذا أراد المناقشة في الادب والشعر ، ميز المولى محمد بن فضل الله الشهير بعصمتي ، الذي صار آخراً قاضي العساكر . وكان من ندمائه.واذا أراد المفاكرة في أمر الاخرة . وأحوال المعاد والجنة والنار ، استدعى

صاحب الترجمة . وعلى كل حال ، فهو من خيار الموالي العظام ، ولي قضاء قسطنطينية ، وقضاء العسكرين مرات . وكان عالماً ، فاضلاً ، وقوراً ، عليه مهابة العلم والصلاح . وكانت وفاته في سنة ثلاث وثمانين وألف بقسطنطينية ودفن خارج باب أدرنة .

* * *

(**عبد الواحد**) بن أبي بكر الانصاري الشافعي ، **قاضي القنفذة** (١) ، الامام الفاضل . كان بمكان مكين من العلم ، غاية في الذكاء والفهم ، حسن التقرير والتحرير . روى الفقه ، والحديث ، وغيرهما ، عن العلامة الشيخ علي بن الجمال ، وعبدالله بن سعيد باقشير ، وعيسى بن محمد الجعفري . وله فيه مدائح كثيرة ، ومرثيات كثيرة . وجاور بالحرمين سنين ، وأجازه شيوخه . وكان رئيس القنفذة وما والاها من أرض الحجاز ، لاتصدر حقيقة أمورها الا عن رأيه . ولم يزل كذلك حتى سعى به بعض الوشاة ، بسبب سعيه في صلح بين الاشراف بني عبدالله ، إلى الشريف سعيد بن زيد ، ورماه بأمور أوجبت ان أمر

---

(١) إحدى مدن منطقة العسير في جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية .

بالقبض عليه ، ونهب داره ، وجميع أثاثه ودثاره . ثم قيد بالقيود ، وأتي به اليه . وأراد قتله ، بعد الذي جرى عليه من حلق ذقنه ، ولحيته ، فشفع فيه بعض الاعيان فعفا عنه . واختار الاقامة بعد ذلك بنجد الحجاز ، ولم تسمح نفسه بسكنى بلده القنفذة ، بل كان يتردّد اليها أحياناً لزيارة من بها من أحبابه . وتوطن محلة موطف ، وله مؤلفات كثيرة : منها نظم المنهج ، وشرح على الرحبية في الفرائض ، ومنظومة في أصول الدين ، وشرح عقيدة الامام اسماعيل ابن القاسم ملك اليمن ، وبين فيها أدلة أهل السنة ،وردّ على الزيادية . وله رسائل كثيرة ، منها رسالة سماها الجواب الابيّ في صحة الطلاق مع الكلام القليل وان كان بالاجنبي ؛ وغير ذلك من المنثور ، والمنظوم ، والشعر الفائق . وكانت وفاته في جمادى الاولى سنة تسع وثمانين وألف .

* * *

(**عبد الوهاب**) بن أحمد ، بن محمد ، بن محمد ، ابن أحمد ، بن محمود ، بن عبدالله ، بن محمود **الفرفوري** . الدمشقي ، **الحنفي** ، **مفتي الشام** . وأحد الفضلاء المبرزين . كان فقيهاً ، وجيهاً ، جليل القدر ، سامي الرتبة . قوي

الحافظة ، طويل الباع. وله أدب بارع ، ومحاضرة جيدة ، اشتغل في مباديه على الشيخ عبد اللطيف الخالقي ، والشرف الدمشقي ، وأخذ الحديث عن الشيخ عمر القارىء ، ثم لزم العمادي المفتي . ومال اليه العمادي بكليته ، فصيره معيد درسه في صحيح البخاري . وتخرج في كتابة الاسئلة المتعلقة بالفتيا ، على الشهاب أحمد بن قولا قسز ، وعبد اللطيف المنقاري . ثم لازم ودرس على قاعدة الروم ، وفرغ له أحمد بن شاهين عن تدريس الجقمقية (١) قبل وفاته . ثم درس ، وأفاد ، وانتفع به جماعة ، وتولى النيابة الكبرى مرات متعددة ، ونال رتبة الداخل المتعارفة الآن في بلادنا. ولما قدم الوزير أحمد باشا الفاضل إلى دمشق ، أقبل عليه كثيراً لما رأى من فضله . فلما ولي الوزارة العظمى صيره مفتياً بالشام ، ووقعت منه موقعها وكتب اليه الامير المنجكي قوله :

شكت إلى الروم أحباؤنا
من فتية تفتي على جهلها

(١) مدرسة في شمالي الجامع الأموي ، تحولت اليوم إلى متحف للخط العربي .

فأرسل الفتوى مليك الورى
لنجل فرفور على رسلها
وأصبح الفضل لنا قائلاً
أدّوا الامانات إلى أهلها

وأرخ توليته شيخنا الشيخ عبد الغني النابلسي فقال :

قد جاءت الفتوى إلى بابكم
مسرعة تولي معاليها
لما بكم لاقت ولقتم بها
والدهر أعطى القوس باريها
والله ماجارت بكم أرخوا
بل آلت الفتوى لأهليها

وقد تمكنت قواعده في الفتيا ، واشتهر أمره . وكان مع عراقته الطائلة ، وتفوقه في الفضل والادب ، متواضعاً ، دمث الاخلاق ، ودوداً ، حسن العشرة ، طارحاً للتكلف . فلهذا مالت اليه القلوب ، وانبعثت اليه الاهواء . وكان في الاطلاع على فروع الفقه ، والاخذ بمحال الاحكام في الذروة العالية . ومن غريب أمره انه

مع فضله الباهر، لم يرو له أثر من تحرير أو تقرير . وكان ينظم الشعر ، ومن جيد شعره قوله :

لله بدر قد حكى بخدوده
ورد الربى وشقائق النعمان
وبثغره زهر الاقاح منضّد
وبقده المياس غصن البان
وبطيبه طيب الرياض ونشرها
وبصدغه للآس والريحان
واذا محاسنه بدت لعيوننا
تُجْلى فلا نحتاج للبستان

وقوله :

إن غبت عن ناظري يامن كلفت به
فما أراك عقيب الآن في عمري
لأن عيني تجري بعد فرقتكم
دماً ويتبعه ماطلّ من بصري

وقوله :

دع الحب إن الحب للعقل سالب
وعش خالياً فالحب فيه النوائب

فلا يصلحن الا لمثلي فإنني

فتى دون نعليه السهى والكواكب

فمن كان مثلي كان بالحب لائقاً

والا فصب بالصبابة لاعب

وكتب إلى جلدي محب الله في غرض :

يامن أياديه سحاب ممطر

ولديه حاتم في السخا لايذكر

وعليه من سيما الكرام دلالة

وشواهد تبدو عليه وتظهر

طوّقتني من راحتيك بمنة

أضحت على طول الليالي تنشر

لم أقض حق ثنائها لو أن لي

في كل جارحة لساناً يشكر

ولم تطل مدّته ، فتوفي . وكانت ولادته في سنة اثنتي عشرة وألف وتوفي في خامس عشر المحرم سنة ثلاث وسبعين وألف ، ودفن بمقبرة أجداده بني الفرفوري ، لصيق مزار الشيخ أرسلان قدس الله تعالى سره العزيز . وقال الامير المنجكي يرثيه :

ريحانة الافضال عاجلها الردى
ولفقدها مسّ الانام زكام
ماكانت الايام الا مقلة
ولها ابن فرفور ضيا ومنام
حيَّته أرواح الرضا من ربه
وهمي عليه من الهبات غمام

* * *

(**عيسى**) بن عبد الرحمن . أبو مهدي **السكتاني** ، المالكي المذهب ، **مفتي مراكش وقاضيها** ، وعالمها . الامام العلامة النظار ، خاتمة العلماء الكبار ، محقق المغرب الاقصى في عصره ، وأوحد علماء دهره . له شهرة كبيرة تغني عن التطويل ببيان فضائله وعلومه ، حتى قال بعضهم انه مجدّد أمر دين هذه الامة . وقد ستر الله تعالى على ضعفاء العقيدة ، مقامه العالي بقوّة ظهوره بالقضاء والافتاء ، وانتهاء الرياسة اليه . وكانت له كرامات مشهورة ومناقب كثيرة مأثورة . ولد بمراكش ، وبها نشأ . وأخذ بالمغرب عن شيوخ عظام ، وقادة أجلاء فخام ، منهم العلامة وحيد الزمان أبو العباس المعروف بالمنجور ، وغيره . وعنه خلق

كثير بالمغرب مشهورون ، منهم العلامة محمد بن سعيد ، والامام الهمام محمد بن سلمان نزيل مكة ، وغيرهما . ولم يكن في زمانه من يقاربه في جميع العلوم العقلية والنقلية ببلاد المغرب ، الا العلامة أحمد بن عمران الفاسي . وكان يقرىء التفسير في فصل الشتاء ، فيأتيه العلماء من جهات شتى ، ويلازمون درسه . وكان يملي من حفظه كلام المفسرين ، مع البحث معهم والجواب عما يورده الفضلاء بين يديه ، فيأتي في أثناء تقريره بالعجب العجاب ، والامر الذي يحير العقول والالباب . وكان يقال ، بعد انقضاء طبقة أشياخه : علماء المغرب ثلاثة ، صاحب الترجمة ، وأحمد بن عمران ، والشيخ عبد القادر بن علي الفاسيان . يعنون أهل المشاركة في العلوم والتحقيق ، والا فقد كان من العلماء كثير ممن طارت فتاويهم في الاقطار ، وسار ذكرهم كل مسير . وله مؤلفات عجيبة الاسلوب ، منها حاشية على شرح أمّ البراهين للسنوسي ، وغيرها . وكانت وفاته بمراكش في سنة اثنتين وستين وألف ، وقد ناف على المائة سنة ، ممتعاً بحواسه ، لولا ضعف في رجليه على ماأخبر به محمد بن سليمان المذكور .

* * *

(**فضل الله**) بن علي ، بن محمد ، بن محمد الاسطواني .
الدمشقي ، الحنفي ، **رئيس الكتاب بمحكمة قاضي القضاة**
أحد أفاضل الكتبة الأكامل . وهو ابن خالتي ، وختني .
وكان من أفراد العصر في المعرفة ، والصلف . وافر التنعم ،
سخياً ، متودداً ، معاشراً . لزم فيما عهدته شيخنا ، الشيخ
عبد الحي بن العماد العكري المقدم ذكره ، فقرأ عليه
كثيراً . واغتنمت في صحبته معه ليالي ، وأياماً مازلت أذكرها .
ثم بعد وفاة شيخنا المذكور لزم شيخنا الشيخ رمضان العطيفي ،
فقرأ عليه الدرر والغرر ، ومات شيخنا ولم يكمله . فشرع
في تتميمه على شيخنا الشيخ ابراهيم الفتال ثم بعد وفاة
الفتال . قرأ دروساً منه على شيخنا الشيخ عبد
القادر بن عبد الهادي . ودرس بالمدرسة الخاتونية (١)
والمقدمية (٢) ، وهي مشروطة لهم . وسافر إلى الروم ،
وحج ، وجمع من نفائس الكتب ، والذخائر ، مالم يجتمع
عند أحد من أبناء عصره . وولي رياسة الكتاب ، ثم مرض

---

(١) من مدارس الحنفية بدمشق ، كانت بمحلة البيمارستان النوري

(٢) من مدارس الحنفية بدمشق ، داخل باب الفراديس في محلة العمارة .

وطال مرضه مدّة إلى أن توفي . وكانت وفاته في **أوائل** ذي الحجة سنة مائة وألف ، عن ست وخمسين سنة ، ودفن بمقبرة الفراديس المعروفة بتربة الغرباء عند أسلافه بني الاسطواني .

* * *

(**المنلا قاسم**) بن أحمد الكردي ، نزيل دمشق ، من أفاضل الاكراد ، وزد إلى دمشق ، وأقام بالمدرسة الاحمدية قبالة قلعة دمشق . وأقرأ بعض الطلبة ، وسكن دمشق ، وأنشأ داراً بالقرب من جامع الدرويشية . ولما قدم محافظ الشام الوزير أحمد باشا الكوجك ، جعله **اماماً** له . وحصل أموالاً كثيرة ، وصار **خادماً لمزار سيدنا يحيى بن زكريا** عليهما الصلاة والسلام . ولما عمر مخدومه المذكور عمارته بدمشق شرط له النظر عليها . فلما مات أحمد باشا **استأجر وقفه** ببعلبك ، وصرف جهده في تنمية **الوقف** . وبعده اضمحلّ أمره وخربت قراه . ومن عجيب أمره أنه كان سخياً إلى الغاية ، والسخاء في الاكراد أعجب العجب . وكانت وفاته ليلة الاحد سادس المحرّم سنة ثمان وستين وألف ودفن بالقلندرية بمقبرة باب الصغير .

* * *

(**السيد محمد**) بن برهان الدين الشهير بشريف الحميدي. **نقيب السادة الطالبية بممالك آل عثمان**،أحد فصحاء الروم وبلغائهم . وكان عالماً ، فاضلاً ، مشهوراً بالذكاء ، والتبحر في العلوم . لازم من شيخ الاسلام زكريا بن بيرام ، وكان في خدمة نيابته بحلب ، لما كان قاضياً بها . ولما صار قاضي العسكر أعطاه خدمة التذاكر ، ثم زوّجه ابنته . وتنقل في المدارس . ثم ولي قضاء الشام في سنة ثمان عشرة وألف ، ودخلها وأحسن في قضائه ، ومدحه شعراؤها بالقصائد والمقطعات ، ولم أسمع بقاض في دمشق مدح بمقدار مامدح به هذا . وكان محباً للادباء ، مقرباً لهم ، متهافتاً على التلذذ بمجالستهم . وقرأت في أخبار الاديب عبد اللطيف بن يحيى المنقاري ، انه كان نديم مجلسه ، وكان يقربه ويدنيه . ومرض أبوه في أيام قضائه ، فأراد ولده أن يستفرغه عن وظائفه فتمنع . ثم انه لما أحس بالموت أراد الفراغ فما أمكنه ، فذهبت الوظائف ولم يحصل له منها إلا القليل . وكان بيده تدريس العزية التي بالشرف الاعلى بجانب دمشق الغربي ، فأخذه الجمال يوسف بن كريم الدين ، كاتب المحكمة ، وعجز المنقاري عن أخذه

لقرب الكريمي من القاضي . فكتب المنقاري إلى قاضي القضاة السيد صاحب الترجمة هذه الابيات معاتبة على توجيه مدرسة أبيه للكريمي ، وهي أبيات لطيفة وغالبها تضمين من شعر الغير :

غيرت يادهر من ودّي غدا لهم
ملازماً فنأت عني لهم نعم
قد كنت أرجو وجود الجود مع شرف
أسمو به فوق أقراني اذا حكموا
فصار جودهم للغير وانخفضت
مراتب شأوها الاخلاص عندهم
وفي فؤادي من عكس الردى حرق
قد أضرمتها رياح شابها الالم
ماكل مايتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لايشتهي الارم
لعلها تنطفي من برد حكمته
ويشتفي القلب من نار لها ضرم
فان عكس الرجا مر مذاقته
على كئيب عرته في الورى نعم

مولاي يامن غدا سر الوجود ومن
سواه عندي وان أولى الجفا عدم
لأنت انسان عين الروم حزت على
ما نالها قط لا عرب ولا عجم
وفقت غيرك في حكم ومعدلة
وشدت ربعاً ومن سكانه الكرم
طلعت في أفقنا بدراً وليس يرى
لليل جهل وظلم في الملا ظلم
لكنّ موضع رحلي أسود وفمي
فيه لهيب الظما دون الورى ودم
سقيت جرعة عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم
تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم
هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقي بعد ماشهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ولم أقصر لدى حفظ الوداد ولا
جرت إلى نحو اخلاصي لك التهم
وما ظننتك تنسى حق معرفتي
ان المعارف في أهل النهى ذمم
ولم أضيّع عهوداً منك لي سلفت
وما غدرت فلم للودّ احترم
حرمت ما كنت أرجو من ودادك لي
ما الرزق الا الذي تجري به القسم
بالله يابن الألى ساروا إلى رتب
ما نالها أحد في الخلق غيرهم
مامر يوماً بفكري مايريبكم
ولاسعت بي إلى ماساءكم قدم
أحببتكم لخلال كنت أعرفها
وانما تعشق الاخلاق والشيم
اذا محاسني اللاتي أدل بها
كانت ذنوباً فوصلي منك منصرم
مع ذا فأنت مني قلبي فلست إلى
سواك ان عبس التبريح أبتسم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
سواك من زينة الدنيا قلت هم
وماسخطت بعادي اذ رضيت به
فكل جرح اذا أرضاك ملتئم
فاسلم على أي حال شئت ياأملي
وأنت ذو حكمة بين الورى حكم
مدى الزمان وما أبدي كئيب أسى
شكاية من شريف داره حرم

وكان صاحب الترجمة ينظم الشعر العربي ، ومن نظمه ، ماقاله لما ولي الحافظ أحمد حكومة الشام وقدمها ، وكان ظالماً عاتياً ، وكان [illegible] أين منه فقال :

أرسل السلطان بالعدل المبين
حاكماً وافى لقمع الظالمين
أحمد وافى دمشقاً حافظاً
بيضة الإسلام بالرأي الرزين
دام في عدل واقبال وفي
عزة من لطف رب العالمين

مخلص ، وكان ساح في العرب والعجم ، وكان قدومه إلى الروم في أوائل القرن التاسع . فوقع من بعض الاشراف أمر اقتضى تأديبه من أجله ، فعين السيد محمود المذكور لنظارة الاشراف باختيار الجمهور . وكان يعرف أن في بلاد العرب يطلق على هذا الناظر **نقيب الاشراف** ، فأشار أن يكتب في منشوره هذا اللفظ . وابتدأوا وظيفته أولاً بعشرين عثمانياً ، ثم ترقت إلى أن صارت سبعين . ولازال السيد محمد شريف نقيباً إلى أن توفي في سنة أربعين وألف تقريباً ودفن بقسطنطينية .

* * *

(**محمد**) بن تاج الدين بن أحمد **المحاسني** الدمشقي ، الحنفي ، **الخطيب بجامع دمشق** . تقدم أبوه وأخوه عبدالرحيم. وهذا أشهر آل بيته ، وأفضلهم . وكان فاضلاً ، كاملاً ، أديباً ، لبيباً ، لطيف الشكل ، وجيهاً ، ساكناً ، جامعاً لمحاسن الاخلاق ، حسن الصوت . نشأ في نعمة وافرة ، وكان أبوه ذا ثروة عظيمة ، فكان يصله بكل ما يحتاج اليه من مال ومتاع . وقرأ على علماء عصره ، منهم الشرف الدمشقي ، والشيخ عبد اللطيف الجالقي ،

والعمادي المفتي ، والجمال الفتحي إمام السلطان ، وأخذ عن الشيخ عمر القاري ، والنجم الغزي ، وأبي العباس المقري . وسافر إلى الروم صحبة والده ، وأخذ عن علمائها ، منهم الشمس محمد المحبي . ثم رجع ، وأعطي بقعة تدريس بالجامع الاموي عن شيخه الشرف لما مات . ولازم من المولى محمد بن أبي السعود ، وولي **خطابة جامع السلطان سليم** بصالحية دمشق ، واشتهر بحسن الخطابة . ثم صار **إماماً** بجامع بني أمية . ولما توجه شيخه الفتحي إلى الروم ، وكان عين لإمامة السلطان مراد ، فوّض اليه أمر حصته في الخطابة بجامع دمشق . ودرس بالمدرسة الجوهرية ، وكان يدرس في الجامع في غالب الايام والليالي ، سيما في الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان . وأقرأ صحيح مسلم ، وكتب عليه بعض تعاليق . وسكن أولاً في دار جدّه لأمه الحسن البوريني ، ثم وقف عليه رجل يعرف بالصنجقدار بيتاً قبالة المدرسة العادلية الكبرى ، فسكن فيه . وسافر إلى الروم في سنة خمسين ، وأخذ **تولية الجامع الأموي** وولي **قسمة العسكر** مرتين . ثم بعد وفاة والده ، سكن بداره قرب باب الفراديس . وفرغ له الشهاب أحمد البهنسي

مذ رأوه ليس من جنس الذي
قد خلا من قبله في الحاكمين
قال أهل الظلم منه رهبة
ليس هذا الكعك من ذاك العجين

وعارض هذه جماعة من الادباء . وليس في ايراد معارضاتهم كبير فائدة الا تضمين هذا المثل فلذا أعرضت عن ذكرها . ثم عزل السيد محمد عن قضاء الشام وولي قضاء مصر ، وقسطنطينية ، ثم ولي قضاء العسكر بأناطولي مرتين ، نقل في ثانيتهما إلى نقابة الاشراف ، وذلك في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وألف . وهو حادي عشر نقيباً ولي في الدولة العثمانية : فانه من عهد السلطان عثمان الكبير ، إلى عهد السلطان يلدرم بايزيد ، لم يتعين نقيب للاشراف . ثم ان أمير سلطان ، كان صحب معه إلى بروسة لما دخلها السيد علي النطاع ، وهو جدّ عاشق جلبي ، فعين ناظراً على الاشراف . ولما مات ولي مكانه ولده زين العابدين ، في زمن السلطان مراد والسلطان محمد الاوّلين . فلما مات بقي هذا المنصب خالياً ، إلى أوائل عصر السلطان بايزيد . فقدم في زمانه السيد محمود المعروف بأمير

عن نصف الخطابة بالجامع الاموي . ثم لما مات شيخه الفتحي استقل بجميع الخطابة أصالة . وبقي إلى أن ولي علي القصير دفترية الشام ، فادّعى أن الخطابة التي للفتحي كانت في السابق نظارة للسلطان ، وأحسن بها اليه السلطان عثمان وجعلها خطابة مكان النظارة . وأظهر صورة التوجيه ، فرفع يده عنها ، وبقيت في يده الخطابة الاصلية التي فرغ له عنها البهنسي . ولما توفي الشيخ سعودي الغزي ، وجه اليه درس الحديث تحت قبة النسر من جامع دمشق ، كما أسلفته في ترجمة محمد بن أحمد الاسطواني قريباً . وهذا الدرس وظيفة حادثة بعد الخمسين وألف ، رتبها بهرام آغا ،كتخدا والدة السلطان ابراهيم ، وبنى السوق الجديد ، والخان قرب باب الجابية لأجلها ، وعين للمدرس ستين قرشاً ، وللمعيد ثلاثين ، ولقارىء العشر عشرة قروش . ودرّس المحاسني ، وكان فصيح العبارة ، وانتفع به خلق من علماء دمشق ، منهم شيخنا العلاء محمد بن علي الحصكفي مفتي الشام ، وشيخنا المحقق ابراهيم بن منصور الفتال ، وغيرهما . وله تحريرات تدل على علمه ، وله شعر حسن مطبوع ، فمنه قوله من قصيدة :

ياسقاها مرابعاً للتلاقي

كل سار من الحيا غيداق

حيث تبدو بقامة تخجل الغصـ

ن ووجه يزيد في الاشراق

ورعى الله عهدنا بالمصلى

حيث ذات اللمى على الميثاق

حيث أشكو لها الغرام ووجداً

قد أسال الدموع من آماقـي

ياحداة المطيِّ رفقاً بقلبـي

إن طعم الفراق مر المذاق

جبلت طينتي على محنة الحبـ

ـب فحسبي من الهوى ماألاقي

كل يوم قطيعة وبعاد

واكتئاب وفيض دمع مآقي

شاب فودي يتلو مشيب فؤادي

فأمانا من هول يوم الفراق

ليت شعري متى تعيد الليالي

ماأتاحت من صفو عيش التلاقي

ماأظن الايام تحكم الا

بامتناع الارفاق للارفاق

ومن جيد شعره قوله :

وتنفسي الصعداء ليس شكاية

مما قضته سوابق الاقدار

لكن بقلبي جملة تفصيلها

صعب لدى العقلاء والاحرار

فجعلت موضع كل ذلك أنة

ضمنت مرادي من عطاء الباري

وكتب إلى بعض أصحابه بدمشق وهو بمصر :

لو كنت بمرأى من خليط نزحا

ماكان دخيل الوجد مني وضحا

لكن بعدوا فصار سري عَلَناً

من بعدهم وصار كأسي قدحا

ومن ملحه هذا الموشح نظمه على أسلوب موشح لبنت العرندس الشيعي ومطلع موشحه :

أهواه مهفهفاً من الولدان

ساجي الحدق

قد فر من الجنان من رضوان
تحت الغسق
من ريقته سكرت لامن راحي
كم جدّد لي رحيقها أفراحي
كم أسكرني بخمرها ياصاح
كم أرقني بطرفه الوسنان
حتى الفلق
لوعامله بعدله ذا الجاني
أطفا حرقي
من باهر حسنه يغار القمر
في روض جماله يحار النظر
قد عز لديّ ان بدا المصطبر
مااهتز يميل ميلة الاغصان
للمعتنق
الا وأتاح للمحب العاني
كل القلق
ياويح محبه اذا ماخطرا
كالبدر يلوح في الدياجي قمرا

إن أقض ولم يقض لقلبي وطرا
فالويل اذاً لمغـــــرم ولهان
في الحب شقي
قد حمل في العشق من الهجران
مالم يطق
القدّ رشيق مثل خوط البان
واللحظ كسيْف الهند في الاجفان
والخال شقيق المسك في الالوان
والخدّ مورد أسيل قاني
شبه الشفق
والعارض قد سلسل كالريحـان
للورد يقي
ياعاذل لو أبصرت من أهواه
ناديت تبارك الذي سوّاه
قد أحسن خلقه وقد نماه
إذ كمله وخص بالنقصان
بدر الافق

قد أفرغه في قالب الاحسان   زاكي الخلق

الصبر على هواه مثل الصبر

والقلب غدا من هجره في جمر

ماألطفه في وصله والهجر

لم ألق له في وصله من ثاني

حلو الملق

ماواصل بعد بعده أجفاني   غير الارق

ومطلع موشح بنت العرندس هو هذا :

مارنحت الصبا غصون البان   بين الورق

الا وشجى الهوى لقلبي العاني   نار الحرق

ماهب صبا . لنحوك القلب صبا . لاقى وصبا

يابدر سما . سما على بدر سما . للناس سبا

صلني فعسى . تنال مني ذهبا . عقلي ذهبا

والقلب مني مواقد النيران

نامي القلق   والناظر قدأسال من أجفاني ماءالغدق

ومن شعر المحاسني قوله :

أودّعكم وأودعكم جناني
وأنثر أدمعي مثل الجمان
ولو نعطى الخيار لما افترقنا
ولكن لا خيار مع الزمان

وله غير ذلك . وكانت ولادته في سنة اثنتي عشرة وألف ، وتوفي عشية الاربعاء غرّة شعبان سنة اثنتين وسبعين وألف . ودفن بمقبرة الفراديس بالقرب من جدّه لأمه الحسن البوريني ، ورثاه شيخنا عبد الغني بن اسماعيل النابلسي بقصيدة مطلعها :

لتهن رعاع الناس وليفرح الجهل
فبعدك لا يرجو البقا من له عقل
أيا جنة قرّت عيون أولي النهى
بها زمناً حتّى تداركها المحل

وهي قصيدة جيدة غاية ، ولولا طولها لذكرتها برمتها .

* * *

(**السيد محمد**) بن حسن ، الشهير **بابن عجلان** ، الحسيني ، الشافعي ، الدمشقي ، **نقيب الاشراف بدمشق** كان غزير الفضل ، فصيح العبارة . حسن الفهم . كثير المحفوظ ، وله في التفسير يد طائلة . اشتغل على الشمس محمد بن محمد العيثي ، وعلى الشيخ منصور السطوحي الصابوني ، وأخذ عن جماعة ، وحصّل ودأب ، ثم ولي نقابة الاشراف في سنة احدى وثمانين وألف . وعزل بعد مدّة ، فارتحل إلى الروم ، وولي المدرسة السليمية . ورجع ، وتملك داراً بالقرب من الشيخ عمود ، داخل باب الجابية ، وسكنها . ولما مات السيد محمد بن حمزة نقيب الشام ، نهض به حظه ، فكان تارة يلي النقابة ، وتارة يعزل ، إلى أن استقل بها مدّة . وروجع في الامور كثيراً ، وكان كامل العقل ، خبيراً بما يصنع . ونفذت كلمته عند الاعيان ، وأرباب الحكومات . وولي **نيابة القضاء وقضاء المواريث** . ووقع في آخر أيامه أن رجلاً سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعصب جماعة في تبرئته ، وأرادوا أن يرغموا الشهود في كتم الشهادة . فقام بهذا الامر ، وأثبت عليه السب عند القاضي فقتل . وكان ذا مفاكهة عذبة ، ممتعاً في حديثه . وتملك

كتباً كثيرة ، وأقرأ التفسير في السليمية ، والبخاري في بيته . وكان كثير المطالعة ، لايمل من البحث ، ولا يفتر عن المذاكرة . وبالجملة فقد كان من المميزين في الفضل . وكانت ولادته في سنة ست وثلاثين وألف ، وتوفي بكرة نهار الاثنين ثامن عشر المحرم سنة ست وتسعين وألف ، ودفن بمدفن خاص بهم بالقرب من مسجد الذبان . وكان آخر درس أقرأه في تفسير سورة مريم ، قوله تعالى(أإذا ما متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً) .ولم يخلف ذكراً. **وبنو عجلان** طائفة بالشام ، مشهورون بصحة النسب . واسلافهم كانوا قدموا من مصر ، وسكنوا بزاوية الرفاعية بمحلة ميدان الحصى ، وهي الزاوية المعروفة بزاوية شيخ المشايخ عند مزار سيدي حسن بن الرفاعي . وهي زاوية كبيرة فسيحة ، وكانت خربت بسبب فتنة صدرت في أواخر دولة الجراكسة ، في سنة عشرين وتسعمائة . وذلك ان السلطان الغوري أرسل حاكماً إلى دمشق يقال له النائب ، وكان بها حاكم غيره ، فما أراد تسليمه . فتحصن النائب المذكور في زاوية ابن الرفاعي المذكورة ، فرمى نائب القلعة على الزاوية بأحجار المدافع الكبيرة ، فهدّ ايوان الزاوية . قاله البوريني والله أعلم .

* * *

(**محمود**) بن عبدالله الموصلي ، الحنفي ، **مفتي الموصل**، ورئيسها المشهور عند الخاص والعام بالعلوم الشرعية ، والفنون العقلية. ولد بالموصل ، وبها نشأ ، واشتغل بالعلوم وتفنن في علم النظر ، والكلام ، والحكمة ، وبرع في جميع ذلك . ورحل إلى حلب ، وأقام بها مدة ، وأخذ بها عن النجم الحلفاوي ، وابراهيم الكردي ، وأبي الوفا العرضي ، والجمال البابولي ، وغيرهم ، وأجازوه . ورجع إلى بلده ومكث مدة . ورحل إلى الديار الرومية ، وحظي عند الصدر الفاضل ، وبقية كبرائها ، وأخذ عن جمع بها . وولي افتاء بلده الموصل . ورجع اليها ، وأقام بها يشتغل باقراء العلوم ، وتخرج به جماعة . وكانت المسائل المشكلة ترد عليه ، فيجيب عنها بأحسن جواب ، وأتقن خطاب . وكان عارفاً بالعربية ، والفارسية ، والتركية . وله تصانيف ، منها ، حاشية على التلويح ، وحاشية على البيضاوي ، ونظم حسن . وكان سهلاً ، ذا دين متين وتقوى ويقين ، صادق اللهجة ، مواظباً على السنن النبوية والنوافل الشرعية ، حسن السمت ، رقيق القلب ، كامل العقل ، معتقداً للسادة الصوفية . وحج في سنة احدى وثمانين وألف ، وأخذ عنه جماعة

بالحرمين ، منهم ، صاحبنا الفاضل الاديب والكامل الاريب الشيخ مصطفى بن فتح الله ، وطلب منه أن يجيزه فأجابه بديهة بقوله :

إني أجزت المصطفى الفتحي بما
أرويه عن أشياخ أهل الموصل
ومحققي أهل العراق وجلق
والروم والشهباء أكرم منزل
وبكل ما ألّفته ونظمته
ونقلته عن كل عذب المنهل
وبما يطول اذا ذكرت جميعه
بل بعضه فكفايتي بالافضل
أعني البخاري الصحيح ومسلماً
وبقية الست الشهيرة فانقل
عن شيخنا العرضي وهو أبو الوفا
عن عالم الشهبا الامام الافضل
عُمَرٍ أبيه عن أبيه ذي التقى
عبد الوهاب عن الشيخ الولي
زكَريّا عن حافظ الدنيا شها
بِ الدين أحمد بن سيّدنا علي

العسقلاني الحافظ الحبر الذي
ينهى اليه كل ذي سند علي
وجميع مايرويه في فهرسته
اطلبه فيه تجده ثمّة وادعُ لي

ولما رجع من الحج توفي بحلب ، ودفن بها . وكانت وفاته في سنة اثنتين وثمانين وألف عن ثلاث وثمانين سنة تقريباً .

* * *

(**مصطفى**) بن فخر الدين بن عثمان ، العلمي ، القدسي . من فضلاء القدس وأعيانها . نشأ في طلب العلم ، ورحل إلى مصر ، وأقام بالازهر زماناً طويلاً ، حتى كادت لغة أهل مصر تغلب عليه ، وكان دائماً يتكلم بها . ورجع إلى القدس ، وصار **كاتب الصكوك في محكمتها** ، وولي **النيابة** كثيراً . وله من الآثار وقف على المؤذنين بالمسجد الاقصى . وله على الصخرة قنديل معلق يشعل ليلاً ونهاراً . وكذلك له خيرات على خدام سيدنا الخليل ، وله قنديل على الغار الذي في الصخرة . وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين وألف ولم يعقب . رحمه الله تعالى .

* * *

(**مصطفى**) بن قاسم بن عبد المنان **متولي أوقاف السنانية بالشام** . الدمشقي ، عين الاعيان ، ومجموعة النوادر الحسان . كان واحد الوقت في المحاورة ، وسرعة البداهة ، والنكتة والنادرة . وفيه يقول الامير المنجكي رحمه الله تعالى :

لنجل أبي المعالي حسن فهـم
وطبع كالزلال العذب صافي
تطاوعه المعاني حين يُنشي
وتخدمه النكات مع القوافي

اشتغل بالطلب على المنلا عبدالله القونوي ، امام جامع الدرويشية ، وعلى العلامة الشيخ رمضان بن عبد الحق العكاري . وشارك في العلوم الادبية ، وحفظ من الشعر ، العربي ، والفارسي ، والتركي ، أشياء كثيرة . ونظم الشعر ، وأكثر نظمه كان بالتركية ، ومخلصه رمزي . وحج في صحبة والده سنة ست وأربعين وألف . وصار أولاً من الجند الشامي ، ثم لما مات أبوه في التاريخ الذي ذكرته في ترجمته ، توجه ثاني يوم من وفاته إلى الروم ، وصار متولياً مكانه على أوقاف سنان باشا ، بموجب الشرط للعتقاء وذريتهم . وصار من المتفرقة بالباب العالي ، ورجع إلى

دمشق ، وقام مقام والده ، ووضع يده على ماخلفه له من أموال ، وأسباب . وتصرف في التولية بعقله ، ومدّ يده إلى البسطة والسرف ، وكانت العقلاء ينظرون إلى عاقبة أمره في عدم الانتظام . وصحب الوزراء ، والموالي ، وكانوا يقبلون عليه لبداعته ، وغرابته . وكان مكثراً في حكاياته ، وقلما يخلو من مبالغات في خطاباته ، لكنه على تعبيراته مسحة الحلاوة ، وعليها طل الطلاوة والنداوة ، ولما صار الوزير محمد باشا بويني اكري كافل الشام وزيراً أعظم ، سافر من دمشق في خدمته . وكان له اليه محبة ، فأنعم عليه برتبة أحد البوّابين للسلطان ، ولم يسبق لغيره من أهالي دمشق . ودخل دمشق بطرز غريب ، وأظهر بعض الخيلاء . وكان جند الشام في ذلك العهد قد صالوا ، وتاهوا ، فعزموا على مهاجرته. فلم يزل منطرحاً في زوايا الخمول ، حتى استألف بعض كبرائهم ، وأظهر لهم كمال الانحياز ، وأزال الحجاب . واختلت بعد ذلك أموره ، فقابلته الايام بوجه عبوس ، وأبدلته بعد النعم بالبوس . وأصابته العين ، ونفد ماعنده من النقد والعين . وأخذ يستلف على أقلام الوقف ، وقل عليه الايراد وكثر الصرف .

فزادت عليه الاحوال . وتكدّر منه الفكر والبال . وكان من جملة ماورثه عن والده ، الفلاحة ، والدار بقرية دير العصافير . وهي من محاسن الابنية ، والبساتين ، بالقرب من جامع تنكز . فباعها بدون ثمن مثلها ، وأنشأ عوضها قصراً بالصالحية بالجسر الابيض ، وصرف عليه مالاً كثيراً . وبلغني أن الذي اشترى البستان باع منه أشجاراً من الحور في السنة التي اشتراه فيها بثمنه ، الا ثلث قرش فضل عن رأس المال . وكان له من هذا القبيل أمور كثيرة.
وكان كثير النكات ، وقد جمع من نكاته جانباً في دفتر كان كثيراً مايوردها.ومن المتداول منها أن بعض كفلاء الشام كان طلب رماحاً من أعيان دمشق، وطلب منه ثلاثة فتعسرت عليه ، فأنشد البيت المشهور وهو :

ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته
ولكنه رمح وثان وثالث

وكان يوماً بمجلس بعض كفلاء الشام ، فدخل جماعة من طلبة العلم شاكين من مستوفي الخزينة ، بأنه قطع من معاليمهم أربعة أشهر من غير وجه ، وقرأ بعضهم قوله تعالى (إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عندَ اللهِ اثناعَشَرَ شهراً في كتاب

الله يوم خَلَقَ السموات والارض منها أربعةٌ حُرُم). فقال: الاربعة الحرم هي التي قطعها الدفتري . واتفق في قدمة مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر، أنه ورد إلى دمشق من أهالي حلب رجل يقال له عسكر ، وكان يحسن الموسيقى ويتردد إلى الاعيان للاستجداء . فكان يخاطبه اذا دخل عليه : أتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار . ووقع له أن كان في مجلس بعض القضاة بدمشق فدخل الشيخ يس البقاعي وأنشد قصيدة يمدح بها القاضي ، وكانت القصيدة ركيكة ، فلما أتم قراءتها تلى صاحب الترجمة الآية: (وما علَّمْناهُ الشعرَ وَما ينبغي لَهُ) . وقال له: الشيخ مصطفى بن سعد الدين: والدك كان خليفة والدي ، أخذ عنه الطريق ، وأنت خليفتي . فقال لست لك بخليفة ، ولا ابن الخليفة ، وأومأ إلى رجل من المجان يعرف بابن الخليفة . وكان صاحب الترجمة أحول ، فقال له بعض من له عليه ادلال من الكبراء : كم شخصاً تراني ؟ فحدق فيه وقال: لاأرى الا واحداً . وبالجملة فهو أكثر أهل العصر نوادر وتحفاً . وكانت ولادته في سنة سبع وعشرين وألف ، وتوفي في أوائل شعبان سنة تسع وسبعين والف . ودفن بمقبرة باب الصغير بالقرب من قبر أبيه .

* * *

(**يحيى**) بن زكريا بن بيرام **شيخ الاسلام** ، وأوحد علماء الروم باتفاق الاعلام . ذكره والدي رحمه الله تعالى ، فقال في حقه : سلطان علماء المغرب والمشرق ، ومطلع كوكب أفق السعادة المشرق . شيخ الكل في الكل ، من الدق والجل ، واحد الزمان وثاني النعمان . من بمكارم الاخلاق في الآفاق موصوف ، وفي تعداد أفراد النوع الانساني واحد يعدل ألوف . كبير المملكة السلطانية دون منازع ، بركة الدولة العثمانيةمن غير مدافع ، عمدة الملوك ، مرشد اهل الطريق والسلوك ، بحر المعارف ، بدر اللطائف ، صاحب الكلم النوابغ. مَنْ ثوب أنعامه على الأنام سابغ ، الذي ألقيت اليه أزمة السلم ، واحتوى على جوامع العلم ، وبدائع الحكم . محط رحال الآمال ، وكعبة ارباب الكمال ، من لم تسمح بمثله الادوار ، ولم يأت بندّه الفلك الدوار . يقال فيه :

هيهات لايأتي الزمان بمـــثله
ان الزمان بمـــثله لبخيـــل

ولد بقسطنطينية ، ونشأ بها ، واجتهد في التحصيل على علماء عصره حتى برع وتفوق ، ثم لازم من شيخ

الاسلام السيد محمد بن معلول . كما أن والده لازم من والد السيد المذكور . ثم درس بمدارس قسطنطينية ، وحج في خدمة والده سنة أربع وتسعين وتسعمائة . وكان والده اذ ذاك منفصلاً عن قضاء العسكر باناطولي ، ولما رجع ترقى في المدارس إلى ان وصل إلى احدى الثمان (١) ، ومات أبوه وهو مدرس بها . ثم درس بمدرسة الشهزادة، ونقل منها إلى مدرسة والدة السلطان مراد الثالث بأسكدار . وكان لها شأن عظيم في حياة بانيتها ، فاعطي منها قضاء حلب . وكانت أول مناصبه ، وكذلك وقع لوالده . فدخلها في سنة أربع بعد الالف ، خلفاً عن المولى الكمال ابن طاشكبري . ثم بعد مدّة قليلة وقع بينهما مبادلة فنقل صاحب الترجمة إلى قضاء دمشق، والكمال إلى قضاء حلب . وقيل في تاريخ توليته لها :

لما أحيا شرع الهادي
قاض عنه شاع العدل
يحيى المولى السامي قالوا
حقاً أرخ قاض عدل

(١) أي المدارس الثمان . وهي المدارس التي انشأها السلطان « محمد الفاتح » حول مسجده .

وكانت سيرته في هذين القضاءين من أحسن سيرة لقاض ، ثم عزل وتوجه من دمشق إلى معرة النعمان ، قاصداً دار الخلافة . وكان خرج من دمشق وعليه دين سابق لم يقدر على وفائه ، وكان قصد أن يمر على حلب ويستدين من بعض أهلها مبلغاً يوفي به مما عليه. واتفق ان كتخداه دخل عليه ، وشكى من المضايقة . فلم يستتم الكلام الا ودخل عليهم قاصد من طرف الدولة ومعه أمر بتوجيه قضاء مصر إلى صاحب الترجمة . فسر بذلك ، وعاد مبلّغ المراد ، وسار اليها وسلك مسلكه المعتاد . ونقل انه كان في خدمته أحد عشر نائباً من ملازمي والده ، ومن طلبته . فاتفق انه ولى منهم ستة قضاء مصر ، بعد مدة . وعزل عن قضاء مصر ، فأعطى كلاً منهم مبلغاً من الدراهم من ماله زيادة على ماحصل لهم من الانتفاع في أيام قضائه . وكان ابن أخته اسماعيل ، الذي صار آخر أمره أحد صناجق مصر في خدمته . وكان وجه اليه نيابة المحاسبات ، فبلغه انه أخذ من بعض النظار عشرة سلطانية من غير وجه ، فناداه وهو في داخل الحمام ، وقال له : بلغني انك أخذت من فلان كذا ، فاعترف . فقال له :

اذن ترحل عني إلى الروم ، واليوم سفينة فلان متجهزة فلا تتخلف عنها . فأقلع من وقته . ولما عزل أقام ببولاق بعض ايام عند القاضي زين الدين العبادي ، كاتب المحاسبات بأوقاف مصر . وكان العبادي المذكور من الرياسة والنعمة بمكان ، لكن حصل منه تقصير في خدمته . واتفق انه شكى اليه كثرة الناموس ، وطلب منه ناموسية فتهاون في ارسالها اليه ، فبعث صاحب الترجمة إلى محافظ مصر يستأذنه في الذهاب بحراً . فلما وصل رسوله إلى المحافظ وعرض عليه ، أجابه بأن يتربص أياماً ، فقام الرسول ليذهب ، واذا ببريد قدم من قسطنطينية ، ومعه أمر بتقرير صاحب الترجمة في قضاء مصر . فعاد الرسول مسرعاً وأخبره . ثم أرسل الوزير الامر ، فدخل الزين العبادي مهنياً ، وأظهر كمال الرياء . وكان صاحب الترجمة حقد عليه جداً ، فأخرج في الحال عنه جميع مافي يده من جهات ومعاليم ووجهها إلى فقراء الازهر ، وكانت اشياء كثيرة مع عدم احتياجه اليها ، لكونه في غنية زائدة . وعزله عن كتابة المحاسبات ، وبقي مقهوراً مدة أيام ثم مات من قهره . ثم عزل ، وسار إلى قسطنطينية .

وبعد مدّة صار قاضياً ببروسة ، ثم ولي قضاء أدرنة ، ثم قضاء قسطنطينية ، ثم صار قاضي العسكر باناطولي مدّة يسيرة ، ونقل إلى روم ايلي ، ثم عزل ، وأعيد مرة ثانية سنة ثمان عشرة وقيل في تاريخه (فضل حق) . ووقع في أيام قضائه ان درويش باشا الوزير الاعظم أمر بقتل رجل في الديوان ، فقال له صاحب الترجمة : مااللذي أوجب قتله ؟ فقال له : أنت مالك علاقة بهذا . فقام من الديوان ، وترك منصب قضاء العسكر . فلما سمع السلطان أحمد بذلك ، بعث اليه يستخبر منه عن قضية تركه . فأجابه بقوله : ان القضاء أمانة ، والسلطان انما يولي قضاء العسكر لسماع الدعاوى ، وانصاف الظالم من المظلوم ، والآن قد قتل رجل من غير ان يوجب الشرع قتله ، فلم يوجد اتصاف بما ولّينا لاجله القضاء ، فتركنا المنصب لذلك . ففي ذلك اليوم قتل السلطان أحمد درويش باشا المذكور ، وحصل لصاحب الترجمة غاية الاقبال من السلطان . وعزل بعد مدة وأعيد ثالثاً . ثم ولي **الافتاء السلطاني** في يوم جلوس السلطان مصطفى ، وهو اليوم السادس من رجب سنة احدى وثلاثين وألف .

وقال العلامة عبد الرحمن العمادي مؤرخاً توليته بقوله :

لقد صار مفتي الروم يحيى الذي سما

سناء سماء المجد والعلم والتقوى

فنادى بشير السعد فيها مؤرخاً

لمولاي يحيى منصب العلم والفتوى

وكان أول سؤال كتب اليه : أوّل واجب على المكلف ماهو ؟ فاجاب هو معرفة الله تعالى ، فاعلم انه لا إله الا الله . وبنى في توليته هذه مدرسته المعروفة قريباً من داره بمحلة جامع السلطان سليم القديم ، وأرخ عام تمامها الاديب محمد الختاتي المصري بقوله :

مفتي البرايا بنى لله مدرسة

لها من الانس أنوار تغشيها

على الهدى أسست واليمن أرخها

دار العلوم فيحيى العدل منشيها

ثم عزل وأعيد ثانياً . وكان أول سؤال رفع اليه : المؤمن اذا أراد الشروع في أمر ذي بال بماذا يبدأ حتى يكون ماشرع فيه مباركاً ؟ فأجاب يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم عزل ثانياً ، في رجب سنة احدى وأربعين في حركة العسكر ، بمخامرة الوزير رجب باشا وشيخ

الاسلام حسين ابن اخي . وجمعوا جمعاً عظيماً عند السلطان مراد ، وأرسلوا إلى صاحب الترجمة رسولاً يطلبونه إلى الديوان ، على لسان السلطان . وكانوا صمموا على قتله في الطريق اذا جاء ، حتى انهم رأوا المولى محمد الشهير بجشمي قاضي العسكر باناطولي ، وهو متوجه ، فظنوه هو ، وما حققوه بعينه ، فلما عرفوه أطلقوا سبيله فأرسل إلى صاحب الترجمة رسولاً يحذره الحضور من الطريق العام ، فسار من طريق آخر . فلما رآه السلطان عرف انها مكيدة ، فأشار اليه بالعود بيده فلم يمكنه ذلك . فأرسل اليه السلطان رسولاً ، وأخذه إلى الداخل . ثم ان العسكر قتلوا الحافظ الوزير الاعظم ، ونصبوا رجب باشا مكانه ، وجعلوا ابن أخي مفتياً ، وخمدت الفتنة . ثم ان السلطان التفت إلى صاحب الترجمة وقال له : قد عزلك القوم ، وأنا ماعزلتك ، فسر إلى حديقتك واشتغل لنا بالدعاء، واذا صار سلطانك سلطاناً كما كان ، صرت مفتياً كما كنت .
ثم فارقه فسار إلى داره ، ثم توجه إلى بستانه المعروف به بطوب قبوسي من أبواب قسطنطينية . وبقي ثمة إلى أن قتل ابن أخي في رجب سنة ثلاث وأربعين ، فأعيد ، وبقي

في هذه المرة إلى ان مات . ولم يتفق لاحد من المفتين ماااتفق له من طول المدة ، والاقبال ، والحرمة ، والجلالة . ولم يمدح أحد بما مدح به من مشاهير الشعراء . ومدائحه التي جمعها التقي الفارسكوري ، وقد تقدم ذكر خبرها في ترجمته ، من ابتداء توليته قضاء حلب إلى ان ولي قضاء العسكر بروم ايلي ومابعد ذلك ، فقد تكفل والدي بجمع حصة منها بلغت مقدار ثلاثة كراريس ، وهي قطرة من بحر . ورزق السعادة في الجاه ، والحفدة . بحيث صار أحد ملازميه ، وهو المولى عبدالله بن عمر خواجه زاده ؛ قاضي العسكر بروم ايلي . وولي الافتاء من جماعته ثلاثة ، وهم مصطفى البولوي ، ومحمد البورسوي ، ومحمد الانقروي . وأما من ولي منهم قضاء العسكرين ، وغيرهما من المناصب والمدارس ، والقضاء ، من أهل الروم ، ودمشق ، وحلب ، وغيرها ، فلا يحصون كثرة . وأكثرهم شاعت فضائلهم ، وعمت فواضلهم . وبالجملة فانه أستاذ الاساتذة ، وأعظم الصدور الجهابذة . وقد جمع شيخ الاسلام محمد البورسوي فتاويه التي وقعت في عهده في كتاب سماه : فتاوى يحيى . وهو الآن مشهور متداول .

وأما شعره العربي فمنه تخميس البردة للبوصيري ، يقول في مستهله :

لما رأيتك تذري الدمع كالعنم
غرقت في لجج الاحزانوالالم
فقل وسر الهوى لاتخش من ندم
أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

تمسي بعين بوبل الدمع ساجمة
ونار وجد بجوف القلبضارمة
فهل بريد أتى من حي فاطمة
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضَم

متى السلو لاهلالعشق عنه متى
وحب حبسليمى في الحشا نبتا
انْ تنكر الوجدعنديبعدما ثبتا
فما لعينيكان قلت اكففا همتا
ومالقلبك إن قلت استفق يَهِم

تريد تخفي الهوى والدمع منسجم
وفي حشاك لظى الاشواق مضطرم
هيهات كاتم سر العشق منعدم
أيحسب الصب أن الحب منكتم
مابين منسجم منه ومضطرم
تقول قلبي سلا عن أعين نجل
وتدعي الصحو والسلوان عن مقل
اني أخاف وحق الود من وغل
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
ولا أرِقْتُ لذكر البان والعلم
منها :
اذا وجدت امرءاً بالله معتصماً
اسمع مقالته مسترشداً فهماً
وكن لصحبته العلياء مغتنماً
وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محّضاك النصح فاتّهمِ
حكمت نفسك والشيطان فاحتكما
ياقلب ويحك ماذا الخبط ويحك ما

لاتقبلن منهما حكماً وان حكماً
ولاتطع منهما خصماً ولا حكما
فانت تعرف كيد الخصم والحكم

ومن لطائف شعره أيضاً :

ورد النسيم بأطيب الاخبار
طاب الورود وسائر الازهار
سكروا بخمر الشوق حتى أظهروا
مافي ضمائرهم من الاسرار
في جمعهم لم تلق الا ماسكا
قدحاً من الابريز والبلار
والحوض فيه مجالس ملكية
والورد كالسلطان في الانوار
لعب الشمول بهم فحركهم كما
لعب الشمول بزمرة الشطار

وقوله وهو معنى جيد :

كأن ورد خده عقـــار
شربتها حتى بدا الـــبلار

ونشقت شذا رياحينها ، وشممت عَرْف نفحتها ، وعاينت مجالس أنسها ، وقضيت منها العجب ، وحرك مني سطور طروسها مايحدثه القانون من الطرب ، توجهت بمجامع قلبي إليها ، وقلت موثراً موجز القول في الثناء عليها هذه الابيات ، وهي قولي :

ياروضة في رباها دَوْحٌ غدا سجع طيره
مغني الشفاء ومغن عن الشفاء وغيره

وكانت ولادته في سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وتوفي في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وألف ، ودفن عند والده بمدرسته المعروفة به . وقال المولى محمد عصمتي مؤرخاً وفاته بقوله :

مفتي الورى يحيى به
سما العلى وحيّة
لما مضى مولّياً
عن هذه الدنية
سمعتُ من جهزه
بأحسن التحية
يقول تاريخاً له
في جنة علية

* * *

الفهرس

المقدمة العامة	٥
قيمة كتاب خلاصة الأثر	١٩
سيرة المحبي	٢٣
مؤلفات المحبي	٤٥
التعريف بكتاب خلاصة الأثر	٥١
اختيار التراجم	٥٩
المدخل إلى تراجم أعلام السياسة والادارة	٦٥
المعطيات السياسية	٦٦
المعطيات الاجتماعية	٩٠
المعطيات الاقتصادية	١١٥
المختارات من كتاب « خلاصة الأثر »	١٢١

والبلار لغة في البلور رأيته في استعمال المولدين منهم المعتمد بن عباد على ماذكره الفتح في قلائد العقيان .

جاءتك ليلاً في ثياب نهــار
من نورها وغلالة البـــلار

والشرب في بيته كناية عن التقبيل زالت به الحمرة فبدا البياض . ومن لطائفه أيضاً قوله :

بحُلّةٍ حمراءَ جاءت وقـــد
تفوح بالعنبر أذيالُهـــا
حِلْيتها لَعْلٌ(١) وياقــوتة
صيغ من العَسْجد خلخالها

ومن إنشائه الباهر ، ماكتبه على كتاب في الطب ، اسمه مغني الشفا : ياله من روضة شحاريرها أقلام المادحين من النحارير ، وألحان سواجعها ماسمع لدى التحرير من الصرير . غصونها أورقت ولكن بصحائف كأنها مملوءة باللطائف أطباق ، وأثمرت والعجب أن منابت ثمارها بطون الاوراق . من وقف عليها وتوقف فيما قلته من الوصف العاري عن المراء، فلا شك أنه مبتلى بداء الترك وليس له دواء . ولما أجلت نظري في ربوة حسنها وبهجتها .

---

(١) حجر كريم .

مسرد التراجم من فئة« الملوك والسلاطين والأمراء» ١٢٣
النصوص المختارة ١٢٧
مقدمة « خلاصة الأثر » ١٢٩
السلطان ابراهيم بن أحمد (العثماني) ١٣٧
ابراهيم باشا بن عبد المنان (الدفتردار) ١٤٥
الشريف أبوطالب (شريف مكة) ١٤٨
الأمير أحمد بن رضوان (أمير غزة) ١٥٧
الأمير أحمد بن طراباي (أمير اللجون) ١٦٢
مولاي أحمد بن عبدالله بن محمدالشيخ (سلطانالمغرب) ١٦٤
السلطان أحمد بن محمد (العثماني) ١٧٣
أحمد باشا الفاضل (الصدر الأعظم) ١٩٢
أحمد باشا كوجك (والي الشام) ٢٠٠
السيد حسن بن الامام القاسم (إمام اليمن) ٢٠٧
الأمير حسن بن الأعوج (أمير حماة) ٢٠٩
حسين باشا جانبولاد (أمير كلس وحلب) ٢٢٥
حسين باشا الوزير (والي دمشق الشام) ٢٣١
خليل باشابن كيوان (أمير الحج الشامي) ٢٣٤
الأمير رضوان بن عبدالله الغفاري(أمير الحج المصري) ٢٣٦

سنان باشا (الصدر الأعظم) ٢٣٩
الأمير شديد بن أحمد (حاكم العرب البدو) ٢٤٦
الشاه عباس بن محمد (شاه ايران) ٢٦٧
الأمير علي بن جانبولاد (الأمير الثائر على الدولة) ٢٥٤
علي باشا بن أحمد باشا كوزلجة (والي تونس وحاكم البحر) ٢٦٤
السلطان عمر بن بدر (سلطان حضرموت) ٢٦٦
الملك عنبر شنبو (وزير في الهند) ٢٦٧
فخر الدين بن معن (أمير الشوف) ٢٧٦
الامام القاسم المنصور بالله (امام اليمن) ٢٨٠
كيوان بن عبدالله (كبير جند الشام) ٢٨٤
محمد باشا (نائب حلب وأذنة) ٢٩٢
محمد باشا الكوبري (الصدر الأعظم) ٢٩٦
السلطان محمود بن ابراهيم (سلطان الدكن) ٣٠١
الأمير منصور بن فريخ (أمير البقاع) ٣٠٣
الأمير منصور الشهابي (أمير وادي التيم) ٣٠٧
الأمير موسى بن علي الحرفوش (أمير بعلبك) ٣٠٩

نصوح باشا (والي حلب) ٣١٢
الأمير يوسف بن سيفا(أمير طرابلس الشام) ٣١٩
مسرد التراجم المختارة من «رجال الدين والادارة » ٣٢١
الشيخ ابراهيم العمادي (خطيب جامع) ٣٢٤
ابراهيم الصمادي الواعظ (امام وواعظ) ٣٢٦
أبو القاسم محمد المغربي (مفتي المالكية بدمشق) ٣٣١
أحمد بن تاج الدين الدمشقي (قاضي الركب الشامي) ٣٣٢
أحمد بن اسكندر الرومي (كاتب القاضي) ٣٣٤
أحمد بن أكمل الدين (رئيس المؤذنين) ٣٣٥
المولى أحمد بن المنلا زين الدين (قاضي حلب فدمشق) ٣٣٦
المولى أحمد بن سليمان الأياشي (قاضي حلب فدمشق) ٣٤٩
أحمد بن علي الصفوري (قاض شافعي) ٣٥١
المولى أحمد بن عوض العينتابي (قاض دمشق فمصر) ٣٥٨
اسماعيل بن عبدالوهاب الهمداني (متولي أوقاف) ٣٦٧
برهان الدين بن محمد البهنسي (قاضي صيدا) ٣٦٩
السيد حسين البيمارستاني (نقيب أشراف حلب) ٣٧١
سعودي الغزي (مفتي الشافعية بدمشق) ٣٧٣
سنان باشا (متولي الجامع الأموي) ٣٧٥

صنع الله المحبي (قاض، عم المؤلف) ٣٧٧
عبدالقادر الطوري (المفتي الحنفي بمصر) ٣٨٠
عبد القادر قدري (قاضي عسكر) ٣٨٤
عبد الواحد الانصاري (قاضي قنفذة) ٣٨٦
عبد الوهاب الفرموزي (مفتي دمشق الحنفي) ٣٨٧
عيسى بن عبد الرحمن السكتاني (مفتي مراكش) ٣٩٢
فضل الله الأسطواني (رئيس الكتاب بالمحكمة) ٣٩٤
المنلا قاسم بن أحمد الكردي (ناظر وقف وإمام) ٣٩٥
السيدمحمدبن برهان الدين (نقيب أشراف الدولة العثمانية) ٣٩٦
محمد بن تاج الدين المحاسني (خطيب الجامع الأموي) ٤٠٢
محمدبن حسن الشهير بابن عجلان (نقيب الأشراف بدمشق) ٤١١
محمود بن عبد الله الموصلي (مفتي الموصل الحنفي) ٤١٣
مصطفى بن فخر الدين العامي (كاتب صكوك) ٤١٥
مصطفى بن قاسم بن عبد المنان (متولي وقف) ٤١٦
يحيى بن زكريا (مفتي السلطنة) ٤٢٠

* * *

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٩	١١	براحة	راحة
٧١	٥	وبيجافو	وبيجافور
٧٨	٧	سليمان الثالث	سليمان الثاني
١٢٢	١٣	٣٥٨	٣٨٥
١٣١	١٠	بالمثتين	بالمثين
	١١	الشبلي	الشلي
١٨٧	١٢	يحمل الماء	يحمل بها الماء
١٩٢	٧	وقته	ووقته
٢٠١	١٣	الأمر	الأمير
٢٣١	١٠	قنيجة	قمنيجة
٢٤٦	١١	ذرية	من ذرية
٢٥٨	٦	الأنيقي	الأزنيقي
٢٧٠	الأخير	سهلاً	سفلاً
٣٥٤	١٠	خلٌ	خلّ ٍ
٤١٨	٤	تنكر	تنكز

١٩٨٣ / ٨ / ٥٠٠٠

سعر النسخة
٩ ل.س

مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دمشق - ١٩٨٢